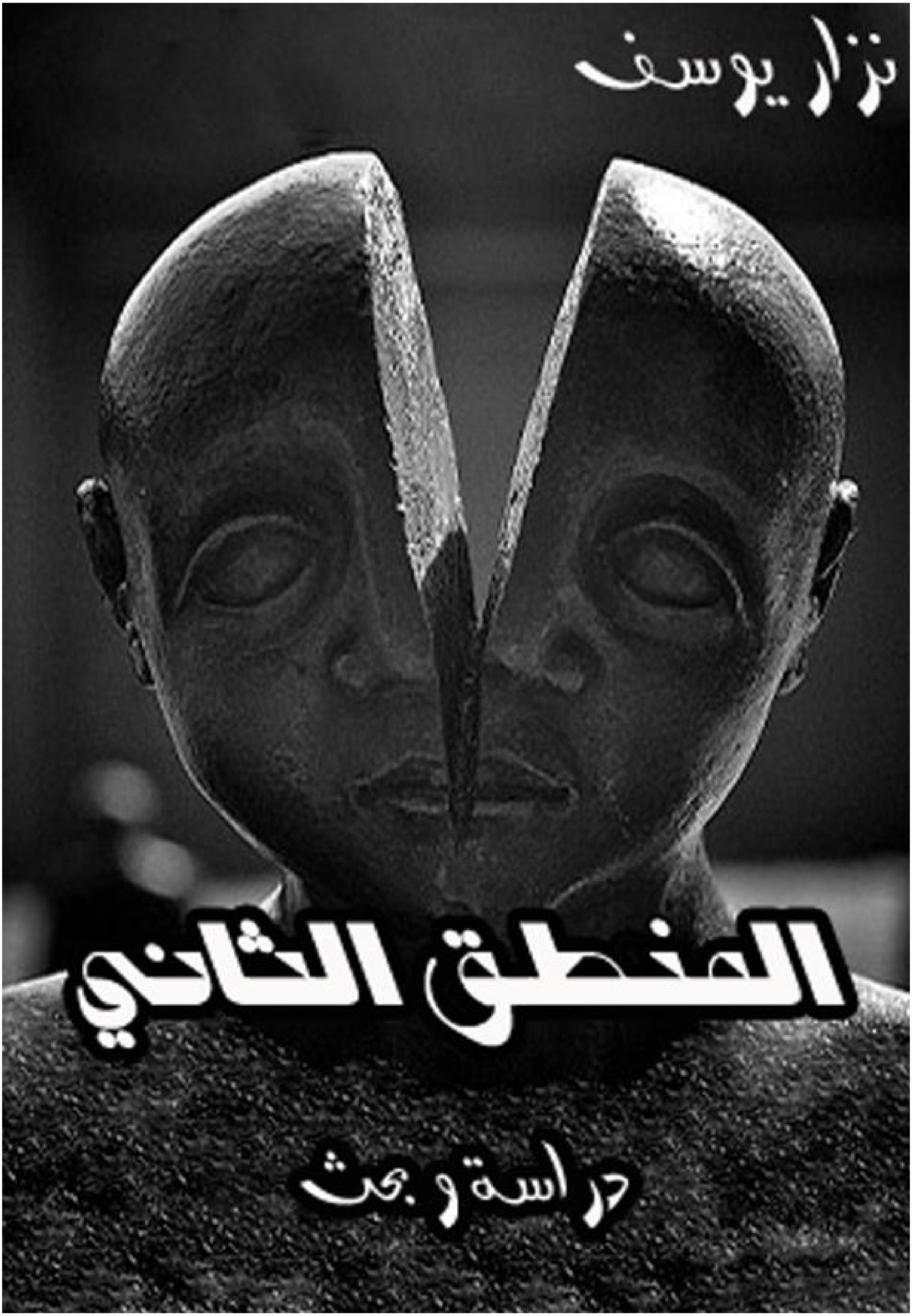

نزار يوسف
المنطق الثاني
دراسة و بحث

نزار يوسف

المنطق الثاني

(دراسة و بحث)

نسخة الكترونية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

صفحة المؤلف على الفيسبوك

www.facebook.com/nizary3

الغلاف : صورة من الإنترنت لتمثال نصفي لم يتم التعرف على مصدرها الأصلي

لست أدري والله من هو الأسوأ .. عديم المبادئ أم

صاحبها المُتاجِر بها (نزار يوسف) .

نحن إلى الحقائق .. أحوج منها إلى المبادئ (نزار يوسف) .

المبادئ التي لا تخدمني و تعمل لأجل سعادتي ..

هي تحت قدمي أياً كانت و مهما كانت (نزار يوسف) .

المحتوى

مقدمة

منذ أن وُجِدَ الإنسان على هذه الأرض و ظهر فيها ، برزت أمامه تحديات كثر ، أولها تحدي البقاء على الأرض و الحفاظ على حياته و جنسه من الانقراض ، نتيجة لعوامل عدة أبرزها الطبيعة القاسية المدمِرة التي شكلت تهديداً هائلاً و خَطراً كبيراً ، تلاها مباشرة تهديد الحيوانات و الكائنات المحيطة به ، و خصوصاً المفترسة منها أو تلك التي تشكل خطراً عليه . و هي التي كانت السبّاقة في التواجد على الأرض قبل أن يوجد هو . فالإنسان (على المؤكد المرجح) هو آخر كائن حي ظهر على كوكب الأرض .. وُجِدَ بدائياً عارياً ، ذو خبرة ضئيلة و مقدرة ضعيفة و إمكانيات دفاعية محدودة للغاية أمام كائنات خطرة و حيوانات ضارية مفترسة تعاملت قبله مع الطبيعة و خَبِرت تضاريسها و فن التعامل مع الكائنات الأخرى . و هي قد طورت نفسها إيجاباً نحو الأفضل و الأمثل . و طوال مدة وجودها و مكوثها بالأرض و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، استطاعت التكيف مع الطبيعة و ظواهرها ، مجردة من أية أدوات أو مستلزمات أخرى خارجية كونها تمتلك ميزاتها البدنية المختصة بكل منها على حِدة ، للدفاع عن نفسها و التكيف مع الوسط الخارجي و البيئة المحيطة . و بشيء من التمعّن و التفكير ، نجد أن معظم الحيوانات مصممة جسدياً و بيولوجياً للدفاع و القتل و

الافتراس (مخالب – أنياب – سموم قاتلة – عضلات عاصرة – ضربات قوية قاصمة) . بينما نجد بالمقارنة أن الإنسان هو بدنياً و فيزيولوجياً غير مصمم للقتل أو الدفاع و التكيف المجرد أبداً (لا أنياب لا مخالب لا عضلات قوية لا سموم قاتلة لا قوة بدنية لا قدرة على تحمل الطبيعة مجرداً) فهو لا يستطيع تحمل عوامل الطبيعة و ظواهرها و مظاهرها إذا ما تُرِكَ وحده عارياً و من دون مستلزمات و أدوات تعينه و تبقيه على قيد الحياة ، كالثياب التي تقيه البرد ، و السلاح الذي يدافع به عن نفسه ضد الضواري و المسكن و غيره .

في أي وقت شئت و أي مكان شئت وأي زمان و طقس شئت ، خذ أي حيوان شئت و اتركه في الطبيعة كما هو ، تراه قادر على العيش و توفير مستلزمات البقاء و التعامل مع الطبيعة و استخدام عقله كاملاً لأجل ذلك و تحمّل الجوع و العطش و التخفي و مداراة الأعداء و الدفاع عنه نفسه ضد أي خطر ، بما يختلف تمام الاختلاف عن الإنسان الذي لا يستطيع البقاء لأكثر من ثلاثة أيام متحملاً البرد و الجوع و العطش و سوف يكون محكوماً عليه بالهلاك المحتم . فهو كائن ضعيف غير قادر على الدفاع عن نفسه و لا مواجهة عوامل الطبيعة و مظاهرها . فإذا تُركَ في غابة باردة ، عارياً مجرَّداً من أي أدوات أخرى ، تراه يموت فوراً من البرد و لا يقدر على مواجهة أي حيوان مفترس أو الهروب منه أو مناورته و المراوغة منه ، فهو ضعيف البدن بطيء الحركة ليس له أنياب و لا مخالب ، مثله كمثل الشاة العاجزة .

كل حيوانات الأرض تأخذ عند ولادتها و خلقها فترة صغيرة جداً للتعلم و اكتساب الخبرة و القوة ، تبدأ من دقائق قليلة أو بضع سويعات و تكون في

أقصاها شهر أو شهرين كحد أقصى و بعد ذلك تنطلق لوحدها في عالم الطبيعة و الحياة و تكتسب من والديها فقط ما ينفعها في الحياة و الطبيعة .. فقط ما تحتاجه في الطبيعة . إلا الإنسان فإنه لا يقوى على مجرد المشي إلا بعد سنة و لا يقوى على مجرد النطق الكامل إلا بعد الخمس سنوات و لا على التفكر الكامل و الوعي و الإدراك و التعلم إلا بعد عشرين عاماً و قد تمتد أحياناً إلى الأربعين عاماً .

توضح (المقاربة – المفارقة) المذكورة آنفاً ، أن الإنسان و هو الذي يُطلَق عليه لقب (الحيوان الناطق) ، يعد فصيلة منفردة عن باقي الحيوانات و الكائنات الحية في الكرة الأرضية ، أو كما يقال (أمة وحده) . و ما ميزه عن بقية الحيوانات و الكائنات ، هو القدرة على الاختراع و الابتكار و التصنيع و التركيب المتطور المتقدم و الذي ليس له حد قريب ، بل أمد بعيد يبدو أنه غير متناه . و هو الأمر الذي ألجأه إلى التحدي الثاني ليغلب به التحدي الأول المذكور ، و يثبت وجوده و يحمي نفسه ، ألا و هو التحدي العقلي الذي برع فيه و نجح في استخدامه و تطويعه و تسخيره لخدمته تماماً ، فكان أن ساد الكائنات الأخرى و ساسها بسيطرة شبه مطلقة حيث سخّرها لخدمته و اتخذها متاعاً لاستهلاكه الغذائي بطريقة ممنهجة لم تعد تنحصر في الصيد فحسب بل تعدت ذلك إلى التربية أيضاً . كما اتخذها متاعاً لمصنوعاته و إنتاجه .

لقد تجلى التحدي العقلي أساساً عند الإنسان العاقل الأول ، بصياغة و إنتاج منظومة فكرية كان لا بد من وجودها لاكتمال التمايز البشري عن باقي الحيوانات ، و التأسيس للمشروع الإنساني الحضاري التقاني و لو بأشكاله البدائية الأولى .

لقد كان التحدي الفكري الأول للإنسان الأول الذي بدأ ينتظم في مجموعات أولى و يصنع الأدوات الأولى ، كان هو اللغة .. اختراع اللغة . و كما جاء في الإنجيل [في البدء كان الكلمة] (يوحنا ١ – ١) و كما كانت الكلمة هي البدء في السماء أو الأعالي ، كانت كذلك في الأرض الاختراع الفكري الأول لدى الإنسان العاقل كأداة من أدوات التعبير و التخاطب بين بني البشر الأوائل الذين أدركوا على ما يبدو ، أنهم خلفاء في هذه الأرض و أنهم متمايزون عن بقية الكائنات الموجودة فيها .

كانت الكلمة و اللغة ، الحاجة الأولى الأساس للإنسان ، كأدوات صوتية يعبّر بهما عن شعوره و مشاعره و احتياجاته . لكنهما بالدرجة الأولى كانتا لأجل تسمية الأمور بمسمياتها و الأشياء بأسمائها . فكانت الحاجة قائمة و ملحّة لوضع بصمة صوتية على كل ما هو موجود أمامه في الطبيعة ، من كائنات حية و أشياء جامدة و مظاهر طبيعية ، و كأنه قد شعر أن هذه الأشياء جميعها ، هي ملك له و لا بد من وضع بصمته الصوتية أو ختمه الصوتي عليها ، دلالة على ذلك . و لا أدَلّ على هذا الأمر ، من أن الاختراع الثاني الأهم في حياة الإنسان ، كان بدوره اختراعاً فكرياً يتعلق بالاختراع الأول ألا و هو الكتابة و التي تعني من ضمن ما تعنيه ، توثيق البصمة الصوتية أو الختم الصوتي الموضوع على الشيء . و المراد من ذلك عدم ضياع البصمة الصوتية و إنما حفظها بمدونة تدوم طويلاً . فضلاً عن أن الكتابة قد حلت مشكلة تبادل التعبير الصوتي المتمثلة بشرط الحضور الآني العياني المتبادل فيما بين المتكلم و السامع ، و هي مشكلة عويصة في بعض الأحيان ، إذ كان على المتكلم انتظار مجيء السامع و حضوره ليقول له ما يريد قوله ، فأضحى الآن بإمكانه ترك رسالة مكتوبة له و يذهب هو لمتابعة أعماله ، فتبدّت الأهمية

الثانية للكتابة إلى جانب التوثيق ، ألا و هي اختصار الوقت و نقل الرسائل و التخاطب عن بعد . و لا يعزب عن البال هنا أن نوضح أن الاختراع يختلف عن الاكتشاف ، في أن الاختراع هو خلق شيء من شيء غير موجود بمعطياته المادية و مقوماته الكاملة ، و يحتاج في الوقت نفسه إلى إعمال الفكر و الجهد العقلي و العضلي في إخراجه إلى حيز الوجود . بينما الاكتشاف هو إدراك و إظهار شيء موجود في شيء آخر موجود .

لقد كانت قوة الكلمة (لفظاً أم كتابة) في أنها تعطي على الفور ، صورة تعبيرية معينة في ذهن المتلقي السامع أو القارئ (شرط أن تكون مفهومة لديه) . و منبع القوة هذه ، في أنها أمر إجباري لا يمكن للسامع أو القارئ تجاوزه عن مخيلته و ذهنه ، فبمجرد أن نلفظ أو نكتب على سبيل المثال كلمة (شجرة) تنطبع على الفور في ذهن المتلقي أو السامع – شاء أم أبى – صورة شجرة ما ، لا على التعيين يضع له ذهنه عنها مجسماً افتراضياً صورياً . و لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل يمكن أن يقع ذلك على الأشياء و الكائنات غير الموجودة أصلاً في الطبيعة ، لكن معناها مفهوم كلامياً للشخص المتلقي . فمثلاً عندما نلفظ أو نكتب كلمة (أفعى بثلاث رؤوس) تنطبع على الفور في ذهن المتلقي السامع – القارئ ، صورة افتراضية لأفعى برؤوس ثلاث . و لعلك عزيزي القارئ قد لمست ذلك الآن بنفسك . علماً أنه لا وجود حتى الآن لأفعى بثلاث رؤوس على الأرض و لم يتم توثيق حالة مشاهدتها عياناً إلى الآن .

مع تطور الزمن و تطور الأمر الاجتماعي بتطور العلاقات الاجتماعية بين الإنسان و أقرانه و ما رافقها من مستجدات و أحداث حياتية معاشية يومية ، كان لا بد

من الانتقال باللغة و الكتابة ، من مستوى الكلمة التي تسمي الأشياء بمسمياتها و الكائنات بأسمائها ، إلى الكلمة التي توصف لحالات اعتبارية معينة اكتشفها الإنسان القديم في سياق حياته اليومية و ليس لها وجود عياني لكنها تعبر عن عمليات و أفعال معينة تجلت له نتيجة التطور الاجتماعي ، كالسرقة أو الكذب أو الزواج أو القوة و الضعف ... الخ . فانتقل دور الكلمة من التسمية إلى التوصيف .. من تسمية أشياء مادية محددة منفصلة بذاتها ، إلى توصيف أشياء و أفعال اعتبارية مرتبطة بمشاعر و أحاسيس و مبادئ عرفية قَبِلتها الجماعة أو رفضتها .

أيضاً مع تطور الأمر الاجتماعي الذي اختلط بالأمرين الديني و السياسي معاً و ما نتج عن ذلك من أحداث سياسية و عسكرية رافقها نشوء الدول و الممالك و الكيانات السياسية و الدينية ، ارتقى دور الكلمة من التسمية و التوصيف ، إلى الاصطلاح و ظهور ما يُعرف بـــ (المفاهيم) التي شكلت أساس وجود الأيديولوجيات اللاحقة فيما بعد . فالمصطلح أو العرف أو المنطق أو المفهوم ، هو في حيثياته و مضامينه مجموعة من الأشياء و المسميات و الأفعال تندرج جميعها في عملية واحدة أو أكثر ، و هي مفاهيم و مصطلحات منطقية ظهرت نتيجة تراكم الوعي المعرفي و الإدراكي الزمني . و تالياً برزت الحاجة إلى توحيد جملة المسميات و العمليات و الأفعال تلك (المادية منها و الاعتبارية) و صهرها ضمن بوتقة مفهوم واحد . و بالتالي برزت مفاهيم و مصطلحات جديدة لها منطقها الخاص بها ، كالعدل و العدالة و الحرية و الخير و الشر و الخيانة و الفضيلة و الإيمان و الإلحاد و العلم و الجهل ... إلى آخر ما هنالك من مفاهيم شكلت أعرافاً منطقية لاقت قبولاً من المجتمعات البشرية أجمع ، كما لاقت دعماً من الأمرين .. الديني و

السياسي معاً بوصفها تشكل حوامل أخلاقية عامة يتم إسقاط باقي المفاهيم و المصطلحات و الأعمال و التصرفات عليها ، و يتم تقييمها الأخلاقي العرفي بموجب هذه الحوامل .

لكن بالمقابل برز هنالك عامل هام جداً ، ربما كان خفياً بعض الشيء ، و خطِراً في بعضه الآخر بالنسبة لهذه المناطق [1] الاصطلاحية ، و هو عامل النسبية و الميوعة في هذه المصطلحات و المناطق جميعها . فهي قد تختلف باختلاف العادات و الشعوب و المجتمعات و الأديان و المذاهب و الآراء و الأيديولوجيات السياسية و الاجتماعية و العرقية . و بالتالي فهي و إن كانت محل اتفاق بين بني البشر ، إلا أنها لا تمثل قيمة ثابتة و حيز جامد لا يتغير ، فهي إذن معيار قياسي عالمي لكن ليس بمعطيات رقمية ثابتة (إن صح التعبير) لجميع بني البشر بل هي ذات قياسات و معايير متفاوتة الارتفاع و الشدة ، و تصول و تجول ضمن مساحة لا بأس بها في بعض الأحيان . فهنالك من يؤمن بها و يعتنقها ضمن معاييرها القياسية العالمية الثابتة ، لكن ضمن حيّزه الديني أو العرفي أو السياسي ، و يطبقها على بني جنسه الذين هم من ضمن هذه الدوائر فقط . أما الذين هم خارجها ، فهؤلاء بمنظوره غير خاضعين لهذه المعايير و المناطق الأخلاقية أو تلك المفاهيم السامية العليا لا بل يطبق عليهم غيرها و يتعامل معهم ربما بما يتنافى و يجانب معاييره الإنسانية و مناطقه الاصطلاحية تلك .

---

[1] جمع منطق و يُقصَد به هنا المفهوم الاصطلاحي أكثر منه الاستنتاج العقلي و النتائج العقلانية .

و إلى جانب كل ما ذُكر آنفاً ، تبرز قضية أخرى أكثر خطورة و أهمية بالنسبة لتعامل بني البشر مع المعايير و الاصطلاحات المنطقية التي اخترعوها و أوجدوها للقيام بالدور التوصيفي المدلول إليها بالنسبة لما اعتبروه إيجابي أو سلبي .. مفيد أم ضار . و أساس هذه القضية و منطلقها ، يعود بالدرجة الأولى إلى أن هذه المفاهيم قد ارتبطت بالإنسان مباشرة و حصراً ، و تعلقت به هو وحده دوناً عن غيره من بقية الكائنات و الحيوانات الأخرى الموجودة على الأرض قبل أن يوجد هو . فهو قد اخترعها و أوجدها لنفسه ، ليتعامل معها هو نفسه . و جاءت بها الأديان السماوية و الأرضية لتخاطبه هو وحده دوناً عن بقية الكائنات التي اعتبرتها منفصلة عنها و لا علاقة لها بها و غير داخلة منطقياً في منظومتها الفكرية و العقلية بل لا تنطبق عليها . و هي كانت الفارق و الفيصل الذي فرق الإنسان عن بقية الحيوانات و الكائنات الأخرى و ميزه عنها بجنسه الإنساني . فأصبحت هذه المفاهيم و المناطق و المصطلحات ، لازبة إنسانية و متلازمة بشرية حصراً . حيث يفترض أن بقية الحيوانات غير معنية بها إطلاقاً ، فالسباع و البهائم و هوام الأرض الأخرى لا تعنيها الديمقراطية و العدل و الإيمان و الصدق و الخير و ما إلى ذلك ، بل هي خارج هذه المنظومة الفكرية تماماً و لها منظومتها الفكرية و العقلية الخاصة بها المسماة (شريعة الغاب) و المنفصلة تماماً عن منظومة الإنسان الفكرية و لا تشترك معها بأية بدوائر عقلية .

هذه المقولة كلها لا يمكن تفسيرها إلا بالنظر إلى تاريخ الإنسان نفسه ، و هي نظرة مقارنة فيما بين الإنسان و ما بين الحيوان ، و تحمل في مضمونها صفة

التجريدية و تعتمد مبدأ الشفافية . و بإلقاء نظرة مقارنة شفّافة صريحة لتاريخ الإنسان العاقل و الحيوان على الأرض و حتى الآن نرى ما يلي [١] ..

١)- كل الحيوانات في كوكب الأرض قديمة جداً ، و موجودة فيها منذ عشرات و مئات الملايين و آلافها . إلا الإنسان فهو أحدث حيوان [٢] وجد على الأرض و لم يأت بعده حيوان آخر . و لم يتعد وجوده في الأرض آلاف السنين .

٢)- كل الحيوانات في كوكب الأرض و طوال مدة بقاؤها و مكوثها فيه منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تسئ فيها إلى طبيعتها أو تحور فيها أو تغير من معالمها . إلا الإنسان ، فمنذ ظهوره ، أعمل الإساءة و التخريب في الأرض و غير من معالمها من قلع و حرق للغابات و حفر و تلويث .

٣)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن لم تتسبب بأية كوارث طبيعية أو مناخية ضارة في الأرض ، إلا الإنسان ، فقد أعمل تشويهاً و تدميراً بالطبيعة الجغرافية و المناخية للأرض سواء من حيث الكم الهائل من الغازات الضارة التي تسببها مصانعه و آلياته و حروبه و سمومه الكيميائية و تفجيراته النووية المؤدية للزلازل و البراكين و ذوبان الثلوج في القطبين الشمالي و الجنوبي و اتساع ثقب الأوزون المؤدي لمرور الأشعة الفوق البنفسجية القاتلة .

٤)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تتسبب

---

[١] من مقال لي في موقع إيلاف بعنوان (إلا هذا الحيوان) تاريخ ٢٠١٠/٧/١٢ .

[٢] يُعتبر الإنسان علمياً من الحيوانات و يطلق عليه مسمى (الحيوان الناطق) .

بانقراض جنس أو فصيلة أو نوع حيواني آخر ، حتى المتوحشة المفترسة منها ، لم تفعل ذلك .. إلا الإنسان ، فقد تسبب بانقراض أنواع و أجناس عدة من حيوانات و حشرات بسبب أفعاله المذكورة سابقاً و بسبب صيده الجائر المنطلِق من غاية نفعية أنانية أساسها الطمع و الجشع لأجل حفنة من المال لقاء بيع قطع العاج أو الفراء أو مستحضرات التجميل أو ما إلى ذلك .

٥)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، لم تمارس عملية القتل إلا للغذاء و القوت ، فالقتل عندها هو حصراً عملية افتراس و ليس لمجرد القتل . و شريعة الغاب الموجودة لديها هي من الرقي بحيث تمنعها من التطور إلى أكثر من عملية افتراس فردية للبقاء على قيد الحياة و تنتهي فوراً بمجرد الشبع الآني اللحظي . فترى السبع بعد أن يشبع ، يتعايش مع بقية طرائده دونما قتال أو أذى حتى معاودة فترة الجوع التي تمتد من أسبوع إلى أشهر لا يمارس أثناءها القتل لأجل القتل . إلا الإنسان الذي تعدت عملية القتل عنده ، من القوت و الغذاء إلى القتل للّهو و الجشع و الطمع و السلب والنهب و الخلاف بالرأي و المعتقد و وصل الأمر إلى حد الإبادة العرقية و الدينية و السياسية . الحيوانات جميعاً لا تقتل بعضها لأجل الخلاف بالشكل أو طريقة التصرف أو الأسلوب أو ما شابه .. أي بمعنى أنها لا تقتل لأجل الاختلاف ، إلا هذا الحيوان الناطق ، فإنه يقتل ويبيد و يدمر لمجرد الاختلاف . لم نسمع يوماً أن السبع قتل القرد لأن القرد يفضّل بناء البيوت على الأشجار و ليس في المغاور ، أو أن صقر قتل أرنب لأن الأرنب يؤمن و يعتقد بالجحور أكثر من عقيدته ببناء الأعشاش العالية ، أو أن النمر الإفريقي

يتقاتل مع النمر الأسيوي لأن هذا إفريقي و ذاك أسيوي . إلا الإنسان فإنه يقتل نظيره في الجنس لمجرد الخلاف بالرأي و يصل الأمر إلى إبادة جماعات بأكملها .

٦)- كل الحيوانات في الأرض (من البعوضة و النملة ، إلى الديناصور) و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن تمنح فريستها من الجنس الآخر حق الحياة و تحترم ناموس البقاء و أخلاقياته لفرائسها ، فترى السبع يقتل فريسته و لكنه يبقي على صغاره و يبقي على مسكنه ولا يدمره و لا يمارس التطهير ، و لم يحدث في التاريخ أن أفنى حيوان جنس حيوان آخر . إلا الإنسان ، فإنه يقتل و يقتل و لا يشبع من القتل إلى درجة الإبادة و التطهير ، منذ أن ظهر على هذه الأرض .

٧)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، قد طورت نفسها إيجاباً للأفضل سواء لناحية المسكن أو المأكل أو المشغل ، و تكيفت إيجاباً مع ذلك ، جسدياً أو عقلياً عبر ملايين السنين ، و لم ترجع القهقرى أو تنكس إلى الخلف ، إلا الإنسان ، فإنه لم يستطع أن يطور نفسه إلى الآن لخير بني جنسه و فائدتهم إلا بالحيز الضيق و ليس بالعموم المطلق . و كل تقنياته التي طورها أو بالأحرى اكتشفها بالطبيعة ، سخّرها في أحيان عدة لضرره و ضرر بني جنسه و ضرر الطبيعة و الأرض التي يعيش عليها . و عاد بها القهقرى إلى الوراء ، حتى لربما قد تكون يوماً سبباً في دماره و هلاكه .

٨)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، و على اختلاف أنواعها و مشاربها ، تستخدم

كامل عقلها الذي وهبه الخالق لها ، مهما صغر و مهما كانت محدوديته و كميته المنوحة لها ، تستخدمه كاملاً دونما نقصان و تسخره لخدمتها و حياتها من خلقها و حتى مماتها و لا تدخر منه جهداً أو كماً ، إلا الإنسان الذي وُهِب العقل الكامل (منطقياً) و الذي سمى نفسه بـــ (العاقل) و يتدرج استخدامه لعقله ، من الاستخدام الكامل الذي يقع على فئة قليلة في العالم ، ثم الاستخدام الغالب الذي يقع على دائرة أكبر ، فالاستخدام الأدنى ضمن نطاق أكبر .. مروراً بالتعطل الجزئي لدوائر أكبر ، وصولاً إلى التعطيل الكلي الذي – للأسف – قد أضحى الآن يشمل الغالبية من هذا الجنس . إذن .. العلاقة عند الإنسان بين الاستخدام الكمي للعقل و بين العدد الكمي ، هي علاقة عكسية .

لم نسمع بيوم من الأيام عن بعوضة استغنت عن عقلها أو قررت توفير قسم منه .. حتى الأشنية أو قنديل البحر الذي يعتبر أبسط الكائنات ، تراه يتصرف دوماً بالطريقة الأفضل و الأمثل . مستحيل أن ترى حيواناً ما ، كائناً ما كان ، قد جمّد عقله أو حجّره أو ألغاه . و لا يحصل هذا الأمر إلا مع الإنسان الذي يسمي نفسه عاقل . و الذي قد يصل به الأمر في بعض الأحيان إلى درجة إلغاء عقله و فكره تماماً .

٩)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، تتزاوج بعضها من بعض ، حتى و لو كانت من فصيلة أخرى من ضمن الجنس الواحد ، كالخيول مع الحمير و الكلاب مع الذئاب ... الخ . وتشكِّل سلالات جديدة . إلا الإنسان ، فإنه يرفض و يأبى التزاوج مع بني جنسه هو و فصيلته هو ، و ليس فصيلة أو جنس آخر . فقط لمجرد

الخلاف بالمذهب أو الدين أو العرق أو الطائفة أو الانتماء و يعتبرهم ليسوا من بني جنسه . الحيوانات تطبق الآية القرآنية {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات:١٣) . إلا الإنسان ، فإنه يخالفها مع أنها أساساً جاءت لأجله و كان هو المخاطب فيها .

١٠)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، تتعايش بعضها مع بعض بفصائلها و أجناسها و أضرابها كافة ، المفترسة منها و الفرائس و تعيش جميعا في حيز و مجتمع واحد مفتوح كالغابات الإفريقية أو غيرها ، منذ الملايين من السنين. و لم يحدث يوماً أن شنت فصيلة ما الحرب على فصيلة أخرى . أو هجرتها من مكانها لاختلافها بالشكل و الجنس و النوع أو الفصيلة .. منذ مئات الملايين من السنين و السبع يعيش مع الثور و الذئب مع الشاة و الثعلب مع الدجاج و النسر مع بقية الطيور .. منذ مئات الملايين من السنين و كلٌّ يفترس لأجل البقاء والمعيشة ، لكن يحترم حق الآخر بالوجود و الحياة و لا يتعدى حاجته من القوت ويتجاوز حده في القتل ، مهما كانت الأسباب ، الكواسر منها و الجوارح و العواشب ، فهنالك نوع من التفاهم بين هذه الحيوانات . إلا الإنسان فإنه لم يستطع بالرغم من كل تطوره الحالي و التقنية التي توصل إليها أو استحصلها ، أن يتعايش مع نفسه و يتصالح مع بني جنسه و قومه و يتفاهم معهم . بل عزل نفسه ضمن كيانات و غيتوهات فكرية و عقلية و مكانية و مذهبية و طائفية و سياسية و رفض التعامل مع الآخر بأي شكل و حجب نفسه عنه ، و حاربه و قتله و أباده و هجره من جواره لمجرد الخلاف معه بالرأي .

منذ ظهوره على الأرض و تاريخه كله قائم على الحروب و الإبادة و سفك الدماء و نبذ الآخر ، ما جاء مصداقاً للآية الكريمة { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ . . . } (البقرة:٣٠) . علماً أنه هو الكائن الوحيد غير المضطر لقتل أخيه الذي من جنسه ، كونه لا يأكل لحمه . هذا الإنسان تفاهم مع بقية الحيوانات و تفاهمت هي معه ، إلا أنه حتى الآن لم يستطع التفاهم مع بني جنسه ، و ربما لم يسطع ذلك .

١١)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن ، حافظت و تحافظ على التوازن العددي لجهة التكاثر و لم يُسمع عن حيوان أنه وصل إلى وضع الانفجار العددي ، علماً أنها مؤهلة لهكذا ظاهرة ، كونها تلد بالمجموعات كالقطط و الكلاب و الأرانب و السباع و الأسماك التي تلد بالآلاف لا بل بالملايين . لكنها قادرة على ضبط موضوع التكاثر لديها إذا ارتأت أنه لا داع لذلك أو أنه من الممكن أن يؤدي إلى ضرر يمسها و أذى يطالها . إلا الإنسان فإنه و بالرغم من امتلاكه للعقل فإنه يتكاثر الآن بطريقة مرعبة في أكبر انفجار سكاني يهدد موارد الأرض و طبيعتها و يبشر بحروب لأجلها و أمراض متطورة مستعصية . دون أن يضع حد لذلك أو يرعوي و يدرك الخطر المحدق به .

١٢)- كل الحيوانات في الأرض و طوال مدة مكوثها و بقاؤها فيها منذ مئات الملايين من السنين و حتى الآن تتصرف بطريقة عقلانية تراعي فيها أمرين اثنين لا ثالث لهما .. مصلحتها الفردية لأجل الغذاء و المسكن .. و عدم إيذاء الآخر من حيوان و طبيعة و التعدي عليهما ، دونما سبب قاهر ، متقيدة بالقانون الإلهي

المكلفة به . إلا الإنسان فإنه لم يتصرف منذ وجوده على الأرض إلا ضد مصالحه و مصالح بني جنسه من عدوان و قهر و ظلم و اغتصاب و دمار .. الدمار و التخريب لا يوجد في قاموس الحيوانات . لا يوجد حيوان على وجه الأرض يدمر و يخرب ، هو فقط يأكل ، أسراب الجراد التي تهاجم الحقول ، يتراءى لنا أنها تخرب ... أبداً .. هذا ليس تخريب ، إنها تأكل فحسب و تنتهي مهمتها عند الحقل الهدف فحسب و لا تتعداه لغير ذلك مطلقاً مهما كانت الأسباب . إلا الإنسان فهو الوحيد الذي يوجد في قاموسه التدمير و التخريب و الأذى المتعمد لأجل الأذى و هو الطغيان ، و هو مصداق الآية القرآنية {كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى} (العلق:٦) . اقتصر الطغيان على الإنسان فقط و لم يقل (كلا إن الدواب لتطغى) فلماذا ؟؟؟ الأمر واضح . الحيوان لا يطغى .. و الطغيان هو من اختصاص الحيوان الناطق فقط .

إن تاريخ البشرية على كوكب الأرض ، لا يخلو مفصل من مفاصله أو فترة من فتراته ، من الحروب و الكوارث و الغزوات البشرية ، و التسبب بمذابح كثيرة و أراقة دماء أكثر راح ضحيتها الكثير من البشر و التي امتلأت أيضاً بالكثير الحافل من مظاهر الخراب و الفساد و الشر ، و هو ما لم يكن لبقية الكائنات الأخرى دور فيه ، و كان في الوقت نفسه خارج نطاق أعمال الطبيعة و آثارها السلبية . هكذا كان التاريخ البشري كله بالرغم مما رافقه من نشوء حضارات بشرية عمرانية و مفاهيم و مناطق و أديان و أيديولوجيات تبشر بالخير و الأخلاق و الفضيلة و العلم لبني البشر جميعاً ، و تدعوهم إليها في الوقت نفسه .

و بالرغم من ذلك كله ، و بالرغم من التقدم العلمي التقني الهائل لبني البشر ، فإنه بإجراء عملية موازنة و كَيْل لهذه المصطلحات و المناطق و المفاهيم العليا السامية مع ما يقابلها من أضرابها و نظيراتها المخالفة لها ، نرى أن الكفة ترجح لصالح الأخيرة . و بالرغم من أن المناطق الاصطلاحية الأولى تعج بها الكتب و المؤلفات و يخضع لها القول و اللسان ، فإن المناطق الثانية قد تجلّت بها الأفعال في الميدان ، تصول فيه و تجول و قد أزاحت جميع منافسيها منه و لم يبقَ فيه غيرها .. فاستأثرت الأولى بمنطق الكلام ، و تملكت الثانية زمام الأفعال .

إن كل ما سبق ذكره يشكل العمود و المنطلق لمتن كتابنا هذا .. المنطق الثاني .. فما هو المنطق الثاني ؟؟ و ما هي دلالاته و ماهيته .

المنطق الثاني بنظرنا هو محاولة تفسير المنطق الحقيقي السائد الآن في التعامل بين بني البشر ككل . هي ليست محاولة إيجاد شرعنة و تبرير و دعوة له بقدر ما هي محاولة إيجاد تفسير واقعي حيادي توصيفي مجرد عن أية عاطفة و خاضع لعامل التحليل و التمحيص . و تبقى هوية و حقيقة (المنطق الثاني) في أنه ربما قد يعري حالة النفاق أو الازدواجية أو الكيل بمكيالين ، حيال المناطق الاصطلاحية السامية و العامة السائدة من قِبل عموم البشر ، كأفراد و من قبل بعض هيئاتهم و وسائلهم الاجتماعية و الإعلامية و السياسية .

المنطق الثاني هو ليس دعوة إلى اللا أخلاق و الرذيلة و الفساد و النفاق أو اتباع ما تبقى من منكرات و فواحش ، و ليس تبرير ذلك كله .. المنطق الثاني هو دعوة لعدم ادعاء الفضيلة و ادعاء الأخلاق و المعروف و الديني و الإيمان و التقى و الزهد و إلى ما هنالك من أعراف و مناطق عليا سامية .. المنطق الثاني هو تفسير

و تصوير لما يسمعه الإنسان من أقوال حميدة و حكم مأثورة بليغة ، و يرى في الوقت ذاته ما يقابلها من أفعال قبيحة و أعمال مأفونة ذميمة ، فيُصاب بحالة انفصام فكري أخلاقي نفسي يودي به نهاية المطاف إلى تبرير فعل الشر بالخير و تبرير الجهل بالعلم و تبرير الكفر بالدين و الإيمان و تبرير الرذيلة بالفضيلة . و تالياً .. يقوم بفعل الأوائل و تبريرها بالأواخر منه ، و هو ما يحصل الآن ، إنه الحال الراهن على مرأى من العين و مسمع من الأذن ، بلا حياء و لا خجل و لا رادع . و هو أمر لم يَعُد يقتصر على الأفراد أو الشراذم الهُمَل من بعض الناس ، بل تعدى ذلك إلى الملأ منهم .. الاجتماعي والسياسي و الديني .. بهيئاتهم ومنظماتهم و مؤسساتهم و وسائطهم المرئية و المسموعة و المقروءة .

المنطق الثاني هو صورة واقعية حقيقية موجودة و لها مبرراتها المنطقية الصحيحة و السليمة لكنها للأسف صورة مطموسة مهيضة ، ربما أوجدها من دون قصد ، من احتكروا المنطق الأول ، منطوقاً لا فعلاً و قاموا بعكسه فعلاً لا قولاً . ليس ذلك فقط ، بل حاسبوا و حاكموا و قاصصوا كل من وجد نفسه مضطراً للمنطق الثاني فعلاً و قولاً بعد أن ضاقت به سبل الدنيا أو ضيّقَها هؤلاء عليه . الذين حاسبوه و حاكموه و قاصصوه بتهمة القيام بما يقومون هم به و لا يقولونه ، حيث إنهم احتكروا المنطقين معاً .. المنطق الأول السامي الأخلاقي ، و المنطق الآخر المضاد له . إنهم كهنة المنطق و المنطق المضاد له ، و يبقى المنطق الثاني .. هو المنطق بين المنطقين .. منطقاً مستولاً مخفي لا يجرؤن أحد ما على تبنيه أو إعلانه ، مع أنه هو الوسيط بين المنطقين .. المنطق الأول و نقيضه المعاكس له ، و المبرر لهما في الوقت نفسه .

لقد ثبت لنا بعد كل مظاهر الشر و السوء و المنكر ، التي أصبحت الآن سمة توصيفيه لهذا العالم ، منذ بدء الخليقة و حتى القرن الحالي قرن الواحد و العشرون من حروب و دمار و مجاعات و مجازر و فساد و قتل باسم الحق و الحقيقة و الله و الدين .. ثبت لنا أن هذا العالم محكوم بمبدأين اثنين أو منطقين اثنين لا ثالث لهما .. **منطق القوة و منطق المصلحة** . و هما منطقين اعتمدتهما جميع الحيوانات و الكائنات الحية في البسيطة كلها ، بما فيها الإنسان ، مع فارق بسيط و هو أن الحيوان الأبكم الأعجم الناقص العقل و الفكر و الدين ، قد قونن هذين المنطقين و جعل لهما ضوابط أخلاقية (إن صحّت التسمية) لم يسمح لنفسه بتجاوزها و لم يدّعي غيرها . بينما الإنسان و هو الحيوان العاقل الناطق المتدين ، قد بالغ بهما و أطلقهما على سجيته و حريته و لم يجعل لهما أية ضوابط على الإطلاق ، و كل ما قام به ، هو أنه غلّفهما بالمنطق الأول زوراً و بهتاناً و ستراً لعورته و سوأته . و من هنا جاء المنطق الثاني لا ليصحح المنطق الأول الذي هو صحيح بلبّه و ذاته ، لكن ليفصم عرى الاحتكار و القهر القسري الذي وقع عليه مع استخدام النقيض له .. جاء ليمنع قرصنة المفاهيم و المبادئ و احتكارها من قبل البعض و من ثم تمييعها و قولبتها كيفما أرادوا .. أو على الأقل جاء ليفضح ذلك و ليكون على النقيض منه .

و يمكن لنا .. للتبسيط و سهولة التوضيح أن نقول .. إن الفرق بين المنطق الأول و المنطق الثاني ، هو الفرق بين اعتبار كافور الإخشيدي أداة للسخرة و العيب و المذلة بسبب الشاعر المتنبي الذي هجاه هجاءً فاحشاً ، و بين اعتبار المتنبي نفسه

هو أداة هذا العار و الذل كونه وَفَدَ على كافور و استجداه و تذلل إليه و تملق له كي يعطيه ولاية ، ليكتشف أن ما قام به .. كان سراباً في قيعة .

أليس المنطق الثاني هو منطق اللامنطق ؟؟!! عندما نرى أشياء غير منطقية تحدث أمامنا على أنها هي المنطق و العرف السائد و المقبول بين الناس ، ألا يجعلنا ذلك نبحث عن المنطق الثاني ؟؟!! .

و نهاية المطاف .. يبقى التاريخ البشري منذ بداية ظهور الإنسان العاقل و إلى الآن بكل عواهنه و أحداثه و وقائعه ، يبقى الفيصل الأساس في قبول المنطق الحقيقي السائد و المعتمد من قِبل بني البشر جميعاً . فالتاريخ هو في الأساس ، صورة البشر و انعكاس أفعالهم و تصرفاتهم على الأرض . فقد ثبت لنا بعد تدقيق و تمحيص طويلين وعناء بحث و تحليل ، أن مقولة (التاريخ يعيد نفسه) هي مقولة غير صحيحة تماماً و غير ذات مصداقية كاملة و مجانبة لسيرورة التاريخ نفسه .. فالتاريخ كما ثبت لنا ، هو نمط ثابت مستمر لا يتغير ، و الحاصل هو أن مراكز القوى و الأحداث فيه تتبدل من مكان لأخر ، لكن يبقى التصرف الإنساني الذي رسم التاريخ و سجل أحداثه ، هو واحد لا يتبدل و لا يتغير لكن يتكرر .

أيضاً في سياق المبادئ و المناطق و ذكرهما ، فإنه قد ثبت لنا فارق جديد بين الإنسان و بقية الحيوانات . فالإنسان و إن تميّز عن بقية الحيوان بأنه الحيوان الوحيد الناطق ، فإنه بنظرنا و حسبما ثبت لنا ، فإنه الحيوان الوحيد الذي احترف صناعة المبادئ و تحويرها و تزويرها و إعادة صياغتها و قولبتها لما يراه نافعاً له .

في كتابنا هذا .. المنطق الثاني .. ناقشنا أهم و أعم المبادئ و الأفكار و المناطق التي اعتمدها الإنسان أو صنعها و تصرف بها ، و في الوقت نفسه ، حاكَم بها غيره و حكم عليهم بها ، و نظرنا إليها من منظور آخر و من زاوية أخرى جديدة لكنها واقعية و منطقية . و لا يتبقى لنا نهاية مطاف فصلنا هذا إلا مقولة الشاعر العربي الكبير و الحكيم .. أبو العلاء المعري في بيت شعر له يصف فيه بني جنسه من البشر متحدثاً عن أحوالهم قائلاً ..

وَهَكَذا كانَ أَهلُ الأَرضِ مُذ فُطِروا فَلا يَظُنُّ جَهولٌ أَنَّهُم فَسَدوا

المبادئ – القيم

لا أدري من أين اخترع الإنسان المبادئ و القيم ، و من أين أوجدها ؟؟!! لكني أدري أن المبادئ و القيم .. هي التي أحياناً ما يُطلق عليها الأخلاق ، تجاوزاً و دمجاً معها في الآداب الإنسانية و التي لم يستطع الملأ الأعلى البشري استئصالها أو تغييبها و ذلك درءً لغضب القوم من جمهور العوام الطاغي و الذي هو بالفطرة الأصيلة له و التي صقلتها البساطة المقترنة بالسذاجة و الافتقار إلى نواصي العلم العامة المكمِلة و المعرفة . فهو تبعاً لذلك لا يزال متمسكاً بالمبادئ و القيم الأخلاقية العمومية و التي لا يزال يراها مَمسَكَه الأخير ربما و الوحيد كذلك ، في عالم و دنيا لم يمسك من زمامها شيء سوى أنه كائن تابع منقاد حُرِّمت عليه و منِعَت عنه منابع العلم و المعرفة و التحصّل و التكسب الثقافي الإدراكي إلا ما يُرمى إليه من فتات خبز قد زُيّنَ و كِيْلَ بعناية فائقة و دقة بالغة ، من قِبل وكلاء اخصائيين متخصصين .. كلٌّ باختصاصه .. الديني أم السياسي أم الاجتماعي . و كلٌّ بمنهج واحد ثابت ، له غاية واحدة ، هي منهج القطيع و لا شيء سواه .

و منهج القطيع هذا ، يقوم على دعامتين اثنتين لا ثالث لهما .. أولهما .. تشكيل أتباع و خدم ، سواء على مستوى البيئة و التركيبة البيئية ، أو على مستوى الإيديولوجية التي تكون أحياناً صادقة وأخرى كاذبة يعتنقها المرء زوراً و بهتاناً أو جهلاً و غباءً كما الغر الوليد الذي يصدق كل ما يومى إليه أو يقال له .

و ثانيهما .. استثمار منهج القطيع و نهجه ، في مشاريع و أمور خلاّقة بالنسبة لأصحاب القطيع و بما يرونه هم مناسباً دونما صعوبة أو تعقيد .

هذه المناطق السامية العليا التي أُطلِقَ عليها توضيحاً و توصيفاً اسم (المبادئ) و الأخلاق ، كان لها مصدرين اثنين ، أيضاً لا ثالث لهما ، المصدر الأول .. هو الإنسان نفسه . و ذلك غالباً ما كان على يد الحكماء و البلغاء و أصحاب الزهد و التأمل و اعتزال الناس . و بالغالب الأعم ، كان هؤلاء هم أنفسهم أصحاب الأديان الوضعية الأرضية و أنبياؤها و مثالهم .. بوذا .. كونفوشيوس .. زرداشت .. سقراط .. هرمس .. و غيرهم من أصحاب المبادئ و المناطق و النواميس الأرضية . فيمكن القول هنا أنها مناطق و مبادئ بشرية ذاتية جاءت من لدن الإنسان نفسه و لاقت قبولاً إنسانياً عاماً ، و التزاماً في أدنى حالاته معنوياً . أما المصدر الثاني فهو الذي جاء إلى البشر بواسطة الأديان السماوية التي اعتبرت و صرحت في خطابها الديني إن المبادئ و القيم و نواميس الأخلاق و الخير ، هي من عند الإله الخالق و أعطاها من لدنه للإنسان ، و أرسلها إليه بواسطة رُسل مختصين كانوا في بعضهم ، أصحاب الديانات السماوية الثلاث .. اليهودية و المسيحية و الإسلام .. الذين وكّلهم الخالق بحمل هذه الديانات و إبلاغها بين البشر . و هذه المبادئ و النواميس بدورها لاقت بالعموم ، قبولاً من بني البشر و التزاماً (اعتبارياً على الأقل) و على وجه الخصوص أولئك الذين آمنوا بتلك الديانات و كانوا من أتباعها .. فهم قد التزموا تلك المناطق و المبادئ العليا السامية ، أو على الأقل أعلنوا التزامهم بها كونها كانت من صلب و مضامين الشرائع التي اعتنقوها و من حيثيات أوامرها و نواهيها .

لربما يتساءل القارئ عن هذه النظرة السلبية التشاؤمية التي وسمنا بها تلك المبادئ و الصفة السلبية التي أعطيناها إياها و وسمنا تابعيها و مؤيديها بالقطيع ؟؟ و السبب في ذلك ليس نحن ، بل بني البشر أنفسهم .. كلّ منهم يَسِمُ المناطق المضادة لمنطقه و المتباينة عنه ، بما قلناه آنفاً بداية فصلنا هذا . و نحن هنا في هذه الحالة ، يصح أن نمثّل وضع الناقل (و الناقل للكفر ليس بكافر) فالمبادئ و العقائد في جلّها و مجموعها (حتى السماوية منها) يقتصر كل منها على فئة معينة تراها المثل الأعلى و المنطق الصواب المطلق بحيث يمكن – أو يجب – أن يُقاس أي فكر أو عارض ، عليه . بينما الطرف الآخر قد يرى فيها ذروة الخطأ و بؤرة الفساد و لب الكفر و منهج الجهل ، و يَسِمُ أتباعها بالقطيع المنقاد و الجاهل التابع ، و مؤسسيها أو من جاؤوا بها ، بالمنافق المتبوع و المفسِد المضِلِل و هو الأمر السائد الآن جهرة و عياناً لا خِبتاً [1] و تورية ، و ما ظاهرة التكفير بشقيها السياسي و الديني إلا مظهر من مظاهر تجلي هذه الظاهرة .. فالمبدأ أياً كان نوعه و مدى مصداقيته ، يخضع في مضمونه و توصيفه إلى جدلية القبول أو التسفيه . و فضلاً عن ذلك كله ، لا يخلو مبدأ ما و منطق معين مهما بلغت درجة أخلاقيته و مصداقيته و إنسانيته من الرقي و العلو ، و مهما بلغت فائدته و قبوله من عموم البشر و اتفاقهم عليه .. لا يخلو من الانتهاك الذي قد يكون أحياناً ، صارخاً واضحاً و علنياً و لا يخلو أيضاً من الاستغلال و الاستخدام لغايات أخرى غير التي نضح بها مضمونه و بشّرت بها حيثياته و بنوده .

---

[1] الخِبت غير الخبث و هو الإخفاء .

إننا إذا أردنا أن ننظر إلى المبادئ الإنسانية و البشرية .. الوضعية الأرضية منها أو الإلهية السماوية ، و نأخذها بمعيار التقييم و التمحيص ، لا بد من وضع أمور ثلاث في منظار الاعتبار ..

الأمر الأول .. إن الإنسان هو غاية الغايات و أصل البدايات و النهايات في الحياة على الأرض فهو في الأعراف السماوية ، سيد مخلوقات الأرض و كائناتها جميعاً و المتسلط عليها (في التوراة) و خليفة الله في أرضه (القرآن) . و الإنسان هو الذي يخلق المفاهيم و يصوغها و يقولبها كيفما شاء حتى المفاهيم الإلهية هيمَنَ عليها و قولبها حسب مشيئته .

الأمر الثاني .. إن كل المبادئ الإنسانية و المناطق الأخلاقية ، سواء منها البشرية الوضعية أم السماوية الإلهية ، جاءت لخدمة الإنسان و لأجل الإنسان ، و كانت غايتها الوحيدة .. الإنسان وحده و تحقيق سعادته و رفاهه و أمنه و خيره و صلاحه و تأمين العدالة و الشبع من جوع .. و الأمن من خوف ، له .

الأمر الثالث .. إن أي مبدأ و منطق ، مهما كانت غايته و مصداقيته و أخلاقيته و صحته و صدره .. سماوياً إلهياً أكان أم وضعياً بشرياً ، يجب أن يتم تناوله و مناقشة و استخراج العبر المنطقية و النتيجة النهائية له ، بموجب السيرورة التاريخية التي شكلت مسار تداول هذا المبدأ و كيفية تعامل الناس بموجب منطقه ، و لا علاقة لغاياته و أخلاقياته وصحته بذلك . فقد يكون المبدأ أو المنطق ، صحيحاً سليماً و أخلاقياً يمثل غاية سامية و نفعية خيّرة ، لكن على الرغم من كل ذلك ، يُساء استخدام هذا المبدأ و يُستخدم لأجل غايات أخرى قد تكون معاكسة له تماماً . و هذا لا يمكن الحكم عليه إلا من خلال الاستبيان التاريخي لمسار هذا المبدأ

أو المفهوم ، و من خلال الأحداث و الوقائع التاريخية الحادثة و التي تعطي أوضح صورة عن كيفية تداوله و التعاطي معه من قبل أبناء آدم الذين إما تلقفوه من السماء أو أنتجوه في الأرض .

بناء عليه و عليه بناء ، فإن المنطق الثاني يقول .. ما فائدة المبادئ أياً كان نوعها و مصدرها و صحتها و صوابيتها ، إذا لم تحقق الفائدة الحقيقية الفعلية لبني البشر ؟؟!! بل ما فائدة المبادئ و القيم و المفاهيم الأخلاقية السامية العليا إذا حققت الخير و الفائدة لقسم أو جزء أو صنف أو عرق من البشر و أغفلت السواد الأعظم و تركتهم هُمَلاً ، لا بل كانت وبالاً عليهم ، أياً كان التفاوت العددي و الكمي بين الطرفين ؟؟!! . المنطق الثاني يقول .. إن المبادئ و المفاهيم الأخلاقية جميعاً ، هي ظواهر اعتبارية صورية موجية لا مادية ، و الإنسان هو وحده من يمتلك مفاتيح تحويلها إلى حيز التطبيق و الممارسة المادية العملية أو تحويلها إلى وهم و سراب و إبقاؤها قيد المجال المنطوق لا تتعداه و تبقى حبيسة دوائره . و المنطق الثاني يقول أيضاً .. إن هذه المفاهيم هي بمجملها ليس لها تعاريف ثابتة واضحة يمكن إمساكها بها و ضبطها بموجبها ، كما إن معظمها مجهول المنشأ تقريباً (خلا الدينية السماوية منها) كالحرية و العدالة و الديمقراطية و الشعب .. الخ. و بشيء من التدقيق و التمحيص نجد أنها تحوي في حيثيات تعريفها و هوية مضمونها ، شيء من الزئبقية التي يمكن أن تتفلت من يد التوصيف المحكم الدقيق و تتسرب من وثاق الضبط الذهني العقلي . و لا غرو إذا ما رأينا هذا التفاوت الكبير في التعاريف الاصطلاحية لتلكم المفاهيم ، و الفارق الأكبر في التعامل الذاتي معها و معاملة الغير بها ، ليس على مستوى الأفراد بل حتى على مستوى المؤسسات و الفِرَق و الدول و المجتمعات .

المنطق الثاني يقول أيضاً .. إن هذه المفاهيم هي مشبوهة الوجود الحقيقي الفعلي عبر التاريخ فضلاً عن المنشأ بالرغم من جمالية الجوهر و إيجابية المضمون . و إننا نتساءل على سبيل المثال .. **الديمقراطية** .. أين نشأت ؟؟ و من الذي اخترعها ؟؟ و الأهم من هذا كله ، متى طُبِّقت ، منذ بدء الخليقة و إلى الآن ؟؟!! و في أية دولة أو مجتمع مارستها السلطة الحاكمة بشكلها الكامل المستوفي لشرائطه و مقوماته ؟؟!! .

تاريخياً لم يثبت لنا أن الديمقراطية قد طُبِقت بشكلها الحقيقي الكامل إلا مرة واحدة فقط ، و كان ذلك في اليونان القديمة حيث على ما يبدو أنها قد ظهرت هناك . و كان من نتائجها ، إعدام الفيلسوف اليوناني الكبير (سقراط) بضغط من دهماء الشعب و عوام الجمهور . و بعد هذه الحادثة أغلق اليونانيون الإغريق دكان الديمقراطية و ختموا عليه بالشمع الأحمر ، و كان لهم الجرأة الحقيقية بأن تبنّوا المنطق الثاني الذي قالوا فيه علانية و صراحة .. إن الديمقراطية ليست هي نظام الحكم الأمثل .. هذا ما تفوه به فلاسفة الإغريق القدماء .

و من يومها و إلى الآن ، خرجت الديمقراطية من حيز التداول الفعلي العملي للتطبيق و التنفيذ و تم وضعها في مجال التداول الشفهي الكلامي للاستهلاك المحلي و التسويف السياسي .

أيضاً هنالك مفهوم آخر مثّلَ مبدأ فكرياً هاماً لدى الناس . و لطالما شاع انتشاره مشافهة ، و تداولته الألسن و كان مادة الكلم و وجبة شهية دسمة لوسائل الإعلام بأصنافها الثلاث و لمحترفي السياسة و الشعراء و الفلاسفة و النقاد بل و حتى عوام الجمهور و سفهاء الناس و الدهماء منهم ألا و هو .. **الحرية** . هذا المفهوم أو

المصطلح الذي كثيراً ما حاولنا أن نجد له طعماً أو لوناً أو رائحة عبر التاريخ البشري فما استطعنا . و كثيراً ما حاولنا أن نمسك بتلاليبه عبر مفصل من مفاصل التاريخ و حَدَث و من أحداثه ، علة و توثيقاً فما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . فقد كانت زئبقيته الرهيبة أكبر من أية قدرة لنا على إحاطته أو حصره أو حدِّه بحيز ما. و المكان الوحيد الذي استطعنا أن نحدّه و نعدّه فيه ، هو نيويورك حيث يقبع صنم ملاطي ضخم يقال له (تمثال الحرية) .

لقد حاولنا عبر التاريخ أن نجد حادثة واحدة أو واقعة أو وثيقة أو أحفور أثري يدلنا على تطبيق الحرية و شيوع منطقها في ميدان الممارسة التطبيقية العملية و وجود شيء من منهجها ، فلم نجد . لكن المنطق الثاني يقول .. إن الحرية كثيراً ما وُجِدت عبر التاريخ ، لكن للقوي الغالب الكاسر بسطوته و بطشه و الذي اتخذها محظية له و غانية من غوانيه .. هو السلطان الذي اغتصبها و حلّلها لنفسه فقط ، و ضمها إلى حريمه و منَعَ أحد غيره من الوصول إليها أو لمسها أو التمتع بها . و كل من فعل أو حاول أن يفعل ذلك ، كان مصيره حد السيف لأنه تجرأ على حرمة من حريم السلطان ، و ذلك ما يستوجب أن يُقام عليه حد الزنا .

لكن السلطان سمح أحياناً للناس أجمع أن يتكلموا عن غانيته تلك و يلهجوا ألسنتهم بذكرها و وصف حسنها و جمالها و أحياناً أخرى ، مفاتنها و أن يحلم كل منهم بمنامه بمضاجعتها أو الاستنماء لأجلها في خلواته .

أجل .. لقد كانت الحرية موجودة عبر التاريخ و لا زالت ، لكن في (الحرملك) حيث حريم السلطان ، تهيئها القهرمانة الموكلة بها و تشذّبها ما بين الحين و الحين و تجمّلها لتقودها إلى السلطان حيث يقضي وطراً منها . و لعل قارئنا اللبيب قد

لاحظ أن الحرية دائماً ما كانت تُصَور على هيئة امرأة إما متفلتة من عقالها أو مبرزة مفاتنها . و عندما اختار رسام الثورة الفرنسية (أوجين دولاكروا) أن يجسد رمز الحرية في رسمه ، صوّرها على شكل امرأة شبه عارية تقريباً تدلى أحد أثدائها و تجسّمت أفخاذها و أوراكها ، ما يستوجب حضور دلالة الشبق الجنسي، و حولها أشخاص يقتتلون بالسيوف و السواطير و المسدسات و البنادق. حتى تمثال الحرية ، ذاك الوثن الصخري القابع في ميناء نيويورك ، تم تجسيده بصورة امرأة ..

يقول المنطق الثاني إن مفهوم الشبق الجنسي كان دائماً يشكل ثنائية جدلية مع المحّرم أو الممنوع تماهياً مع المثل القائل **(الممنوع مرغوب)** .

و ختام الإعراب .. لم تصُحّ الحرية بياناً و واقعاً عبر التاريخ إلا بامرأة من (حريم السلطان) أو حجر جامد أصم أبكم لا ينفع بشيء . و بالثبت التاريخي أيضاً ، يتضح لنا أن المبادئ و القيم بمجملها كانت عرضة لأمرين اثنين .. الاحتكار و الاختراق .. الاحتكار من قِبل أصحاب السطوة و القوة ، ما يعني حق الاختراق بموجب حق الاحتكار ، فمحتكِر الشيء يحق له أن يفعل به ما شاء . أيضاً الاختراق من قبل الطرف الآخر متى استطاع لذلك سبيلاً .

بناء عليه و عليه بناء نقول .. إن أي حق أو مبدأ يكون عرضة للاحتكار ، هو في الوقت نفسه عرضة للاختراق سواء من قِبل من احتكره أو من لم يقدر على ذلك . و يزداد الأمر سوءاً عندما يكون المحتكِر هو المخالِف . و لذلك يقول المنطق الثاني .. كفرتُ بالصدق لما احتكره الكاذب ، و كفرت بالدين لما تقمصه الفاسق ، و كفرت بالفضيلة لما تبنّاها الفاجر ، و كفرت بالعلم لما تمنطق به

الجاهل ، و كفرت بالحرية عندما هتف بها السجان . المنطق الثاني يقول أيضاً .. أنا قومي لكن لن أعيش في وهم القومية .. أنا وطني لكن لن أعيش في وهم الوطنية .. أنا متدين لكن لن أعيش في وهم الدين المنحول .. أنا أريد الحقيقة لكن لن أعيش في وهم الحقيقة .. أنا أخلاقي لكن لن أعيش في وهم الأخلاق .

و ختام مطاف الفصل هذا نقول حول المبادئ و القيم ..

إذا الأمر بانت نواجذه ... فالحق في هذه الدنيا لمن غلبا

إن الديناميكية الأساس التي يسير بموجبها مبدأ الكون ، هي ديناميكية النظام و الترتيب و الدقة . و الأدلة الدامغة على ذلك و التي لا تقبل مجالاً للشك ، متعددة

أولها .. البصر الذي لا يزيغ و لا يخدع . فبالمعاينة المباشرة إلى السماء و الأجرام و النجوم و الشمس و القمر و الأحوال الجوية المتعاقبة دورياً بشكل سنوي ، نكتشف بداهة أن ما يجري من حولنا من حركة الكواكب و الأجرام و تعاقب الفصول المناخية و عدة الأشهر و الأيام و الأسابيع ، يسير ضمن نظام دقيق محكم لا خلل فيه و لا اضطراب و لا فوضى و لا يعتوره شيء من زيادة أو نقصان .

ثانيها .. السيرة التاريخية و المعطيات البشرية المتواترة التي دعمت الدليل الأول و أيدته و لم يثبت أنها ناقضته في شيء سواء بالكلية أو بالجزئية .

ثالثها .. علم الفلك الذي بدوره أقر دقة نظام الكون و تسييره المحكم المنظم و دقة الكواكب و الأجرام .

و إذا كان هنالك من يؤمن بالأديان ، فهي بدورها تحدثت عن دقة نظام الكون و تنظيمه بمختلف موجوداته و مفاهيمه المتعلقة به من علم و طبيعة . جاء في التوراة

[و قال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار و الليل و تكون لايات و أوقات و أيام و سنين] (سفر التكوين – الاصحاح الأول – فقرة ١٤) .

و في القرآن جاء ..

{ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } [يس : ٣٨]

{ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } [يس : ٤٠]

{ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ } [الرحمن : ٥]

{ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ } [البقرة : ١١٧]

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة : ١٦٤]

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ } [آل عمران : ١٩٠] .

فالقرآن الكريم عندما دعا إلى الإيمان بالله الواحد الأحد الخالق ، كان أحد أهم براهينه على ذلك ، نظام الكون المحكم و الدقيق كدليل على ما ذُكِر . فدعت الأديان السماوية البشر إلى أن يتأملوا في السماء و الكون و الطبيعة و الأرض ليستدلوا من خلال النظام المحكم الدقيق المنظم الناظم لهما ، على وجود خالق مدبر . يضاف إلى ذلك تماهي خلائق الأرض جميعاً من كائنات مع هذا القانون ، فهي في بنيتها و تكاثرها و علائقها بعضها مع بعض ، تخضع لقانون الدقة و التنظيم و الدقة . كذلك الأمر بالنسبة لنظريات العلوم التطبيقية من فيزياء و

كيمياء و رياضيات ... الخ ، فهي تخضع جميعها لقوانين محكمة ثابتة لا تتبدل و لا تتغير بمرور الوقت و الزمن .

إن مفهوم التنظيم و الثبات و الدقة و وجود القوانين الكاملة الشاملة المترابطة الناظمة لذلك كله .. هو من الوجه الآخر يتجلى في صورة **المعيارية** ، أي وجود المعايير الثابتة و الشروط الموضوعية التي تحدد كل شيء لجهة الهوية و الحدوث و الفاعلية و النتائج و الآثار اللاحقة . و لكن هل يوجد تسمية أو توصيف أو مصطلح آخر أكثر تبسيطاً لما يسمى بالمعايير الموضوعية الشرطية الثابتة ؟؟ في الحقيقة يوجد تسمية و مصطلح يجمع هذه الكلمات و يختصر جملتها في كلمة واحدة ألا و هي .. **الافتراضية** .. الافتراضية التي تعني الوضع الافتراضي الأساس و ليس المعنى الآخر المتضمن دلالة الخيال و الوهم أو افتراض اللا موجود عياناً . و الوضع الافتراضي لشيء ما ، هو الوضع الطبيعي الثابت و حتى العلمي القانوني لوجود هذا الشيء أو حدوثه .. الماء في الوضع الافتراضي يتجمد في درجة الصفر و يتحول إلى بخار في درجة المئة فهرنهايت .. قانون الجاذبية العام على الأرض يتحدد في مقدار ثابت .. كل ذرتي هيدروجين تتحدان مع ذرة أوكسجين واحدة تشكلان جزيء ماء واحد .. حرارة الإنسان الافتراضية هي عند الدرجة / ٣٧،٥ / .. دقات قلبه الافتراضية في الدقيقة الواحدة هي / ٧٠ / دقة .. سمك السلمون يعيش دورة حياة افتراضية ثابتة و يهاجر بسلالة كاملة ضمن خط سير ثابت .. الطيور تتخذ أوضاعاً افتراضية ثابتة مشابهة .. قوانين الأوزان و الكتل و الضغط الجوي و الكثافة .. الخ كلها قوانين افتراضية معيارية ثابتة ، كذلك قوانين الهندسة و الميكانيكا و البناء .. حتى أسماء الأشياء و

الكائنات و الأشخاص ، هي توصيف افتراضي أياً كان نوعه . و لعلنا نلاحظ أن الحاسوب (جهاز الكمبيوتر) لا يقبل تخزين ملف من الملفات دون تسمية له و لا يقبل بازدواجية التسمية . كما لا يقبل التعامل مع قطعة ميكانيكية (هاردوير) موصولة به من دون تعريف لها و من دون تنصيب برنامج يقوم بتعريف هذه القطعة الميكانيكية .. و إذا لم يستطع الحاسوب معرفة اسم ملف أو تعريف عتاد معين (و هنا مربط الفرس و النقطة المهمة) فإنه يقوم بوضع اسم أو تعريف افتراضي من عنده لهذا العنصر .

إذن .. كل الكائنات و الأشياء ، الحي منها و الجامد ، له قوانينه و شروطه الافتراضية و لا يوجد شيء في هذا الكون ليس له وضع أو قانون افتراضي . و أي خلل في الوضع القانوني الافتراضي للشيء ، أو تغييره أو منعه ، يؤدي إلى نتيجة مشابهة .. إما خلل في حدوث الشيء و تكوينه أو تغييره بحيث يبتعد عن هويته الأصلية أو عدم حدوثه من الأساس .

و بناء عليه و عليه بناء ، فإن أهم سمة من سمات هذا الكون ، هي الافتراضية المعيارية . و تعريفها التالي .. **هي الشرائط و العوامل و الموجبات الطبيعية المنطقية الإجبارية الحصرية لحدوث شيء ما ، و من دونها لا يمكن حدوث هذا الشيء .** و مصداقه الآية القرآنية التالية ..

{ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الفتح : ٢٣] .

إن التساؤل الذي يطرح نفسه بإلحاح منطقي ، هو .. هل المبادئ و المفاهيم و المناطق الأخلاقية هي بدورها خاضعة للمعيار و الوضع الافتراضي شأنها

شأن بقية الأشياء و الكائنات و الموجودات الكونية ؟؟ .. أم أنها حالة خاصة جامدة مطلقة خارج نطاق المعايير و الضوابط و الشروط الموضوعية المحيطة بها سواء أكانت اجتماعية أم سياسية أم دينية أم اقتصادية ؟؟ ..

بنظرنا أنه بما أن تلك المفاهيم و المناطق الأخلاقية العليا السامية كانت ذات مصدر إلهي في وجه من وجوهها ، و مصدر وضعي بشري في وجه آخر ، فهي و بالمنطق الثاني لا مناص خاضعة لشرط المعايير الموضوعية الافتراضية و ذلك لأسباب عدة منها الدينية التي أوجبت تلك المعايير و الشروط الافتراضية التي تنطلق منها المناطق الأخلاقية . كما إن الأعراف و القوانين البشرية الوضعية التي توصلت إلى هذه المناطق و المفاهيم الأخلاقية السامية نتيجة تراكم الخبرات و الموروثات التوعوية الاجتماعية و السياسية و الدينية ، جعلت لها بشكل مباشر أم غير مباشر ، ضوابط معيارية افتراضية . و فضلاً عن هذا و ذاك ، فإن ترابط المناطق و المفاهيم الأخلاقية السامية بعضها مع بعض ، بفرض وجود نوع من الافتراضية المعيارية .. فالصدق و الأمانة و عدم السرقة و عدم الفساد و عدم ارتكاب الجنح و الجرائم ، كل ذلك يقع في منظومة واحدة مع العدل و العدالة و العدالة الاجتماعية و المساواة في القانون و وقوع الجميع ، من أعلى سلطة إلى أدناها ، تحت سقف القانون . و ما يضاف إليها من مواثيق حقوق الإنسان و اتفاقيات الحقوق العالمية الموقعة من قِبَل الدول و الهيئات و المنظمات الدولية . فالمفاهيم الأخلاقية و الأعراف العالمية السامية و إن كانت مثالية مطلقة إلا أنها ليست معزولة منفردة بذاتها ، فهي تستوجب مبدأ الحقوق و الواجبات .. المتطلبات و المستوجبات .

و بمنظورنا ، فإن مربط الفرس في هذه القضية هو أن هذه المفاهيم و المصطلحات و المناطق هي .. **مطلقة اعتبارياً مقوننة مقيدة مادياً و فعلياً** . و يمكننا استحضار إحدى الدلالات على ذلك ، بالمثل العالمي الشائع القائل (إن حريتك تنتهي حين تبدأ حرية الآخرين) و هي في ذلك أيضاً تكون مستوجبة لأمرين أساس هما .. المحاذير و الشروط . محاذير استخدام تلك المبادئ و تطبيقها زائد الشروط الموجبة لاستخدامها ، تماماً كالدواء الذي يؤخذ للعلاج و الذي هو في تعريفه ، أداه للشفاء و البراءة من الأمراض التي تكون أحياناً مميتة قاتلة . فهو إذن في وجه من وجوهه مادة للحياة و أكسير لها . و بالرغم من كل إيجابياته فهو يتحول إلى مادة قاتلة .. فتاكة مميتة إذا تم تناوله دونما سبب موجب . كأن يكون الشخص سليماً معافى . أو إذا تم تناوله بكميات أكثر من المسموح و المصرَح به . و لا يعزب عن البال أنه من المعروف أن بعض الأشخاص إذا أرادوا الانتحار عمدوا إلى تناول كميات كبيرة من بعض الأقراص لعقار معين . حتى المرضى الذين يوصف لهم أدوية معينة يتم سوآلهم عما إذا كان هنالك عوارض معينة تنتابهم أو أمراض أخرى مصابون بها كي يُصار إلى عدم إعطاؤهم الدواء أو استبداله بدواء آخر . فهنالك أدوية لا تعطى لمن لديهم مشاكل بالكلية أو القلب مثلاً أو أمراض و أعراض أخرى كونها (الأدوية) قد تتسبب بنتيجة عكسية ربما تكون مميتة أحياناً إذا ما تم وصفها للمريض و استخدامها من قبله . و لا أدل على ذلك من خير مثال عياني نسوقه للقارئ .. فأنت الآن إذا طلبت أي دواء من الصيدلية ، فإنه لن يعطى لك إلا بموجب وصفة طبية من طبيب مختص أو مفوَّض ، و عند شراؤه ما عليك إلا أن تفتح مغلفه لترى بداخله ورقة مرفقة به ، ما أن تفتحها حتى يطالعك كم هائل من محاذير الاستخدام و الأعراض الجانبية و الشروط الدقيقة الصارمة

لاستخدام الدواء و الفترات الزمنية المسموح تناوله بها ، مهما كان هذا الدواء بسيطاً و مهما كانت دواعي استخدامه ثانوية .

لقد وقف القرآن الكريم على هذه القضية فلامسها و أكدت عليها من نواح عدة أهمها سوء الاستخدام الذي ربطته بالأمرين السابقين .. **المحاذير و الشروط** . و أضاف إليها شرط ثالث هو .. **الاضطرار** .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ } [النساء : ٤٣] .

{ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ } [الأنعام : ١٥١] .

{ . . . فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ } [المائدة : ٦] .

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا } [البقرة : ٢٨٦] .

{ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ } [الأنعام : ١١٩] .

{ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [النحل : ١١٥] .

{ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ } [الفتح : ١٧] .

{ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ } [البقرة : ١٨٥] .

{ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى } [طه : ٢] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } [النساء : ٩٤] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ } [المائدة : ٦] .

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ } [البقرة : ٢٨٢] .

{ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا } [آل عمران : ٩٧] .

{ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا } [الفرقان : ٧٠] .

{ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ } [الرحمن ٧ - ٩] .

{ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ } [قريش ٣ - ٤] .

يُلاحظ في الآيات السابقة أن الضوابط و المحاذير و الشروط قد جاءت ليس فقط لأجل المفاهيم ، بل امتدت حتى إلى الطقوس الدينية من صلاة و صيام و غيرها ، فوُضِع لها محاذير تمنع استخدامها و تطبيقها في حالات معينة و شروط لازمة للقيام بها لا تصح من دونها . كما وضع لها استثناءات في حالات معينة (ليس عليكم حرج – ليس على المريض حرج – إلا من تاب ... الخ) و يلاحظ أيضاً أن الله سبحانه و تعالى قد عرّف هذه المفاهيم و الحقوق و دل عليها بأنها لم تأتِ لشقاء الإنسان بل لسعادته و راحته { ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى } و هذا يعني أن كل مفاهيم و أحكام القرآن الكريم من حلال و حرام ، قد جاءت لهذا الغرض. و يستحيل على أي مفهوم أو مبدأ أو منطق سامي أن يكون ذا فائدة ترتجى و سعادة للإنسان و راحة و خالياً من أي شقاء له ، ما لم يستكمل كل مقومات و موجبات تطبيقه من عدالة و مرونة و شروط ، كله في آن معاً . كما تمت مراعاة الطاقة العقلية و البدنية و اختلافها بين بني البشر من شخص لآخر على مبدأ { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } .

ويأتي مفهوم الاضطرار الذي قد يكون هو لب الموضوع و إبانته الأساس في تصوير المنطق الثاني للمفاهيم و القيم . و مفهوم الاضطرار يعني أن الشخص المضطر قد أصبح أمام وضع لا مناص له فيه إلا أن يخرق مبدأ من المبادئ تحت ظرف من الظروف هو خارج عن إرادته و لا يملك له بديلاً . و هذا يعني بكل بساطة أن ذلك المبدأ لم يعد مستوفٍ لشرائطه كاملة حتى يتم تطبيقه ، و هو ما يقودنا إلى قضية خطيرة جداً في هذا الخصوص هي .. موانع تطبيق مبدأ أو منطق

أو عرف أخلاقي سامي إنساني أو موانع تطبيق مبدأ من هذه المبادئ أو بعضها و أحياناً كلها ، هي إما موانع طبيعية كتلك التي تناولها القرآن . و هي موانع تلعب الطبيعة دورها الأكبر فيها و لا دخل للإنسان فيها (فقدان الماء – قحط و جدب مستوجب الجوع و الحاجة – زلازل براكين ... الخ) . أو هي موانع غير طبيعية يلعب الإنسان دوره الأكبر فيها ، أساسها الأول و مسببها الرئيس .. الفساد و الفسق . أي كما يقول المثل الشعبي السائد **(حاميها حراميها)** .. أمنع الماء عن الناس و آمرهم بالوضوء .. أنهب الناس و أسلبهم أموالهم و أرزاقهم ثم أقيم عليهم حد السرقة .. انتهك الأعراض و المحرمات ثم أقيم حد الزنا و أرفع سيف العدل .. أُشيعُ الفساد و الفاحشة و أُحاسِب على الفضيلة و العفة .

و تأتي آية الميزان خير دليل على الاستخدام { ألا تطغوا في الميزان } لا زيادة و لا نقصان . و الطغيان لغة .. هو تجاوز الحد المسموح به و الإفراط بالحق حتى ينقلب إلى باطل يُضطر الشخص له اضطراراً . أما الآيات الأخيرة من سورة قريش ، فهي تعطي الدلالة القوية الواضحة على مفهوم **المعيارية الافتراضية** . فالعبادة حسب منظور الآيتان السابقتان قد ارتبطت بشرطين اثنين هما **شرط الشبع و شرط الأمان** . و بقليل من التدقيق نجد أن هذان الشرطان هما .. **الأمن الاجتماعي و الأمن الاقتصادي** . هذا على مستوى الدولة و المجتمع ، أما على مستوى الأفراد فيمثلان الحد الأدنى للمتطلبات الحياتية و النفسية الداخلية لأي فرد ، و هي أن يكون الإنسان لديه قوت يومه من الغذاء و الاكتفاء بالرغبات الجنسية و غيرها من الرغبات المادية بالحد الأدنى ، و أن يكون آمناً مطمئناً في بيته و عمله . أيضاً بتدقيق بسيط ، نرى أن هذه المتطلبات هي المتطلبات الافتراضية

الطبيعية العادية لأي شخص بالغ مكتمل النمو سواء على المستويين المادي الفيزيولوجي أم على المستوى النفسي السيكولوجي . و العبادة في الفقه الإسلامي تشتمل على مجموعة من الفرائض التي تشكل عماد و هيكل الديانة الإسلامية ، من صلاة و زكاة و صيام و حج و غيرها . و هذا يعني من ضمن ما يعنيه ، أنه حتى العبادة و حتى الإيمان ، لهما أوضاع افتراضية معيارية هي الضابطة و الناظمة لهما . فالعبادة ليست مشتملة بالضرورة على الإيمان ، و العكس غير صحيح ، فالإيمان يشتمل بالضرورة على العبادة و من دونها لا يصح إيمان المرء { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ } [الحجرات : ١٤] . إذ إنه يوجد عبادة دونما إيمان لكن لا يوجد إيمان دونما عبادة . و الجميع يخضع لتلكم المعايير السابقة . كما يُلاحظ أيضاً أن الأحكام القرآنية لها أوضاعها و شرائطها . فعلى سبيل المثال ، أوصى القرآن الكريم بالوالدين لكن ضمن شروط معيارية افتراضية { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [التوبة : ٢٣] . و فضلاً عن ذلك فإن كلمة (الآباء) في القرآن الكريم كثيراً ما جاءت بصيغة الذم و السوء . إذن .. هنالك شروط افتراضية معيارية للتعامل مع الآباء . الصلاة التي هي عمود الدين و أساس العبادة في الفقه الإسلامي ، لا تصح و تجوز في حال السكر . و السكر لغة .. هو ذهاب العقل الذي لا تقتصر أسبابه على الشراب فقط بل تشتمل على كل ما يزيل العقل و يحجبه ، بعضه أو كله كالغضب و التوتر النفسي و سكرة الموت و النوم و سكرة المال و سكرة السلطان و الغرور [١] . كذلك الزكاة التي هي

[١] انظر لسان العرب – مادة (سكر) .

فرض أساس و ركن من أركان الإسلام ، لها شروطها الافتراضية المعيارية و لها نصابها الذي يحدد وجوب تقديمها . و قس ذلك على بقية الأحكام من حلال و حرام . و ما أمْر الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب بإلغاء حكم قطع يد السارق أيام المجاعة ، إلا حالة من حالات تطبيق الافتراضية المعيارية للأحكام الإسلامية .

بالانتقال إلى القوانين الوضعية البشرية ، نجد أن المشرّع أو واضع القوانين على اختلاف البلدان و المجتمعات التي هو فيها ، قد راعى و لا شك المعيار الافتراضي في حيثيات و بنود الدساتير و القوانين . و يتضح ذلك بكل بساطة من خلال قراءة فقرات و بنود هذه القوانين و آليتها الناظمة لشؤون الفرد و المجتمع و المؤسسات و الدولة و العقوبات الموجودة فيها و على وجه الخصوص تلك البنود و المواد التي تتضمن أحكاماً مخففة تراعي حيثيات معينة من الجرم ، و ظروف جانبية خاصة تتعلق بأحداث الجرم و المجرم . و هذه قضية إن دلت على شيء فإنها تدل على أمر عظيم الأهمية في معناها و هو أن الافتراضية المعيارية للمبادئ و القيم الإنسانية العليا السامية قد تم خرقها و لم تعد تنطبق على الفاعل المجرم أو صاحب الجنحة بل أصبحت خاضعة لشروط و معايير أخرى . و بالعودة إلى الآيات القرآنية و دلالاتها ، فقد تم ربطها جميعاً بمفهوم العدل و العدالة ..

{ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ } [المائدة : ٨] .

{ وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ } [النساء : ٥٨] .

و بما أن الأخلاق الدينية و القوانين الوضعية قد اتفقت جميعها على الأخلاق و المبادئ السامية العامة و وضعتها ضمن النِصاب الافتراضي المعياري ، فإن المنطق الثاني يقول .. إن جميع المبادئ و القيم و الأحكام و القواعد و المفاهيم التي تُطَبَق على الإنسان ، لا تطبق عليه بحذافيرها إلا بوجود معيار منطقي افتراضي عادل و سليم يؤمن له جميع متطلباته على الأقل و يمنعه افتراضياً من ارتكاب الجنح و الممنوعات و خرق التعاليم و الشرائع أياً كان مصدرها ، إلهي أم وضعي . و خارج إطار هذه المعادلة يكون ذلك ظلم عظيم و حيف كبير و عتوّ و فساد في الأرض . و ما الآيتان القرآنيتان التاليتان إلا دليل و إشارة على ذلك ..

{ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا } [الإسراء : ٢٠] .

{ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ } [التوبة : ٦٠] .

يُلاحظ في الآية القرآنية الأولى كيف تم وضع الجميع .. الموالي و المخالف ، في الوضع الافتراضي المعياري الطبيعي .. الموالي كي لا يخرق القوانين ، و المخالف كي تقوم عليه الحجة و تقع عليه العقوبة و القصاص العادل ، كيلا يحتج فيما بعد بأنه لم يكن في حالة الوضع الافتراضي . و في الآية الثانية تم وضع من يُشَك أنه ليس في الوضع الافتراضي الطبيعي أو يُحتَمَل خروجه منه نتيجة لظروف خارجية و إعادة وضعه إلى نِصابه الافتراضي الطبيعي .

و يبقى التساؤل المنطقي الآخر .. ما هي عوامل و موجبات خرق الأوضاع الافتراضية المعيارية الإنسان ؟؟ الجواب بكل بساطة .. الفقر – الجوع – الظلم – الفساد – القمع – الطغيان – انتفاء العدل . و بوجود هذه الموانع كلها ، تنتفي

تلك المبادئ و القيم و المفاهيم الأخلاقية ، و تصبح في أحسن الأحوال مفاهيم و مصطلحات جوفاء عقيمة زائفة كاذبة فارغة المضمون أشبه ما تكون كالطبل في صورتها .. حجم و صوت كبيرين و مضمون فارغ يملأه الخواء و العدم . و هو الأمر الذي أصبح سائداً اليوم في دول العالم المتخلفة و المتأخرة و التي أصبحت على هامش التاريخ ، و كل شعاراتها و مبادئها لا تعدو في كونها إلا مجرد حالة صوتية .

لقد وُضِعَتْ القوانين و المبادئ و الشرائع لتقييد الإنسان و إجباره و إلزامه بمضامينها ، طوعاً أو كرهاً .. شاء ذلك أم أبى . لكن هذا كله على اعتبار أنه في الوضعية الافتراضية . و الغاية هي .. خدمته و فائدته و سعادته .

الفرد و الجماعة و الولاء للمجموع

مذ نشأته قديماً ، أيقن الإنسان حاجته إلى تشكيل جماعة أو الانخراط في جماعة . و ادرك أنه لا يمكنه العيش معزولاً منفرداً في الفيافي و القفار ، فكان نظام الجماعة أول نظام اجتماعي في العالم حيث توالت من بعده الأنظمة الاجتماعية باختلاف أنواعها .. القبائل .. المدن .. المجتمعات .. الدول .. الممالك .. الخ .

معلوم أنه عبر التاريخ ، لم يخترع الإنسان شيء ما ، سواء أكان أداة مادية أم أداة اعتبارية ، إلا ضمن شرطين اثنين .. **الحاجة و الفائدة** . حتى على مستوى المبادئ و المفاهيم . و خلا هذين الشرطين ، لم يقم الإنسان بإنتاج و اختراع و استخدام أية أداة . و هو و إن فعل ذلك و أوجد ما هو ليس بذي فائدة له و لا يشتمل على منفعة ، فإنه و بمجرد اكتشافه ذلك ، يتخلى عنه و يرمي به غير مبال و لا يعود لاقتنائه أو استخدامه . و كما كان شأنه مع اللغة و الكتابة اللتين اعتبرهما حاجة مهمة أساس ذوات منفعة ، كذلك كان شأنه مع الجماعة التي اعتبر أنها حاجة ملحة أساس . و لا غرو في ذلك إذا ما عرفنا أن نظام الأسرة كان هو النواة الطبعية و البذرة الأصل لنظام الجماعة فيما بعد . و لعله كان نظام جماعة ذاتي بدائي مصغّر . و إننا لنزعم أن الإنسان الذي نشأ في أسرته وليداً رضيعاً و من ثم طفلاً و يافعاً ، خضع في كل هذه المراحل لسلطة أبوية أسرية جماعية

مصغرة تتحكم به . و من بعد ذلك هو زوج و رب أسرة له أزواج و أبناء و من ثم أحفاد يتحكم هو بهم و يرعى شؤونهم و يخطط عنهم و يحميهم و يؤمن لهم المأوى و المسكن و الغذاء و فوق كل ذلك .. **الأمن** . يصدر الأحكام و القرارات و المراسيم الأسرية و يعاقب من كل يخالف و يخرق نظام الأسرة الاجتماعي . و الأهم من ذلك و ذاك .. هو أنه يحظى بثقة أفراد الأسرة جميعاً ، فجميعهم أعطوه صلاحياتهم الذاتية و تخلوا له عن بعض حقوقهم الخاصة . فنظام الأسرة هو الحاضن لجميع أفرادها الذين من المؤكد إنهم قد اتفقوا جميعاً على هذا النظام ، نظام الأسرة لسببين اثنين ..

أولاً .. أنه كان نظاماً طبعياً افتراضياً لم يكن للإنسان دخل فيه و لا يد . بمعنى أنه لم يصنعه و يخترعه ، بل وجد نفسه دون وعي و إدراك و إرادة ، داخل منظومته .

ثانياً .. إن نظام الأسرة قد أثبت و لا يزال إلى الآن .. أثبت أنه النظام الاجتماعي الفَعّال ذو الفائدة و المنفعة و الأصلح من غيره في مجال التربية و التعاون و لم يصح له بديل معادل مناسب أو أفضل ، إلى الآن . و ما مفهوم نظرية (العقد الاجتماعي) التي شُكِّلَ بموجبها نظام المجتمع و الدولة أو المدينة ، إلا صورة مصغرة عن نظام الأسرة . فكما سلم جميع أفراد الأسرة حقوقهم إلى رب الأسرة مقابل التنظيم و الحماية و الرعاية ، كذلك فعل أفراد المجتمع .

و من نظام الأسرة هذا ، خرجت بقية الأنظمة الأخرى الأكثر اتساعاً و شمولاً و تعقيداً ، فعبْر التاريخ ، شكلت مجموعة من الأسر المتعددة و التي لها أصل أسري

واحد ، شكلت جماعة صغيرة . و هذه الجماعة شكلت بدورها بعد مضي فترة من الزمن مع جماعات أخرى متجانسة ، شكلت القبيلة التي بدورها شكلت مع مجموعة معينة من قبائل متجانسة ، شكّلت المجتمع الذي بدوره شكّل نظام الدولة و الجغرافية المرتبطة بها .

و بالعودة إلى نظرية العقد الاجتماعي التي هي بنظرنا ، صورة مكبّرَة موسعة عن نظام الأسرة أول نظام اجتماعي عرفه الإنسان ، كانت الشكل العلمي التوصيفي السليم لنظام الجماعة و المجتمع و من ثم الدولة . و الحقيقة أن نظرية العقد الاجتماعي كفكرة و مضمون قد كانت موضع اهتمام العديد من الفلاسفة و المفكرين و الحكماء حيث كان لها وجودها الأول على ما يبدو ، في اليونان القديمة حيث التقطها كبار الفلاسفة هناك و اعتقدوا بها ، و ظهرت مقالات و آراء شبيهة بها في كتاباتهم . و ما (المدينة الفاضلة) لأفلاطون إلا شيئاً من هذا القبيل . و تدرجت الفكرة فيما بعد حتى وصلت إلى وضع التبلور على يد المفكر (توماس هوبز) الذي كان قد طالع آراء من سبقه من المفكرين القدماء في ذلك بالإضافة إلى (توم لوك) و غيرهم .

إن أساس نظرية (العقد الاجتماعي) أو فكرتها ، تقوم على أن يتنازل الأفراد في الجماعة أو المجتمع عن جزء من صلاحياتهم و امتيازاتهم و حقوقهم ، و يفوضونها إلى سلطة منتخبة تنظم لهم حوائجهم و تضبط أمورهم و توزع أدوار العمل و الوظائف و المهن فيما بينهم بطريقة مناسبة ملائمة ، و تسن لهم القوانين الناظمة لشؤونهم و تكون هي بالوقت نفسه خاضعة لتلك القواعد و الشروط و القوانين ،

أي ما ينطبق على الأفراد يتطبق عليها أيضاً كونها هي بالنهاية من أفراد المجتمع نفسه ، و هو بمجموعه ما يكفل الأمن و الاطمئنان و العدالة و الرخاء .

و بنظرنا ، فإن نظرية العقد الاجتماعي هي الوسيط العلمي النظري التنظيمي الانتقالي فيما بين نظام الأسرة و نظام الدولة و الأحزاب أو حتى أي نظام آخر .. هي القولبة العلمية لتطوير و توسيع نظام الأسرة البدائي الأول إلى ما تلاه من أنظمة أخرى . و ما نظام العائلات السياسي أو الاقتصادي أو الديني أو كلهم معاً الذي يسود اليوم في العالم ، إلا دليل واضح على صحة ما نزعم .

إن كل ما تم سوقه من كلام و قول عن التنظيمات و الأنظمة الاجتماعية ، قد اندرج تحت شعارات سادت و ما زالت تسود إلى اليوم و يُعمَل بموجبها و هي .. **الواحد للكل و الكل للواحد .. ولاء الفرد للمجموع .. الفرد يضحي بنفسه من أجل الجماعة .. يموت الفرد و يحيى المجموع .** و حديثاً تماهت هذه الشعارات التي لا تزال سارية المفعول إلى الآن ، تماهت مع شعارات أخرى مثل .. الصالح العام .. المقتضيات العامة .. المصلحة العامة .. الخ .

يقول المنطق الثاني .. إنه حتى نحكم على صحة هذه المبادئ أو الشعارات ، لا بد لنا من إسقاطها على أمرين اثنين .. المنفعة العامة المتبادلة التي جسّدها نظام الأسرة و السيرورة التاريخية و صيرورتها في آن معاً لتلك المبادئ و الشعارات و المناطق كمحك أساس لمفهوم و مبدأ .

لقد ثبت عبر التاريخ ، وبالأخص تاريخ تشكل الدول و الممالك البشرية المشتملة على الكيانات السياسية و الاجتماعية و العسكرية و ظهور نظام الملك و الرياسة،

ثبت أن مفهوم و مبدأ (الواحد للجماعة) و أشباهه ، لم يقدّم المنفعة كما كان مرتجاً منه إلا لفئة ضيقة محدودة هي الفئة الحاكمة سياسياً أو دينياً أو اجتماعياً و التي تنعمت بالمال و الجاه و النساء و العمران و الملذات بأنواعها كافة . أما الطبقة الأخرى المتمثلة بعموم الجمهور أو أفراد الشعب و المعبرة عن الفرد الواحد فيه ، فلم يثبت تاريخياً أنه قد ارتدّت عليها هذه المنافع المفترض أنها متبادلة . إذن .. فقد اقتصرت المنفعة فقط في قانون (الولاء للمجموع) و مبدأ (العقد الاجتماعي) ، على النُخَب فقط .

و تاريخياً أيضاً ، ثبت أن مبدأ (الولاء للجماعة) قد تم استغلاله أبشع استغلال . و أن هذا الاستغلال حقيقة قد وقع على الطرف الآخر في المعادلة و الذي هو الفرد في المجتمع .

إن معادلة الولاء للجماعة أو ما يسمى بنظرية العقد الاجتماعي ، تشكل الصيغة التالية .. **الأفراد + النخب = المنافع العامة** . و حسب المنطوق الرياضي المعبِّر عن قوانين و قواعد المعادلات الرياضية ، فإن أي عنصر من عناصر المعادلة ، يتم نقله إلى الطرف الآخر ، تتغير إشارته ، فإذا كانت موجبة أصبحت سالبة و يصح العكس في ذلك . و بالتالي فإن معادلة الأفراد + النخب = المنافع العامة يمكن أن تصبح رياضياً على الشكل التالي .. **النخب = المنافع العامة – الأفراد** . و هي معادلة تعني أن النخب العليا هي التي تستأثر بالمنافع العامة دونما الأفراد . كما يمكن أن تكون المعادلة على الشكل التالي أيضاً .. الأفراد = المنافع العامة – النخب . و هو أمر لم يحصل في التاريخ أبداً ، أنْ استأثر أفراد و عموم الشعب المنافع دونما النخب . و بالتالي يقول المنطق الثاني ..

إن معادلة (الأفراد + النخب = المنافع العامة) قد تم العبث بها تاريخياً و أصبحت (النخب = المنافع العامة – الأفراد) و قد استمر العمل بها و لا يزال مستمراً إلى الآن .

لننظر إلى الحضارات القديمة و الدول و الإمبراطوريات و نرى كيف أن أنظمتها السياسية و الدينية كانت قائمة على الظلم و الاستبداد و القهر و التسلط و الغزوات و الحروب و احتلال البلدان المجاورة و استعباد شعوبها و نهب ثرواتها . و هي سياسة و مبدأ أو بالأحرى معادلة استمر تداولها إلى الآن .. ألم يكن مبدأ الولاء للجماعة في مصر القديمة و مبدأ النظام الاجتماعي ، قائمين على استعباد الملايين من الناس لأجل راحة و لذة و متعة هذه النخب في حياتها ؟؟ و مئات الآلاف من الأرواح لأجل بناء قبور لهذه النخب السياسية و الدينية و راحة نفسها و بالها بعد مماتها ؟؟ . فماذا حصّلت هذه القواعد الشعبية المستعبَدة ، من نعيم و من رفاه و حقوق لها ضِمن معادلة (الولاء للمجموع) ؟؟؟!!! أو ضمن نظرية (العقد الاجتماعي) أو مبدأ و منطق (الفرد للجماعة و الجماعة للفرد) ضماناً للحقوق ؟؟!! و قس ذلك على حضارات بلاد ما بين النهرين و اليونان القديمة و من بعدها الحضارة البيزنطية الرومانية والفارسية و الإسلامية و ما تلاها .. كلها كانت تقوم على المبدأ ذاته .. نظام دولة .. نظام معبد .. نظام عبيد . و الحاكم بموجب طبيعة إلهية أو حق إلهي أو وكالة من الإله و له الحريات المطلقة . أما في القرن العشرين ، فإن الحاكم في الدول المتقدمة ، يُعيَّن من قِبل المؤسسات المالية الاحتكارية الاقتصادية الضخمة . بينما في الدول المتخلفة أو الديكتاتورية الشمولية منها ، فإن الحاكم يعين من قبل استخبارات تلك الدول المتقدمة أو نتيجة انقلاب عسكري يقوده و يطيح به حكومة من كان قبله ، هذا إذا لم يطح

برقبته معه و ينفرد بالحكم انفراداً تاماً و لا يتركه حتى يلقى وجه ربه أو يأتي من يطيح به بانقلاب عسكري ويرسله هو بدوره إلى وجه ربه . و يتحول الولاء للمجموع في تلكم الأنظمة الديكتاتورية الشمولية إلى الولاء للزعيم أو الحاكم أو الحزب الحاكم كما في النازية أيام هتلر أو الفاشية في إيطاليا أو الشيوعية عهد الاتحاد السوفييتي . و دائماً ما كان الجمهور أو الفرد الواحد من المجتمع ، يذوب ذوباناً في حرارة أتون النخبة القليلة الحاكمة و يصبح وقوداً لمحرقة نزواتها و أحكامها وقراراتها الخاصة و صراعاتها مع النخب المعادية لها في البلدان الأخرى أو المعسكرات الأخرى ، حتى على مستوى الأحزاب و التنظيمات السياسية أو الدينية و التي هي صيغة من صيغ نظام العائلة أو نظرية العقد الاجتماعي و تطرح الشعارات نفسها **.. الواحد للكل و الكل للواحد ..** أو **الفرد للحزب و الحزب للفرد .** كذا الأمر قُلِبت معادلة الأفراد و النخب و المنافع لتقتصر على الشكل السائد المذكور آنفاً **.. نخب = منافع – أفراد .** و أصبح الفرد بموجب هذه الشعارات الزائفة الباطلة يقوم بحرق نفسه و نفي حياته لأجل النخبة القليلة التي تتربع على سدة الحكم أو الحزب أو التنظيم .

بالعودة إلى القراءة و الاستقراء التاريخيين ، يتضح أنه لم يثبت في فترة معينة من فترات التاريخ ، أن قدمت النخب القيادية باختلاف أنواعها ، للفرد في المجتمع أو الدولة أو الحزب أو التنظيم ، أية منفعة أو فائدة تذكر سوى الحد الأدنى للبقاء على قيد الحياة . هذا غير الاستغلال و القمع و الحرمان بأبشع صورة و أقذر أسلوب ، متمتعة هي بالامتيازات الفاحشة الطاغية المتجاوزة لكل حد منطقي عقلاني إنساني ، إن بتراكم الذهب و الفضة و كنزهما و تكديسهما أو بتشييد

البيوت و القصور الفخمة الضخمة و الاستيلاء على الأراضي الواسعة الشاسعة و التسري و الزواج بآلاف مؤلفة من النساء و حشرهن بإسطبل واحد يدعى مقام الحريم أو (الحرملك) .

و حتى بالعودة إلى التاريخ و استعراض أنظمة الحكم ، يتضح أنه و لا واحد منها قد احترم مبادئ و شعارات (الفرد للمجتمع أو الدولة ، و المجتمع أو الدولة للفرد) أو مبدأ (الدولة في خدمة المواطن و الفرد) أو مبدأ (العقد الاجتماعي) لا بل هي بالأساس لا تتفق و لا تتقاطع معها و تقف على النقيض الفكري حيالها تماماً . فمبدأ الحاكم الإله الذي ساد في فترة المجتمعات و الحضارات البشرية الأولى ، لا ينسجم بتاتاً مع مبدأ تبادل الولاء و الخدمات فيما بين الفرد من جهة و المجتمع أو الدولة من جهة أخرى ، و منافٍ له تماماً . كما إن مبدأ الحاكم المكلف من قِبل الآلهة هو داخل ضمن هذه المنظومة تماماً ، كذلك مبدأ الحاكم باسم الله أو ظله في أرضه . و أساساً .. فإن هذه الأنظمة السياسية أو الدينية أو كليهما معاً هي بمضمونها و حيثيات توصيفها ، غير معنية بالشعب أو الجمهور كطرف من أطراف معادلة حكمها في الأرض ، طالما أنها ربطت نفسها مع الآلهة. و بالإضافة إلى كل هذا ، فقد برزت معضلة فكرية سياسية اجتماعية كبيرة ، خَتَمَ عليها الدين و اعترف بها كواقع موجود ، ألا و هي نظام العبودية الذي ظل سائداً حتى فترة قريبة . و العبودية كنظام اجتماعي ، هو خارج أي منظومة اجتماعية أو سياسية أو دينية تتبنى مفهوم و فكرة و منطق العدل و العدالة الاجتماعية و الإنسانية و (العقد الاجتماعي) أو مبدأ (الواحد للكل و الكل للواحد) . لا بل كان وصمة سوداء في تاريخ البشرية . ثم نعود و نسأل مرة أخرى .. هل تماهى هذا المبدأ و هذه الشعارات مع نظام الإقطاع الذي ساد العالم

لقرون طويلة و الذي هو نظام اجتماعي زراعي قائم بشكل بحت على الظلم و الاستعباد و الاستغلال ؟؟؟ .

و الذي يزيد الأمر تعقيداً و استغراباً ، هو أن هذه الشعارات و المبادئ بما فيها نظرية (العقد الاجتماعي) و التي قضى فيها المفكرون و الفلاسفة و الحكماء ردحاً طويلاً من الزمن ، تمحيصاً و تدقيقاً و تحليلاً و استفاضة ، قد أُطلِقَ عليها تسمية و تعريفاً (الحق الطبيعي) أو (القانون الطبيعي) أي بما معناه أنه لا يخالف الفطرة الإنسانية الأساس و أنه أيضاً حاجة ملحة و مطلب إنساني ضروري يُعَد حاجة لا بد منها تمثل الحد الأدنى و تتعلق بالعدالة الإنسانية و الفضيلة الأخلاقية و هو منطق سليم لا مجال للنقاش فيه لم تخالفه أو تعترض عليه (في المجال النظري) الديانات و الأعراف و القوانين و النظريات الفكرية و الاجتماعية و حتى السياسية . و بعض المفكرين و الفلاسفة اعتبره من الحقوق الطبيعية البدهية للإنسان غير المخالفة حتى للعقل البشري الذي استمده من الطبيعة نفسها و من طبيعة الأشياء الموجودة فيها و طبيعة الحوادث الافتراضية و سيرورتها و من ضمنها الكائنات الموجودة فيها بما فيها الإنسان نفسه . و يُعَلَلْ ظهور هذه الأفكار كنظريات متبلورة في القرون الوسطى اللاحقة ، كثرة المظالم الإنسانية السالفة التي لحقت بالإنسان الفرد في المجتمع من قبل الطبقة الحاكمة و المتسلطة و المآسي التي عاني بسببها الإنسان و التي كانت تكلفة حياته و كرامته و معيشته لأتفه الأسباب. و ربما لعبت البرجوازية الرأسمالية المتشكلة حديثاً ، دورها في بلورة و صياغة هذه النظريات و الأفكار و المفاهيم كونها نشأت أساساً ضد نظام الإقطاع و شكلت ثورة ضد نظام الكنيسة و قامت بالإصلاح الديني . و لا أدل على ذلك من أنها عملت دأبها على تسويق هذه الأفكار عالمياً و قامت لأجلها الثورات

العالمية التي تبنت هذه المفاهيم (على الأقل نظرياً أو ضمن مجتمعاتها) و دعت إلى حقوق الإنسان و جعلت ذلك كله فوق أية إرادة بشرية أخرى و غير قابل للتجزئة و التأويل و النقض أو الاعتراض من أية جهة أو سلطة كانت .

و لكن و رغماً عن ذلك كله ، فإن هذه المبادئ و المواثيق و المناطق لم تكن بمنأى عن التلاعب بها و تفسير القوي لها حسب مشيئته ، رغم اعترافه بها نظرياً ، أو حتى خرقها أحياناً أو تطبيقها على أطراف دون أخرى .. الخ . على المبدأ القائل .. إذا كان السيف في يدي فالحق في فمي . أي بكل بساطة .. تم إخراجها من الوضع الافتراضي المعياري .

بناء عليه و عليه بناء ، يقول المنطق الثاني .. لكي يكون الواحد للكل ، على الكل أن يقدس الواحد . و لكي يخدم الفرد المجموع ، على المجموع أن يكون خادم للفرد يسعى لخدمته و راحته و رفاهه و سعادته و يحرص أشد الحرص أن لا يمسه سوء بجسده و نفسه و كيانه مهما كان . و إن المبادئ لا يجوز مطلقاً أن تكون هي الكذبة التي نستخدمها لأجل المصالح .. و إنه عندما يصل المرء إلى الطريق المسدود .. يكون الأوان قد آن للتخلي عن المبادئ و القيم .. و إذا المبادئ ضيعت الحقوق يكون قد آن الأوان للكفر بها .. و إن المبادئ هي مطيتنا للوصول إلى سعادتنا و لسنا نحن مطيتها خدمة للغير .. و هي جاءت لأجل ذواتنا **لا لتنكح أمهاتنا .**

الوطن و المواطنة

الوطن هو المكان الذي يعيش فيه المرء ، و الحاضنة الجغرافية التي عادة ما ينشأ فيها و يبقى حتى الممات . و الوطن كمفهوم و مصطلح ، لا يرتبط بالأرض أو الحيّز الجغرافي فقط ، بل يرتبط بالفرد أو الجماعة التي تعيش على هذه البقعة الجغرافية و التي أثبتت تجانسها العرقي فيه ، قبل أي مفهوم أو عامل آخر كالدين مثلاً أو السياسة أو الموارد الطبيعية الموجودة في هذا الحيز الجغرافي و المختصة به و التي يعول المرء عليها للبقاء و الحياة .

و بالعودة إلى الفترات التاريخية الأولى للبشرية و التي هي الأجدر بنظرنا ، بتفسير جميع المظاهر و المفاهيم و الأحداث اللاحقة حتى وقتنا هذا ، نجد أن الإنسان القديم قد وعى نفسه موجود على بقعة جغرافية معينة تمثلت بمكان و مأوى يعيش فيه (كهف – مغارة – دغل – كوخ ... الخ) و على أشخاص تآلفهم و تآلفوه .. أتقن لغتهم و عاداتهم و انتسب إليهم برابطة الدم و العرق (الأسرة) و اشترك معهم في موارد الطبيعة و البيئة الموجودة فيها من أرض و أشجار و حيوان و صيد و رعي و نبات بالإضافة إلى المعتقدات الميتافيزيقية و الدينية التي اختصت بتلك البيئة التي عاش فيها و أحداث الحياة اليومية المتكررة المتشابهة المرتبطة بها .

و استمر هذا المنوال منذ ولادته و طفولته و حتى مماته . و تالياً .. ارتبطت مفاهيم العقيدة و العمل و الغذاء و الأمن و الجماعة و المأوى ، ارتبطت كلها بمنظومة بيئية جغرافية واحدة هي .. **الوطن** . و بإمعان النظر في عوامل و مقومات الوطن المذكورة تلك ، نرى أنها مرتبطة بأمرين اثنين ..

الأمر الأول .. أنها حاجات أساس مهمة للإنسان لا يمكنه الاستغناء عنها ، و هي تمثل منافع مطلقة ، خالصة موجودة أو مستخلصة . و أهم ما فيها أنها فردية قبل أن تكون جماعية . و هي نقطة هامة غفل الكثيرون عنها ، حتى بعض أصحاب الفكر و التاريخ . و خلاصتها أن الوطن هو حالة فردية قبل أن تكون جماعية ، كما أنها حالة فردية أكثر منها جماعية . فالوطن هو شعور إنساني فردي شخصي و يندرج حتى على سائر بقية الحيوان و حتى النبات ، فالكل له موطن .

الأمر الثاني .. إن الوطن كمفهوم لا يكتمل إلا بجميع مقوماته السابقة تلك ، غير منقوصة . و أي نقص في واحد منها ، ينتفي الوطن كمفهوم .

من خلال تلك الوضعية الوصفية الافتراضية ، يتضح لنا أن الوطن كمفهوم و مصطلح هو حالة ذاتية شعورية وجدانية متعلقة بالفرد نفسه و مرتبطة حصراً بالحالة النفعية الخدمية التي يقدمها هذا الوطن للفرد . فإذا انتُقِصت هذه الحالة النفعية الخدمية أو فقدت إحدى مقوماتها ، زالت تلقائياً حالة الشعور الوجداني العاطفي الوطني .

و بالعودة مرة أخرى إلى الفترات البشرية الأولى كأساس معياري منطقي للمقارنة، نرى أن الهجرات التاريخية الأساس و الفرع و حتى تلك الثانوية ،

كانت بكل بساطة تحصل بسبب انتفاء واحد من المعايير و المقومات الخدمية النفعية أو بعضها أو كلها أحياناً . فما أن يقلّ الكلأ أو المرعى في بعض الأماكن أو تجدب الأرض و تقل خصوبتها أو يقل الماء أو ينخفض مستوى الأمن و الأمان، حتى تبادر الجماعات الموجودة فيها إلى تركها على الفور و هجرة موطنها أو وطنها هذا و البحث عن موطن آخر جديد تتوافر فيه الشروط الملائمة المناسبة لها . و ما أن تجد المكان المناسب لها ، بيئياً و معيشياً حتى تستقر فيه و تعتبره موطنها الجديد و تنسى وطنها السابق و كل ما يتعلق به . **هذا هو مفهوم الوطن الحقيقي بكل بساطة و صراحة و بلا خجَلْ و لا وجَلْ** .. هكذا كانت الهجرات البشرية تتم في السابق و هذه هي أسبابها . و هذه المعادلة تنطبق أيضاً على الأفراد، فالكثير من الأفراد كان يهاجر من موطنه الأصلي الذي وُلِد و عاش فيه ، إلى موطن آخر يستقر فيه حتى الممات ، و ذلك إذا ما شعر بالخوف و الخطر على حياته و دمه أو عرضه أو ماله . و قد تطرقت الأديان السماوية إلى هذه القضية و أضفت عليها الشرعية و عدّها أمراً طبعياً لا ضير فيه و لا إشكال . حيث جاء في التوراة ..

[و قال الرب لإبرام اذهب من أرضك و من عشيرتك و من بيت أبيك إلى الأرض التي أريك * فأجعلك أمة عظيمة و أباركك و أعظم اسمك و تكون بركة] (سفر التكوين – الاصحاح ١٢) .

[فاخذ إبرام ساراي امرأته و لوطاً ابن أخيه و كل مقتنياهما التي اقتنيا و النفوس التي امتلكا في حاران و خرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان] (سفر التكوين – الاصحاح ١٢) .

[ثم ارتحل إبرام ارتحالا متواليا نحو الجنوب * و حدث جوع في الأرض فانحدر إبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً] (سفر التكوين – الاصحاح ١٢) .

[فكلم الله اسرائيل في رؤى الليل و قال يعقوب يعقوب فقال ها أنذا * فقال أنا الله إله أبيك لا تخف من النزول الى مصر لأني أجعلك أمة عظيمة هناك * أنا أنزل معك إلى مصر و أنا أصعدك أيضاً و يضع يوسف يده على عينيك* فقام يعقوب من بئر سبع و حمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم و أولادهم و نساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله * و أخذوا مواشيهم و مقتناهم الذي اقتنوا في أرض كنعان و جاءوا الى مصر يعقوب و كل نسله معه] (سفر التكوين – الاصحاح ٤٦) .

و في الإنجيل جاء ..

[و بعدما انصرفوا اذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف في حلم قائلاً قم و خذ الصبي و أمه و اهرب إلى مصر و كن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبي ليهلكه]

(إنجيل متى – الاصحاح ٢) .

[فلما مات هيرودس اذا ملاك الرب قد ظهر في حلم ليوسف في مصر * قائلاً قم و خذ الصبي و أمه و اذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبي* فقام و أخذ الصبي و أمه و جاء إلى أرض إسرائيل] (انجيل متى – الاصحاح ٢) .

يتضح مما سبق من آيات توراتية أنه سُمِحَ بالهجرة من الموطن بسبب عدم توافر عامل الأمن و ظهور خطورة على النبي (إبراهيم) من قِبَلْ أبيه و قومه الذين يعبدون الأوثان لا بل جاء ذلك بصيغة الأمر . و سُمِحَ أيضاً بالهجرة من الوطن و تركه بسبب العامل الاقتصادي المعيشي و عدم توافر موارد الأرض . كذا الأمر في الإنجيل جاء الأمر الإلهي بالهجرة و ترك الموطن بسبب عامل الأمن و الأمان .

أما في القرآن الكريم فقد وردت آيات كثيرة في هذا الخصوص تحض على الهجرة و ترك الموطن لأي سبب اضطراري و منها ..

{ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا } [النساء : ١٠٠]

{ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ } [النور : ٢٢]

{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا } [الأنفال : ٧٢] .

{ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً } [النحل : ٤١]

{ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا } [النساء : ٧٥]

{ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ } [العنكبوت : ٥٦] .

و هنالك عقاب شديد لمن امتنع عن الهجرة و ترْكْ الموطن حال لم يجد في موطنه أسباب العيش و الأمان المتيسرة . و مثاله الآية التالية ..

{ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا } [النساء : ٩٧]

{ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [القصص : ٢١]

و هنالك آيات تعتبر أن مفهوم الوطن و الأرض هو ملك لأشخاص متسلطين و ليس لعموم الشعب و المجتمع . و إن هؤلاء هم من يحدد مفهوم الوطنية و الوطن و يتحكمون بهما و يقررون لأجلهما من هو ضمن الوطن و من هو خارجه . و منها ..

{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ } [الأعراف : ٨٨]

{ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ } [الأعراف : ١١٠]

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ } [إبراهيم : ١٣] .

لقد ظهر الوطن تاريخياً كمفهوم متبلور متعلق بالمبادئ العليا السامية التي تستلهم الإحساس الوجداني و توقظ العاطفة و الشعور القومي الجماعي .. ظهر عندما بدأت الغزوات و الحروب للسيطرة على أراضٍ جديدة تشكل موطناً ملائماً للغازي المحتل . و في الوقت نفسه يتم الدفاع عنها من قبل أصحابها كيلا يفقدوا سيطرتهم عليها و يتم طردهم منها إلى أماكن جغرافية أقل جودة و ملائمة و ميزة و وفرة . و لكي يتم ذلك و يتيسر لهم صد الأعداء ، لا بد من تجييش الشعب و تحفيز الجمهور للدفاع عن الحيز الجغرافي المتمثل بالأرض التي يعيشون عليها بما فيها من موارد و خيرات و منافع اقتصادية . و لكي يُصار إلى ذلك ، كان لا بد من تحريك العامل العاطفي المتمثل بالأحداث و الذكريات المشتركة المرتبطة بالأرض و المجموع . حيث يُستخدم هذا العامل العاطفي للحفاظ على العامل

المادي ، و هو ما يؤدي إلى إنتاج ما يُسمى و يُعرف بـــ (الوطنية) التي تكون حقيقتها مبنية على المعادلة التالية .. **عاطفة غريزية = منافع اقتصادية** . و بعبارة أخرى ، استخدام العامل العاطفي الغريزي للدفاع عن الموارد الطبيعية و من بعدها الموارد البشرية . و لعلنا نلاحظ أن المناطق الاستراتيجية في الأقاليم الهامة من العالم كانت هي الأكثر عرضة للمناوشات و الحروب و الغزوات و المعارك . كان هذا في الماضي ، أما الآن فإنه قد لا يختلف كثير الاختلاف عما هو عليه في الماضي .

إن مفهوم الوطن و الوطنية و المواطنة شأنه شأن بقية المبادئ و المناطق و المفاهيم ، قد تعرّضَ لسوء الاستخدام و القرصنة و ذلك لسبب بسيط و هو أن مفهوم الوطن و المواطنة هو مفهوم شبيه بمفهوم (**الكل للواحد و الواحد للكل**) و مبدأ (**العقد الاجتماعي**) . و بناء عليه و عليه بناء ، فإن مفهوم الوطن و الوطنية ، هو بالمنطق الثاني ، منتَج اعتباري إنساني تم اختراعه أساساً ليوضع موضع الخدمة الإنسانية و هو علاقة خاصة فيما بين الفرد و الأرض التي يعيش عليها . كما أن الفرد هو الذي يحدد مفهوم الوطن و يضع له إطاره الصحيح و المناسب ، حتى الحيوانات تتبع هذا المنهج ، إذ ترى قطيع من السباع و الوحوش و البهائم يترك موطنه بمجرد أن يراه غير صالح للبقاء و العيش ، و يبحث عن موطن آخر .

و كما تم العبث بمعادلة الأفراد و النخب و المنافع ، كذلك تم العبث بمفهوم و معيار الوطن و الوطنية و تغيير بوصلته الحقيقية ، فأصبحت معادلته مقلوبة بالعكس . و تم إلغاء معيار المنفعة التبادلي و جعله باتجاه واحد ، فأصبح الفرد بموجب ذلك خادماً لوطنه تابعاً له يقدم له حياته و دمه و ثروته و كرامته و نفسه

و كل شيء يتعلق به ، دون أن يحصل هو من الوطن على أدنى المقومات و الموارد و الظروف المعيشية .

و تبلغ خطورة هذه القضية بأقصى مبلغ لها عندما **يتم قرصنة مفهوم الوطن و الوطنية و احتكاره من قِبَل نخبة قليلة تتحكم بالمجتمع و تضع هي معاييره و ضوابطه على هواها و تحاسب الأفراد بموجبه** . و حيثية الخطورة و الضرر في ذلك، هي أن يتم تجريد المواطن من حق المشاركة الوطنية و رسم المعايير الوطنية الخاصة به و التي يراها هو و ينظر بموجبها إلى الوطن الذي يعيش فيه و حق تقييمه بموجبها ، و تعديلها حسب ما تقتضيه حاجاته الحياتية و الأمنية و النفسية و المعيشية ، فأصبح المواطن عملياً ، خارج إطار معادلة الوطن و الوطنية ، و في الوقت نفسه هو خادم و عبد للوطن مع العلم أن العكس هو الصحيح .. أن يكون الوطن هو الخادم و العبد للمواطن . و بمقدار ما يكون الوطن عبد مطواع و خادم نافع للمواطن ، بمقدار ما يتمسك المواطن بوطنه الخادم هذا و لا يتخلى عنه . و هو الوضع الافتراضي المعياري الصحيح و الثابت منطقياً عبر الزمن الذي يحدد أن معيار الوطنية عند المواطن يتناسب طرداً مع نفعية الوطن كافة للمواطن ، و العكس صحيح .

و بناء عليه و عليه بناء .. فإن المواطن هو في حِلّ من أي علاقة أخلاقية عرفية وطنية إذا لم تقدم الوطنية ، النفعية المتوخاة و المرجوة منها للمواطن . هذا الأمر يقودنا إلى قضية جانبية متعلقة به و تشكل مُفرزاً من مُفرزاته إلا و هي ما يسمى بـــ (خيانة الوطن) و هي بنظرنا مفهوم غامض مبهم لا يمكن إسقاطه على محمل الواقع و المنطق السليم . فالخيانة هي مفهوم إنساني أخلاقي يتعلق بالإنسان

حصراً و يتحدد بثنائية جدلية طرفيها (إنسان – إنسان) و لا يمكن لها بحال من الأحوال أن تتعدى حدود أطرافها تلك أو تتبدلها . فلا يستقيم أن يكون هنالك خيانة فيما بين الإنسان و الحيوان أو بين الحيوان و الحيوان أو بين الإنسان و الجماد . فلا تقع الخيانة إلا بين فرد و فرد .. أو فرد و جماعة .. أو جماعة و جماعة .

إن الخيانة كمفهوم ، قد وقعت عليها أبشع الصفات و النعوت السلبية و أقسى العقوبات التي هي في الغالب الأعم .. الحكم بالموت . و أكبر أنواع الخيانة هي ما يسمى (خيانة الوطن) أو يطلق عليها عادة (الخيانة العظمى) و حكمها الثابت الذي لا يتغير هو .. الموت .

غير أن هنالك إشكاليتان في هذه القضية التي لطالما استُخدِمت على نطاق واسع عبر التاريخ للتخلص من الكثير من الخصوم و غير الخصوم و استُخدِمت بشكل شرعي و آخر تعسفي عشوائي ظالم متجاوز للحد ..

الإشكالية الأولى .. إن الخيانة العظمى أو خيانة الوطن الموصوفة ، ليست خيانة للوطن بقدر ما هي خيانة لجهة معينة تعتبر نفسها السلطة الحاكمة أو النخبة المسيطرة أو أية جهة متسلطة . و بالتالي فهذه إشكالية توصيفية و ذلك بغض النظر عن مصداقية تلك الخيانة و مشروعية حيثياتها من عدمها . فلربما يكون الشخص الخائن أو من وقعت عليه تهمة الخيانة ، قد قصد عمداً خيانة جهة معينة حصراً دون غيرها لسبب من الأسباب . و بما أن تلك الجهة كان لها ، أو هي جعلت من نفسها و لنفسها شرعية معينة و سلطة ما ، فإنها قد أسقطت تلك الخيانة على المجتمع و الدولة و الشعب ككل و عممتها عليهم .

الإشكالية الثانية .. هي مبررات و مسببات تلك الخيانة و ظروف حدوثها و ملابساتها . هل هي نتيجة اضطرار تحت وطأة ضغط معين أو تهديد ما خارج إرادة الشخص الموصوف بالخيانة ؟؟ أم هي نتيجة ضغط مادي و فقر و عوز ألجآه إلى الخيانة و اضطّراه إليها اضطراراً عندما لم يلقَ من المجتمع و الدولة أي عون أو مساعدة ؟؟ أم هي نتيجة ظلم و حيف و اضطهاد لحق به من المجتمع أو الدولة أو كليهما معاً ؟؟ فقام بالخيانة كردة فعل طبعية نفسية . و ربما شرعن هو لنفسه هذه الخيانة لمجتمع و دولة فاسدين . و بالتالي تنطبق عليه الآيات القرآنية ..

{ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا } [النساء : ٧٥] .

{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ } [النمل : ٥٦] .

{ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ } [القصص : ٢٠] .

ثم ما هو توصيف الشخص الثائر أو الجهة الثائرة على سلطة حاكمة لقلبها و الإطاحة بها ، إلا أن يتم توصيفها و توصيف أعمالها تلك بالخيانة العظمى ، بغض النظر عما إذا كانت تلك السلطة فاسدة ظالمة مستبدة تهيئ لمناخ الثورة عليها و الإطاحة بها ؟؟!! . و عندما تتم عملية انقلاب عسكري ، ألا يقوم الطرف المنتصر أياً كان ، بإلصاق تهمة الخيانة العظمى بالطرف الخاسر أياً كان هذا الطرف ، سواء أكان الحاكم أم المتمرد ؟؟ فكيف يصح و الحالة هذه استخدام مصطلح (خيانة الوطن) أو (الخيانة العظمى) و إيجاد مبرراته المنطقية العقلانية المقبولة عامة و بالأخص عندما يتم توصيف شخص ما من قِبل سلطة ما بأنه خائن ، و في الوقت نفسه يوصَف بالبطل من قِبَل جهة أخرى مضادة ؟؟!! .

في الحروب و الصراعات و النزاعات الدولية السياسية و حروب الاستخبارات و غيرها ، غالباً ما يتم اصطياد العملاء و تجنيدهم عن طريق المال الذي هو الوسيلة الأشهر في تجنيد العميل الذي يكون محتاجاً مضطراً للمال . أو عن طريق استغلال الوضع الاجتماعي الذي يعيشه هذا الشخص أو الطائفي أو استغلال نقمة هذا الشخص على ظلم يحيق به من المجتمع و حَيف و اضطهاد يتعرض له أو استغلال حالة الجهل و الأمية و الافتقار الفكري الثقافي الذي هو أحوج ما يكون إليه و ما إلى ذلك من أمور و أسباب من يتحمل وزرها و علتها غير المجتمع و الدولة .

نقرأ في الكتب و المؤلفات التي تتحدث عن القضايا الجاسوسية الأمنية و الوطنية و بالذات في عالمنا العربي فنجد معظمها تتحدث عن الجواسيس و العملاء و توصفهم بأنهم (مجموعة من ضعاف النفوس و يكونون من جهلة المجتمع و المنبوذين فيه و المكبوتين .. الخ . و الذين يتم استغلالهم مادياً بالمغريات المادية و الجنسية و .. الخ) . و السوآل البدهي الذي يُطرح بإلحاح هنا .. كيف نحمّل شخص أمي جاهل منبوذ من المجتمع و محتقَر فيه و لا يستطيع تأمين لقمة عيشه اليومية و لا يجد كرامة له و لا مأوى فيه و لا يستطيع هجرة منه ، كيف نحمّله مسؤولية خيانة هذا المجتمع ؟؟!! و بأي حق و أي منطق ؟؟!! ألا تقع الخيانة هنا على المجتمع و على أرباب المجتمع و ملأه و الدولة و مؤسساتها ؟؟!! أليس من حق هذا الشخص أن يكفر بهذا الوطن و المجتمع الذي يعيش فيه ، لا أن يخونه فحسب ؟؟ أليس من حقه أن يخون و يكفر بوطن نبذه و أفقره و أذله و أهان كرامته و جوّعه و جهَّله و منع عنه العلم و الرزق و العيش الكريم و جعله إنساناً مكبوتاً مضطراً لأي قشة كي يتمسك بها ؟؟؟!!! هذا هو المنطق الثاني .

الأرض

الأرض هي أساس الوجود . و لولا الأرض لما كان هنالك حياة و وجود ، اللهم إلا في الفضاء و هذا ما لا يمكن تحقيقه في الوقت الراهن . و بحسب الأديان ، فإن الله تعالى قد خلق الأرض و السماء ثم جعل الأرض مكاناً للمخلوقات و مستقراً لها { الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } [البقرة : ٢٢] .

{ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة : ٣٦] .

أما بحسب علوم التاريخ و الطبيعة الوضعية ، فإن الأرض كانت كرة نارية ملتهبة ثم أخذت تبرد شيئاً فشيئاً و من بعد ذلك هطلت عليها أمطار غزيرة هائلة شكلت القسم الأكبر منها . و في المحيطات و البحار ظهرت أولى الكائنات الحية المتمثلة بما عُرف و سمي (وحيدات الخلية) و ذلك حسب الأعراف العلمية . و من وحيد الخلية هذا الذي اعتمد مبدأ الانشطار ، ظهرت معظم الكائنات الحية التي انتقل قسم منها من البحار إلى اليابسة و كان آخرها الإنسان العاقل الذي ظهر على هذه الأرض كجنس منفصل تماماً عن بقية الحيوانات تميّز عنها بالعقل الذي ساد به مخلوقات الأرض جميعاً . و تكاثر و استعمر الأرض و أنشأ فيها حضاراته و مدنه و ممالكه { هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } [هود : ٦١] .

إن المقصود بكلمة الأرض في مبحثنا هذا ، ليس كوكب الأرض بحد ذاته ، و إنما اليابسة التي تشكلت فيها . و من خلال ما سبق ، فإن كل الكائنات الحية هي وافدة على الأرض ، بما فيها الإنسان . و لم تقم هي باختراعها أو صناعتها و لا دخل لها في تكوينها و تأسيسها ، بل هي حسب التعريف الديني من صنع الله تعالى الذي صنعها لأجل الإنسان { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } [البقرة : ٢٩] - { هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا } [الملك : ١٥]. و هي مجرد كائنات تتموضع فيها لفترة معينة من الزمن تختلف حسب اختلاف أعمار و دورة حياة كل جنس منها عن الآخر بما في ذلك النباتات . ثم لا تلبث أن تزول عن هذه الأرض و تتحلل بقية مكوناتها العضوية فيها بانتهاء دورة حياتها .

و الأرض كمفهوم و مصطلح هي حالة شبيهة بحالة الوطن كمفهوم و مصطلح ، مع فارق بسيط و هو أن الأرض يمكن أن تكون حالة مجردة بحد ذاتها لا ترتبط بعنصر آخر . و في علوم التاريخ و الجيولوجيا و الحيوان ، فإن الكائنات الحية مذ وجودها على الأرض ، سعت و لا تزال تسعى إلى بسط سيطرتها على أقصى ما تستطيع من حيز و مساحة جغرافية . و كلها تفعل ذلك حتى الحشرات منها لا بل حتى النبات . و ما الأحراش و الأدغال الكثيفة الشائكة في الغابات و الجبال ، إلا مستعمرات نباتية متجانسة تحاول التمدد و الاستحواذ على مساحة إضافية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً . كذلك الحيوانات من سباع و بهائم على اختلاف أنواعها تراها تحاول احتكار مساحة معينة من الأرض و إنشاء مستعمرات لها فيها لا تسمح لدخيل غريب عنها بدخولها . و منها من يقوم بترك علامات تحذيرية على حدوده تحذر الغرباء و المتطفلين من مغبة دخولها . فترى السباع تتبول في

أماكن معينة أو تترك آثاراً من رائحتها أو وبرها كإشارات تحذير و تنبيه شبيهة باللافتة الشهيرة التي فحواها (ممنوع الاقتراب و التصوير) .

و غني عن القول أيضاً إن كل الكائنات الحية من نبات و حشرات و حيوان و إنسان ، تختار البقعة الأنسب من الأرض و التي تتمتع بميزات أفضل . و لعل أكثر ما يدل على هذا القول ، هو النظر إلى الصحارى الحارة و المناطق الجليدية حيث لا حياة من نبات أو حيوان أو إنسان إلا ما ندر .

و بالنظر إلى التاريخ و بداية ظهور الجماعات البشرية الأولى و الهجرات اللاحقة ، نرى أن الإنسان القديم قد تعامل مع الأرض كمتاع و حاجة مثل بقية الحاجات كأداة للسكن و المأوى ، فلم يربط نفسه بها بل ربطها هي بنفسه و هو المبدأ نفسه الذي اتبعته الحيوانات و تعاملت به مع الأرض . و يبدو أنه كان مبدأ صائب و افتراضي معياري في الوقت ذاته . فهذا الحيوان الضاري الذي استوطن بقعة جغرافية معينة و منع غيره م الاقتراب منها و دخولها ، كان ليتخلى عنها بكل بساطة و يهجرها عندما يقتحما حيوان ضارٍ آخر بصفة غازٍ جديد و يخرجه منها و عادة ما يتم ذلك بعد اشتباك و قتال داميين ، فيخرج الضعيف مهزوماً مكلوماً من الأرض أو الجحر الذي يعيش فيه و يتجه من فوره و بكل هدوء و تقبُّل للأمر ، إلى مكان آخر يستوطن فيه و لا يبالي بعدها بكل ما حصل معه من قبل و ينسى كل ما يتعلق بموطنه السابق و هو الأمر ذاته الذي كان يحصل بالنسبة للجماعات البشرية الأولى التي كانت يَغِيرُ بعضها على أراضي بعض و يطرد بعضها بعض ، فيستوطن القوي المنتصر في الأرض و يخرج الضعيف الخاسر بحثاً عن مكان جديد يجد ضالته و بغيته فيه و يقف الأمر بكل بساطة عند هذا الحد لا

يتعداه و لا يستجلب إلى حيثياته البسيطة الافتراضية حيثيات أخرى خارجية أكثر تعقيداً كالوطنية و الشعارات القومية و إزهاق النفس و الروح لأجل التشبث بهذه الأرض و إلى ما هنالك من أمور مشابهة هي في أساسها عقيمة النفع عديمة الجدوى عظيمة البلوى .

فالثابت تاريخياً أن الأرض هي بالأساس ليست ملكاً لأحد و لا أحد يستطيع الادعاء بملكيتها أو حيازتها ، فالكل زائل و الكائنات الحية جميعها هي حادثة لاحقة بالنسبة إلى الأرض و ليست قديمة سابقة .. بما فيها الإنسان الذي هو أحدث الحوادث على الأرض و ربما يكون أول زوالها ، و هو مصداق الآية القرآنية { وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ } [البقرة : ٣٦] .. فحسب دراسات بعض مراكز الأبحاث العسكرية .. أنه في حال نشوب حرب عالمية نووية و دمار الأرض و فناء الإنسان بسبب ذلك ، سيبقى هنالك بعض الحشرات و الحيوانات في اليابسة هذا بالإضافة إلى الكائنات البحرية المتوضعة في مستويات أعماق معينة . و بالتالي .. لا يستطيعن أحد المزايدة العاطفية و المحاسبة و غيرها بالنسبة إلى الأرض .

و الثابت تاريخياً أيضاً أن الأرض كمصطلح و مفهوم ، قد خضعت فقط لعامل القوة الذي كان هو العامل الفيصل الحاسم لموضوع ملكية الأرض و حيازتها . و لم يثبت تاريخياً وجود عامل آخر يدلل على شرعية أرض معينة لفئة معينة خلا بعض الكتب الدينية كالتوراة و القرآن التي تحدثت عن أرض (بني إسرائيل)

{يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ} [المائدة : ٢١] .

{ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا } [الإسراء : ١٠٤] .

و حتى في القرآن الكريم ، جاءت الأرض كمشاع عام لبني الإنسان و هذا هو تاريخ الحضارات و الدول و الممالك التي قامت ثم بادت و زالت ، و الحروب و الغزوات أكبر شاهد على . و لا أصدق من المقولة التي فحواها **(المرء من حيث يوجد لا من حيث يولد .. و من حيث يثبت لا من حيث ينبت)** فهي تفسر مضمون ما ذُكر آنفاً .

و الثابت أيضاً تاريخياً .. أن الأرض كمفهوم و مصطلح لا تعطي الشرعية لكل من عليها . و لم يثبت تاريخياً أنها منحت شرعية لأحد بامتلاكها ، فهي بأصح تعابيرها و معاييرها تمثل المشاع . حتى القوانين الاقتصادية و السياسية اللاحقة كانت تتبنى مبادئ مثل (الأرض لمن يعمل بها) و هذا المبدأ قد طُبِّق قديماً و لا يزال سارٍ العمل به من قِبَل بعض الدول و القوانين . فقد كانت بعض الدول و الهيئات الدينية في أوروبا قديماً و لاحقاً في القرون الوسطى ، تقوم بإقطاع الأراضي الشاسعة لمن لديه القدرة على استصلاحها من القواد أو أي شخص و جهة مالية لديها القدرة على استصلاح تلك الأراضي . و بالإضافة إلى ذلك ، فإن ملكية الأراضي الواسعة ، تتبدل على الدوام ، حتى و لو بعد سنين طويلة حيث كانت تلعب فيها الحملات العسكرية دوراً كبيراً ، فتتغير ملكية الأرض بتبدل الحاكم أو الملك .. أحياناً لعامل الوراثة الملكية و مثالها مملكة صلاح الدين الأيوبي التي توزعت بعد وفاته إلى أكثر من دولة توزعت على أولاده ، و شكلت تبعاً لذلك مُلكاً عضوضاً لكل واحد منهم . و أحياناً أخرى تتغير الملكية لعامل الوراثة السياسي و مثالنا هنا هو إمبراطورية الإسكندر المقدوني الشاسعة المترامية

الأطراف و التي انقسمت بعد وفاته ، على قواده حيث شكّل كل واحد منهم دولته و مملكته الخاصة به . و كان كل حاكم جديد يستبدل من يريد استبداله من مُلاّك الأراضي و الإقطاع ، و يُبقي على من يريد إبقائه منهم .. حتى الكنيسة في القرون الوسطى ، كانت تمنح بعض الأراضِ البور الجرداء لمن يكون قادراً على استصلاحها ، و تنزع ملكية الأرض ممن لم يستطع القيام بذلك أو ممن يحل سخطها و غضبها عليهم . كذلك الملوك كانوا يفعلون الشيء ذاته .

إذن .. يتضح مما سبق ، أن الشرعية الوحيدة المنطقية الافتراضية التي ارتبطت تاريخياً بملكية الأرض ، قد ارتبطت بدورها بمبدأ واحد هو (الحيازة) الذي ارتبط بدوره بمبدأ القوة . و لم يثبت تاريخياً أنه ارتبط بأي مبدأ آخر سواء أكان العدالة أم الدين أم الأمانة أم الإنسانية ... الخ . و لا يمكن لأحد ما ، كائناً من كان سواء أكان فرداً أم مجموعة أم دولة أم مجتمع أم حزب أم فرقة دينية أم غير ذلك ، أن يتشدق بمفهوم الوطنية أو الاستعمار أو اغتصاب الأرض و ما إلى ذلك من شعارات و مبادئ و مناطق عقيمة أصابها الشلل و الإفلاس . و السبب في ذلك يعود إلى أن الكل قد انغمس بلعبة الغزو و الاحتلال و استعمار الأراضي و استعباد الشعوب . و لم تنج أمة من ذلك ، بدءاً من المصريين و البابليين و الآشوريين و الفرس و الرومان و الإغريق و العرب و التتار و المغول و الأوروبيين و غير ذلك الكثير . و لا يستطيعن بل لا يجرؤن أحد بعد الآن التفلسف و التحذلق و التفذلك و التشدق بالوطنية و اتهام الغير بالاحتلال و الاستعمار .. اللهم إلا تلكم الشعوب و الجماعات البدائية المعزولة النائية إما في أدغال إفريقية و مجاهل الأمازون و إما في ثلوج القطبين و غابات استراليا و الهنود الحمر . فهذه الشعوب التي كانت عبر التاريخ البشري كله ، شعوباً مغلوبة على أمرها ، عانت

الأمرّين من الاضطهاد و الاستعباد و الاحتلال و حتى الإبادة و التطهير . و هي لم تكن في يوم من الأيام غازية لشعب من الشعوب و محتلة له .

و بناء عليه و عليه بناء .. فإن المنطق الثاني يقول في هذا الصدد .. إن الأرض ليست مُلكاً لأحد و لم و لن يمتلكها أحد ، فالكل زائل و ذاهب و تبقى الأرض التي تبتلع الجميع .. جاءت الحضارات ثم زالت و جاء أقوام ثم اندثروا و بادوا و قامت ممالك و إمبراطوريات و دول و ما لبثت أن زالت بعدها و أصبحت أثراً بعد عين . و الأرض وُجدت لخدمة الإنسان و لوجود الإنسان ، و ليس الإنسان من جاء لخدمة الأرض . فالأرض ليست بحاجة لخدمة . و كل عمل للإنسان فيها و لأجلها ، هو خدمة لنفسه و لحاجاته و لأجله . و الأرض بالمفهوم الديني ، تم خلقها أساساً لخدمة الإنسان . جاء في التوراة ..

[و قال الله نعمل الانسان على صورتنا كشبهنا فيتسلطون على سمك البحر و على طير السماء و على البهائم و على كل الأرض و على جميع الدبابات التي تدب على الأرض * و باركهم الله و قال لهم أثمروا و أكثروا و املأوا الارض واخضِعوها و تسلطوا على سمك البحر و على طير السماء و على كل حيوان يدب على الارض] (سفر التكوين – الإصحاح ١) .

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا } [البقرة : ٢٢] .

{ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا } [طه : ٥٣] .

{ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا } [غافر : ٦٤] .

{ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا } [الملك : ١٥] .

{ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا } [نوح : ١٩] .

و هذه القضية بالذات ، تفتح ملفاً غاية في الأهمية و هو (الانتماء للأرض) سواء بالنسبة للعرقية أو القومية أو الوطنية . يقول المنطق الثاني .. إن الانتماء إلى الأرض هو مفهوم لا يصح و لا يستقيم من الناحية المنطقية العقلانية ، و من الناحية التاريخية لجهة الوقائع و الأحداث الحاصلة و لجهة الآثار المنقوشة و المكتوبة سواء المستخرج منها أم الآبِد الشاهد . و بأحسن الأحوال ، فإن مفهوم الانتماء للأرض هو مفهوم مشكوك بصحته و ينقصه الكثير من الدعم و البرهان . و فوق ذلك و ذاك كله ، لا يوجد رابط شرعي أو منطقي واحد يربط الإنسان بالأرض التي هو عليها . كما إن مصطلح القومية لا يدعم بالضرورة قضية الانتماء للأرض ، حتى و إن تحدثت نظريات الفكرة القومية عن الأرض كعامل من عواملها . فهذا أمر يعتريه بعض الخلل . لأن فكرة و مفهوم الانتماء القومي للأرض ، يعني بكل بساطة و من منطوقه النظري ، أن الإنسان لا يمكنه العيش خارج بقعة معينة من الأرض و أنه كالنبات .. إن خرج من موطنه مات . و إن بقعة معينة من الأرض لا يمكن أن يعيش عليها سوى عِرق معين . و هذا ما لا يصح عملياً .. فالإنسان خلاف النبات و بعض الحيوان ، يمكنه العيش في جميع مناطق المعمورة . و أينما توجهنا إلى أية بقعة من بقاع الأرض ، نرى الإنسان فيها و من مختلف الأجناس لكننا لا نرى النبات و الحيوان بأجناسه و أصنافه كافة . و هذا ما يقودنا إلى نتيجة هامة و خطيرة جداً و في الوقت نفسه هي للأسف طريفة و مضحكة و هي .. **أن الانتماء القومي للوطن و الأرض ، هو من اختصاص النبات و الحيوان فقط دون الإنسان** ، فقط لأمور تتعلق بالعامل العضوي الفيزيولوجي حصراً . و ما الهجرات البشرية الكبرى التي حصلت منذ القديم و ما بعد ذلك في القرون الوسطى إلى أستراليا و الأمريكيتين و ما زالت إلى

الآن ، ألا أكبر دليل على عدم قوة المفهوم القومي المتعلق بالانتماء للأرض . لكن ذلك لا يعني بالضرورة نفي مفهوم الأرض تماماً .

إن ما يميز العامل و المفهوم القومي ، هو العرق البشري بالدرجة الأولى و يأتي بعده عنصر اللغة المرتبط به . و إننا نتساءل هنا بالمنطق الثاني .. هل سيفنى العرق الصيني أو الأصفر إذا ما عاش في إفريقيا أو جنوب غرب آسيا أو أمريكا أو أوروبا ؟؟!! و هل هذا ما ينسحب على العرق السلافي الروسي ؟؟!! ألم يأتي العنصر الأوروبي من أقصى شمال أوروبا إلى أقصى جنوب إفريقيا ليشكل ما عُرِف بدولة (بريتوريا أو جنوب إفريقيا) و يتعايش مع الشعوب هنالك ؟؟!! ألم يذهب إلى استراليا و أمريكا و يفعل الشيء ذاته ؟؟!! أليست الولايات المتحدة الأمريكية إلا خليط من كل شعوب و أمم الأرض ؟؟!! ألم يجتمع اليهود من كل أنحاء العالم و يهاجروا إلى فلسطين و يقيموا بها دولة إسرائيل بدعوى أن هذه أرضهم و في الوقت نفسه يرفض قسم آخر منهم الهجرة إليها ؟؟!! .

و لا يوجد بالعموم أرض تتبع لقومية و عنصر فليس هنالك أرض صينية أو أوروبية أو روسية أو أمريكية أو عربية ، لكن القضية هي أنه كما تبوّلَ بعض الحيوان على مناطقه الجغرافية ليسمها بسماته ، كذلك فعل الإنسان الذي تبوّلَ ببعض مفاهيمه و مبادئه العقيمة الكاذبة على مناطقه ليسمها بسماته و هو ما تسبب بكوارث و مجازر بشرية لا طائل منها .. ذهب ضحيتها الملايين من بني البشر لتعطي صورة مفادها .. أن الحيوان قد يكون أوعى من بعض البشر .

الشعب

(الشعب) .. مصطلح ، كثيراً ما وجد لنفسه موطئ قدم في كتب المؤرخين و الفلاسفة و الكُتّاب و المتكلمين و السياسيين و غيرهم .. القدماء منهم و المعاصرون .

و كلمة (الشعب) وردت كمصطلح اجتماعي و مصطلح ديني و سياسي و حتى كمصطلح علمي . جاء في المعاجم [1] .. الشعب هو القبائل و ما تشعب من قبائل العرب ، و شعب يعني حي من كذا .. و سميت الشعوب شعوباً لأنها تشعب أي تتفرق . و الشعوب هي القبائل و البطون .. و الشعب ، ما تشعب من قبائل العرب و العجم .. و تشعبت أغصان الشجرة أي انتشرت و تفرقت .. و يقال شعب الرجل أمره إذا شتته و فرقه (انتهى) .

و الشعوب أيضاً هي أعظم القبائل ، و الشعب و التشعب جاءا بمعنى الانقسام فيقال .. طريق له شُعب أي له مفارق و طرق فرعية مختلفة . و شعاب مكان هي فروعة و طرقه المختلفة عنها المتفرعة منه . و في القرآن الكريم جاءت كلمة شعب أيضاً بمعنى التفرق { انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ } [المرسلات : ٣٠] . و جاءت أيضاً

[1] انظر لسان العرب – مادة شعب .

بمعنى الجماعة الكبيرة المقاربة لشكل القبيلة { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ } [الحجرات : ١٣] .

و إذا نظرنا إلى كلمة (الشعب) نجد أنه قد تم استخدامها في كثير من المجالات و المواقع و المقاصد الخطابية . و من كل مقصد من هذه المقاصد و مفصل من مفاصلها ، كان مفهوم (الشعب) يعبر عن شيء مختلف و مفهوم و مصطلح متمايز عن الآخر ، سواء في الكتب أو الموسوعات أو المقالات أو الصحف أو قنوات التلفزة و الإذاعة . فتارة يأتي بصيغة مجموعة الأفراد الخاضعين لسلطات دولة و حكومة مركزية (الشعب الفرنسي .. الشعب الاسترالي .. الشعب الأمريكي .. الشعب السوفييتي ... الخ) . و تارة أخرى يأتي بصيغة مجموعة شعوب دول مختلفة (الشعب العربي .. الشعب الأوروبي .. الآسيوي .. الإفريقي .. المغاربي ... الخ) و تارة يأتي بصيغة دينية (الشعوب الاسلامية .. الهندوسية .. الشعب اليهودي .. الخ) . و تارة أخرى بصيغة الرابطة اللغوية (الشعوب الفرانكوفونية .. الشعوب اللاتينية ... الخ) . و في أخرى ، يتخذ (الشعب) كمفهوم صورة القبيلة أو الجماعة المتجانسة كقبائل (الهون) أو (الجرمان) أو قبائل (العرب) قديماً . و أحياناً تأخذ كلمة (الشعب) الطابع العرقي البحت و مثاله (الأكراد .. الأرمن .. الأفغان ... الخ) . و بالتالي فإنه لا يمكن تحديد مفهوم (الشعب) بصيغة واحدة محددة و نَظْمَه بضابط اصطلاحي ثابت .

على أنه و بنظرنا ، فإن الصفة الغالبة للشعب ، هي الجماعة المتجانسة في كل شيء .. من العرق و اللغة و الدين و العادات الاجتماعية و القوانين الناظمة الخاصة في توصيف هو أقرب ما يكون إلى (القبيلة) ، ما هو مصداق الآية

القرآنية {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ} . و محك القضية هنا ، هو ليس بالتعريف المنطقي الدقيق بقدر ما هو بصيغة و أسلوب الاستخدام السياسي و حتى الديني و الاقتصادي ، و بالتحديد ما ارتبط منه بالخاصية النفعية الاستغلالية الاستبدادية الموصوفة بالتحكم و السيطرة . و بما أن كلمة (الشعب)كمصطلح و مفهوم محدد متبلور ، قد ظهرت في الفترات الزمنية المتأخرة و بالذات في القرون الثلاث الأخيرة ابتداء من الثورة الفرنسية و ما بعد ، فإن الكلام عن مصطلح (الشعب) أو (الشعوب) ، يقع فيها و ذلك باعتبار أن الفترات السابقة لها و التي هي فترات الحكام الآلهة و ملوك الحق الإلهي ، لم يكن هنالك شعوب بالمعنى الحقيقي للكلمة ، بل كان هنالك أتباع و مماليك و أقنان و عبيد و بالتالي فهي فترات مفرغة المضمون مفروغ الكلام عنها .

أما الفترات اللاحقة التي دشنتها الثورة الفرنسية و التي كانت فاتحة عهد سقوط الملكيات المطلقة و تهاويها ، فقد كانت في الوقت عينه فاتحة عهد الجمهوريات حيث الحاكم الذي هو رئيس الجمهورية ، أصبح ينتخب عن طريق الشعب أو الأحزاب أو مجالس النواب و البرلمانات التي تم تشكيلها كأنظمة سياسة و حكم جديدة . و هي في أدنى مستوياتها سمحت فقط بالمَلَكية الدستورية حيث أصبح المَلِك يمتلك نصاباً صورياً للملكية و الحكم فحسب حيث انتقلت السلطات التنفيذية لرئيس الوزراء أو الحكومة بينما آلت السلطات التشريعية للبرلمان أو مجلس النواب أو الشيوخ . ذلك كله اندرج تحت بند فكري واحد اسمه **(الشعب مصدر السلطات)** . و الحقيقة أن (الشعب) كمصطلح قد تعرض لتناول كبير من التنظير و البحث و التأليف . كما أنه قد أُعطيَ جرعة كبيرة من التجسيم و

التضخيم . و دائماً ما كان يتم تصويره و تسويقه إعلامياً و سياسياً و فكرياً على أنه قطعة صماء واحدة متجانسة و في الوقت ذاته ، أُسبِغت عليه أسمى آيات التعظيم و الإيجابية و الفضيلة و الشرعية و الوجودية . و أضحى (الشعب) كمفهوم و مصطلح في نظر الجميع دونما استثناء ، من حكام و سياسيين (حتى الديكتاتوريين) و كُتّاب و مثقفين و مفكرين و فلاسفة و أحزاب و هيئات و منظمات على اختلاف مضاربها و مشاربها ، و إيديولوجيات فكرية ، حتى المتطرفة منها . و حتى جمهور العامة .. أصبح (الشعب) في نظر هؤلاء جميعاً ، المرجع الأوحد و الوحيد ، و هو الحاكم أو الذي يجب أن يَحكُم . و هو فوق الجميع . و الجميع بالنسبة إليه هم تبعية مادية و فكرية و سياسية و سلطوية .. فالكل يعلن انتماءه إليه . و تبعاً لذلك ، أصبح مفهوم (الشعب) هو حالة مقدسة عليا سامية لا يجوز المساس بها تحت أي ظرف ، و هي فوق أي اعتبار و كل شيء في خدمتها .

و لكن و كما ذكرنا آنفاً ، فإنه إذا كان مفهوم و مصطلح (الشعب) غائب تماماً في فترات ما قبل الثورات العالمية الكبرى التي أسقطت الملكيات المطلقة ، فما هو وجوده و اعتباره في فترة ما بعد هذه الثورات التي جاءت لأجل حرية الشعوب و كرامتها . فألغت نظام العبودية و قدمت قوانين حقوق الإنسان ، أفراد و جماعات . و أفرزت فيما بعد ، الهيئات العالمية المختصة بهذا الشأن ، كعصبة الأمم و من بعدها هيئة الأمم ؟؟ و هل برز هنالك فارق ملحوظ و تغير محسوس فيما بين الفترتين ؟؟ و هل ظهر مفهوم (الشعب) بشكله الواضح المعرَّف به ؟؟ و هل (الشعب) هو حقاً كما وصفه هؤلاء القوم و سبّحوا بحمده

و أسبغوا عليه ما لم يسبغوه على أحد ؟؟ أم أنه بقي كما كان عهده في السابق ، و الذي تغير هو فقط الواجهة التي زُينت بإطار تجميلي خارجي ؟؟ .

لقد تميزت القرون الثلاثة الأخيرة في تاريخ البشرية بميزات عدة ..

أولاً .. أمّنت السلطات الحاكمة في الدول المتقدمة القوية ، لشعوبها ، الرخاء و الأمان و حقوق الأفراد كاملة غير منقوصة . لكن خلا تلك الدول و المجتمعات ، عانت الشعوب أبشع أنواع الديكتاتورية و الحرمان و الفقر . و في أحسن الأحوال ، كبت الحريات و التقشف .

ثانياً .. تجلت تلك الفترة بما عُرِفَ بـــ (الاستعمار الحديث) أي احتلال تلكم الدول المتقدمة المتحضرة ، للدول و الشعوب الأخرى المتخلفة أو النامية (في أحسن وصف) ، في مخالف أرجاء العالم و استعمارها و استغلالها اقتصادياً و استنزاف مواردها الطبيعية و البشرية و إبقاؤها تحت نير الفقر و التخلف . و شمل ذلك معظم مناطق العالم و شعوبها . حتى أنه شمل قارات بأكملها (إفريقيا) و دول كبيرة شاسعة الرقعة و المساحة (الصين – استراليا – الهند) و مناطق جنوب غرب آسيا و غيرها . ما يشكك بمبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها .

ثالثاً .. تميزت تلك الفترة بأبشع أنواع الحروب و أكثرها فتكاً و ضراوة و منها حربين عالميتين (الأولى و الثانية) أكلتا الأخضر و اليابس و راح ضحيتهما الملايين من البشر و هو ما لم يحصل ربما في الفترات و العهود القديمة . و لا زالت تلك الحروب بأنواعها .. العسكرية و الأهلية و الدينية و العرقية و الإقليمية ، تستعر

نيرانها إلى الآن و يذهب ضحيتها الكثير الكثير من أفراد الشعب ، ما يشكك بمصداقية و فعالية و حقيقة مفهوم و مصطلح (الشعب) .

رابعاً .. لا زالت معظم شعوب العالم خلا المتقدمة منها ، تعاني الفقر و المجاعة و التخلف والأوبئة و الأمراض الفتاكة و تعاني من الاضطهاد بشتى أنواعه .. الديني و الاجتماعي و الاقتصادي . وبالرغم من كل ما قيل و يقال عن كلمة و مصطلح (الشعب) فإنه قد ثبت من خلال الاطلاع على السيرورة التاريخية و صيرورتها الحالية ، أنها منافية تماماً لكل ما قد قيل عنها و سُجِل لها من فضائل و سلطات و قدرات و سمات . و لا يصح عليها كل ما قد قيل فيها .

إن أول إشكالية اصطلاحية في كلمة (الشعب) تمثل مغالطة منطقية توصيفية لا تنسجم مع أرض الواقع ، هي الكلمة نفسها . فقد اتضح أن كلمة (الشعب) لا تنطبق حالياً ، على معظم الجماعات أو المجتمعات الموجودة في العالم . و ثبت بعد تدقيق و تمحيص طويلين ، أن كلمة (شعب) هي فقط للاستهلاك المحلي و الدعاية السياسية و الدينية و الحزبية و للركوب على الجمهور من عوام و دهماء و الصعود على أكتافهم للوصول إلى السلطة أو مواقع سلطوية . و ثبت أيضاً أن ذلك غالباً ما يحصل في الدول و المجتمعات التي لا توافر فيها خاصية و مقومات كلمة و مفهوم (الشعب) بمعناها الحقيقي . و ثبت أيضاً أن العكس هو صحيح أي أنه في الدول التي تتوافر فيها خاصية و مقومات مصطلح و مفهوم (الشعب) بمعناها الحقيقي ، نادراً ما تتحدث النخب السياسية و الحزبية و الدينية و حتى الفكرية فيها ، عن (الشعب) و تتناوله في خطابها ، بل يكون جل همها ، الحديث عن سياسة الدولة و قضايا المجتمع الاقتصادية و المعيشية و الفكرية و

الاجتماعية . و هذا ما يحصل عادة في الدول المتقدمة المتحضرة ذات الممارسة الديمقراطية العريقة التي اختُصت بها مجتمعاتها و سارت عليها أحزابها السياسية . فمفهوم كلمة (الشعب) لديهم هناك ، هو ليس أداة للاستهلاك المحلي و الشعارات الفارغة الزائفة لأن هذه القضية بالنسبة إليهم قد تم تجاوزها و أصبحت من المسلمات البدهية التي لا تحتاج إلى نقاش و توضيح و إفهام . بينما في الدول الديكتاتورية المتخلفة التي تمارس أبشع أنواع القهر و التسلط و التي ينتفي فيها مفهوم الشعب سياسياً و حتى اصطلاحياً ، هي التي تكون فيها كلمة (الشعب) الأكثر رواجاً و استخداماً ، فيتحول إلى سلعة تجارية و مادة إعلامية دعائية لا ينفك الحديث عنها و لا يفتأ الفم عن تكرارها و تتناقلها الألسن و الشفاه .

إننا نتساءل .. كيف يمكن إطلاق صفة و اسم (الشعب) على جماعات و فرق مخالفة دينياً و مذهبياً و عشائرياً و لغوياً ، كل منها يعدّ نفسه شعب منفرد مستقل بحد ذاته و يميز نفسه اجتماعياً و حتى ثقافياً ، عن الآخر و لا يقبل التعامل و الاندماج معه لا بل أحياناً يكفره و يفسقه و يسعى لمحاربته و حتى تصفيته و إبادته و محوه عن الوجود ؟؟؟!!! كيف يمكن إطلاق صفة و اسم (الشعب) على مجموعات تندلع أو اندلعت أو مهيأ لها كي تندلع فيما بينها .. حروب أهلية فتاكة مدمرة ؟؟؟!!! .

نهاية الأمر يوَصِّف المنطق الثاني (الشعب) من وجهة نظر واقعية بأنه .. هو المجموعة من الأفراد تجانسوا فيما بينهم أم لم يتجانسوا ، و الذين هم يخضعون لقانون معين طوعاً أم كرهاً . أو هم أولئك الذين ينضوون تحت لواء سلطة قاهرة شاؤوا ذلك أم أَبَوه . و لا يُعرف الشعب إلا إذا تُرك لوحده .. الشعب تكوّنه

الطبيعة يكوّنه نظام الأسرة البدائي القديم . و هو ما يوجد الآن في بعض مجتمعات أدغال إفريقية أو الأمازون أو المجتمعات المتحضرة الديمقراطية الواعية و المتملكة لحس المسؤولية الوطنية و الوعي الاجتماعي العام كما في بلدان مثل سويسرا و الدانمارك و غيرها . و خلاف ذلك يصح القول .. إن الصفة الصحيحة الأقرب للشعب ، هي **الجمهور أو العامة أو الدهماء** .

التكيف و البقاء للأصلح

قلنا في محل سابق من هذا الكتاب إن العالم محكوم بمبدأين اثنين أو منطقين اثنين لا ثالث لهما .. **منطق القوة و منطق المصلحة** . و هما منطقين اعتمدهما جميع الحيوانات و الكائنات الحية في البسيطة كلها ، بما فيها الإنسان . و هي مقولة تتماهى بالتوافق مع قوانين الفلك و الفضاء و قوانين الفيزياء و الميكانيكا و قوانين الكيمياء و علوم البيولوجيا .

فعلم الفلك و الفضاء يقرر أن الأجرام السماوية الكبيرة الكتلة و الحجم ، تجذب إليها الأجرام و الكواكب الأصغر حجماً منها و تجعلها تدور في مجالها ضمن مسار محدد لا يمكنها الفكاك منه . و هذه بدورها تؤثر في الأجرام الأصغر منها حجماً و كتلة كالأقمار مثلاً ، و تجعلها تدور حولها في مسار ثابت محدد . ذلك كله يندرج في إطار ما يسمى (عامل الجذب) أو قوى الجذب . فالجرم أو الكوكب الذي لديه قوة جذب أقوى ، يُخضِع الأدنى منه في قوة الجذب ، للسير في فلكه . و الأخير يفعل الشيء ذاته مع الأدنى منه منزلة في قوة الشد و الجذب .

و في علم الفيزياء و الميكانيكا . فإنه من المعروف أيضاً من ضمن مبادئه و أقسامه ما يسمى بـــ (عامل القوة) و القوة المضادة أو المقاوِمة و الممانِعة . و الطرف أو الجسم أو العنصر الذي يمتلك مقداراً أكثر من القوة و شدة أكبر ، يكون حتماً

هو المؤثر في الطرف أو الجسم أو العنصر الآخر و يحركه حسب مسار قوته و اتجاه حاملها . كما أنه معروف أيضاً في علم الفيزياء ، أن الجسم يبدأ بالتأثر في أضعف نقطة فيه . فالحبل أو الخيط على سبيل المثال إذا ما تعرّض لقوة شد أكثر مما ينبغي ، فإنه ينقطع في أضعف نقطة فيه . كذلك اللوح الحجري إذا ما سقط على الأرض و ارتطم بجامد معين ، فإنه ينكسر في النقاط الضعيفة فيه . كذلك هي الرياح و الأمواج ، تحُتُّ الصخور في أضعف مواطنها . كذلك هو الأمر في علم الكيمياء ، حيث إن العنصر الذي له شدة ترابط قوية فيما بين ذراته ، يكون الأكثر قساوة و صلابة و قوة من العنصر الذي له شدة ترابط ضعيفة فيما بين ذراته و يكون الأكثر عرضة للتأثر بعوامل الطبيعة و الحرارة و الضغط .

و في علم الأحياء و البيولوجيا ، فإن جسم الكائن الحي .. الإنسان مثلاً .. إذا ما تعرّض لعارض ، يصيبه السقم في أضعف أعضاء جسمه و أكثرها حساسية .

و بدوره .. ينسحب كل ما قد قيل ، على الطبيعة أيضاً . الطبيعة التي تفرض شروطها الخاصة بها من مناخ و تضاريس و جغرافية و تقلبات مفاجئة على الكائنات الحية الموجودة فيها . و هو ما ينتج عنه عمليات اصطفاء و غربلة ذاتية . فالحيوان أو الكائن الذي يستطيع الصمود و مواجهة شروط الطبيعة القاسية الصارمة من حرارة أو برد شديدين ، بسبب قوة بنيته و صلابة جسمه و قدرته على التحمل ، هو الذي يبقى على قيد الحياة . أما أقرانه الذين هم أوهى منه بنية و أضعف أركاناً ، فإنهم محكوم عليهم بالموت و الفناء .

كذلك يقع الأمر على ما يسمى بـــ (العدو الحيوي) أو العدو المفترس و الذي هو ضمن ما يسمى بـــ (قانون الغاب) أو (شريعة الغاب) الذي هو بدوره من

ضمن قانون الطبيعة نفسها . ففي مبدأ قانون الغاب هذا أو شريعة الغاب تلك ، يكون الحيوان أو الكائن الفريسة الذي يمتلك إمكانيات التخفي و الاختباء و التمويه ، هو الأوفر حظاً من غيره بالنجاة من أعدائه الحيويين المفترِسين و البقاء على قيد الحياة ، فهو الأصلح للبقاء حياً . كذلك الحيوان الذي له قدرات جسمانية و بدنية كالسرعة الزائدة التي تجعل خصمه المفترِس يعجز عن اللحاق به مثلاً ، أو سمعه المرهف الذي يجعله يسمع صوت خصمه من مسافة بعيدة فيسارع إلى الهرب و بالتالي يترك مسافة أمان بينه و بين عدوه الحيوي المفترس و يحافظ عليها . أو البصر الحاد الذي يجعله يبصر عدوه المفترس قبل أن يراه ذلك العدو ، و تالياً يسارع إلى الابتعاد عنه تاركاً مسافة أمان فيما بينهما ، هو بدوره أيضاً الأصلح للبقاء و الوجود على هذه الأرض و التكاثر فيها و من ثم .. الاستمرار . اما غيره الذي لا يمتلك الميزات الفيزيولوجية البدنية إياها و غيرها ، فهو حتماً معترّض للهلاك افتراساً .

هذه القضية تتماهى في مضمونها و حيثياتها مع ما يسمى بـــ (نظرية التطور و الارتقاء) و هي النظرية التي تقول أن هنالك بعض الكائنات الحية قد غيرت مع مرور الوقت من بعض خواصها الفيزيولوجية و البدنية لكي تستطيع الاستمرار مع تغيرات الطبيعة و المناخ الطارئة على كوكب الأرض خلال الآلاف السنين و بالتالي تكون صالحة للاستمرار و التواجد ضمن المتغيرات البيئية المستجدة و ذلك ما يسمى بـــ (التكيّف) الذي يعني القدرة على التغيير البدني الفيزيولوجي .بما يتناسب مع التغيير البيئي . و تالياً .. فإن الكائن القادر على التكيّف هو الكائن الأصلح منطقياً للبقاء و الاستمرارية .

إذن .. و مما سبق ، تتضح لنا أن هنالك علاقة جدلية منطقية توافقية فيما بين مفهوم (التكيّف) و (البقاء للأصلح) و هذا يعني أن الكائن الحي حتى يضمن البقاء و الاستمرار على كوكب الأرض ، عليه إما التمتع بميزات جسدية فيزيولوجية تضمن له البقاء و الاستمرار ، أو التكيّف الفيزيولوجي العضوي الذي يجعله يساير التغير الحاصل ، أو عليه الفناء و الانقراض من الحياة و إخلاء المكان لمن هو أصلح للبقاء .

إن مفهوم (البقاء للأصلح) هو مفهوم قانوني طبيعي ثابت لا مجال للتغيير فيه أو الالتفات عليه و هو مفهوم لا تدخل فيه أعراف الرحمة و لا الشفقة . و ما مفهوم (التكيّف) إلا نوع من أنواع الخضوع و التبعية لمفهوم (البقاء للأصلح) و هو المنفذ الوحيد المسموح به . و البقاء للأصلح و (التكيف) كمفهوم و مصطلح هو بحيثياته و سيرورته التاريخية ، قد أصبح معيار افتراضي أو منطق افتراضي .

هنا .. في السياق هذا ، يبرز سوآل ملحاح لا يمكن تجاهله و هو .. ما وضع الإنسان ككائن حي في كل من مفهوم (التكيف) و (البقاء للأصلح) ؟؟ و هل يصح عليه ما يصح على الحيوان الخاضع لهذين المفهومين بالمطلق ؟؟ ..

في الواقع و إنه من خلال النظر إلى هذا الموضوع بتمعن و تدبير ، يتضح لنا أن موضع الإنسان ككائن حي ، هو موضع الأمر بين أمرين ، فهو ينطبق في موضع و يختلف في آخر . و موضع الاختلاف بالمصطلح و المفهوم يرتبط حصراً بموضع الاختلاف فيما بين الإنسان و الحيوان و هو هنا .. **العقل** . و عندما نقول العقل فإن ذلك يتعلق بالارتباط بالمفاهيم الفكرية المختصة بالعقل حصراً ، كالأديان و القوانين الوضعية و الأعراف التي يضعها الإنسان و يصنعها لنفسه اكتساباً من

الوسط الخارجي و ما يتعلق بالحوادث و الوقائع و التطورات الخارجية الطارئة . و ذلك خلاف الحيوان الذي ليس له دين شرائعي كما هو حال الإنسان ، و لديه فقط قوانين داخلية غريزية ثابتة منذ ملايين السنين ، يطبقها على نفسه و على أقرانه من بني جنسه . و عامل (الأمر بين أمرين) يقع هنا حصراً في هذه النقطة بالذات ، نقطة الأديان و القوانين .

إن الأديان و بخصوصها السماوية ، بالإضافة إلى القوانين الوضعية و بالذات تلك التي تسنها الدولة من خلال المشرِّع العام واضع الدستور و بعض الأعراف الاجتماعية الإنسانية و بالذات تلك التي جاءت في القرون الأواخر ، قد جاءت في أساسها و لب أهدافها إلى استئصال شريعة الغاب و قانونها من نفوس البشر . على أنه كان أكثر من شدد النكير على ذلك ، هي الأديان السماوية التي ركزت على أمرين اثنين بعد عبادة الإله الواحد الخالق و هما .. الأخلاق و رفع الظلم . و القارئ المطّلع على القرآن الكريم ، لَيخلص إلى نتيجة مؤداها .. **إن القرآن الكريم لم يأتِ لمحاربة الكفر بقدر ما أتى لمحاربة الظلم** . و كثيرة هي الآيات التي تناولت قضية الظلم و منها على سبيل المثال لا الحصر ..

{ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ } [البقرة : ١٢٤]

{ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ } [آل عمران : ٥٧]

{ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [آل عمران : ٨٦]

{ بِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ } [آل عمران : ١٥١]

{ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام : ٢١]

{ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ } [الأنعام : ٤٧] .

{ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة : ١٩٠]

كما جاءت آيات قرآنية أخرى تطالب بإفشاء الخير و فعله و الإحسان و المساعدة الإنسانية و منها مثلاً ..

{ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ } [آل عمران : ٩٢]

{ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ } [الرعد : ٢٢]

{ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ } [البقرة : ٢٧١]

{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } [المائدة : ٢] .

{ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ } [النور : ٢٢]

{ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ } [البقرة : ١٠٩]

{ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ } [البقرة : ٢١٩]

{ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [التغابن : ١٤]

{ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : ٢٨٠]

{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠]

وفي التوراة .. جاء أيضاً ما يفيد بهذا الخصوص ، و من ذلك ..

[لا تقتل * و لا تزن * و لا تسرق * و لا تشهد على قريبك شهادة زور * و لا تشته امرأة قريبك و لا تشته بيت قريبك و لا حقله و لا عبده و لا امته و لا ثوره و لا حماره و لا كل ما لقريبك] (سفر التثنية – الاصحاح ٥) .

[لذلك هكذا يقول قدوس اسرائيل لأنكم رفضتم هذا القول و توكلتم على الظلم و الاعوجاج و استندتم عليهما] (إشعيا – الإصحاح ١٣) .

[لانهم لا ينامون ان لم يفعلوا سوءا و ينزع نومهم ان لم يسقطوا احدا * لانهم يطعمون خبز الشر و يشربون خمر الظلم] (الأمثال – الإصحاح ٤) .

و في الإنجيل ورد أيضاً الشيء ذاته ..

[اقول لكم لا اعرفكم من اين انتم تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم] (لوقا – الاصحاح ١٣) .

على أن الأديان و إن جاءت لإزالة شريعة الغاب و ناقضتها بالمطلق ، فإنها لم تتعامل بالمِثل ذاته مع مفهوم (البقاء للأصلح) لا بل إنها اعترفت بهذا المبدأ و أقرت به من حيث الوجود ، و راعت حيثياته . فمن حيث محاربتها للظلم و طلبها للعدل ، فإنها اعتمدت أيضاً معيار المفاضلة و التمييز بين ما هو الأفضل و ما هو الأسوأ ، و اعتماد الأفضل و ترجيحه على الأسوأ . و الآيات القرآنية التي تدل على ذلك الشيء ، كثيرة و منها مثلاً لا حصراً ..

{ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ } [القصص : ٢٦]

{ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ } [الأنعام : ٥٠]

{ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ } [النحل : ٧٦]

{ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ } [الزمر : ٩]

{ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الرعد : ٤]

{ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [العنكبوت : ٣٥]

{ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [الروم : ٢٨]

{ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ } [الرعد : ١٩]

{ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } [الأعراف : ١٩٩]

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ } [النحل : ٣٧]

{ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ } [الإسراء : ٢١] ▪

{ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً } [النساء : ٩٥] ▪

{ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء : ٥٩] ▪

{ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ } [الواقعة : ٧٣]

{ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ } [البقرة : ٩٣]

و في الإنجيل جاء ..

[كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع و تلقى في النار] (متى – الإصحاح ٧) .

من منطوق ما سبق ، يُلاحظ أن الأديان قد راعت مبدأ (البقاء للأصلح) بأمرين اثنين هما .. العقل و العمل . أو بوجه قياس آخر .. الذكاء و الخير .. الفطنة و الفائدة .. العلم و المنفعة . فيثبت هنا أن الشخص الأصلح هو الشخص الأذكى و الأعلم و الأقوى و الأقدر و الأكثر نفعاً و خيراً . أما الشخص الذي لا يمتلك هذه المؤهلات أو يمتلك نقيضها ، فهو الشخص الذي لا وجود له اعتبارياً و يُفترَض أن يحاسب على أعماله بشكل أو بآخر ، فهو شخص لا يستحق الرحمة و لا الشفقة و بالذات إذا كان امرؤ سوء و جهالة ، لا خير فيه و لا نفع و لا يتأتّى منه إلا الشر و لا يرتدع عن أعماله تلك و لا يتوب . على مبدأ قصة أحد الملوك و سوآله وزيره عن الناس قائلاً .. ما خير ما يُرزَق به المرء ؟؟ قال الوزير : عقل يعيش به .. فقال الملك : و إن عَدِمه ؟؟ أجاب الوزير بعد تفكّر : فمال يستره .. سأل الملك : فإن عَدِمه ؟؟ قال الوزير : فأدب يتحلى به . فعاود الملك السوآل : فإن عَدِمه ؟؟؟ فكر الوزير مرة أخرى و طال تفكيره بعض الوقت ثم نظر إلى الملك و قال بهدوء : فصاعقة تحرقه و تريح العباد منه . (انتهى) .

لكن و بالرغم من ذلك كله ، فإن الأديان قد أعطت فرصة للإصلاح و التغيير و من مثال ذلك الآيتين التاليتين ..

{ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ } [الأنعام : ٥٤]

{ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ } [الرعد : ١١] .

و هذه دلالة واضحة قوية على مبدأ (التكيّف) فالتكيّف هو نوع من أنواع الإصلاح و التغيير الذي هما بدورهما نوع من أنواع التكيّف ، فالتوبة و الرجوع عن الخطأ و عدوله إلى السواء الصواب ، هو نوع من التكيف. و بالتدقيق في معنى و مضمون الآيتين السابقتين و عبارة الإنجيل السابقة عن الحض على قلع الشجرة التي لا تثمر ، يتضح لنا أن الفرد أو الجماعة التي لا تعتمد مبدأ التغيير و الإصلاح ، فإن المصير هو الفناء أو الزوال ، وبأحسن الأحوال .. الخضوع و التبعية للغير .

من هنا ، فإن المنطق الثاني يقول .. إن البقاء للأصلح ، هو حالة طبيعية شرعية استوجبتها قوانين الطبيعة و استشرعتها الأديان السماوية . فطبقتها قوانين الطبيعة على الحيوان بموجب ما عُرف بـــ (شريعة الغاب) و هو القانون الذي أمّن التوازن الطبيعي فيما بين الحيوانات و ما يسمى بالدورة الحياتية للكائنات على الأرض . و لم يدخل في ذلك أية اعتبارات أخلاقية تتعلق بالرحمة و الشفقة أو العدل ، بل كل ما هنالك هو طبيعة غرائزية ضابطة و ناظمة لعملية التصيّد و الافتراس بحيث تمنع الطغيان و القتل دونما مبرر أو سبب موجب . فكان البقاء للأصلح ، هو بالمطلق ، و التكيف هو شرط لازب لا بد من وجوده لدوام استمرارية الكائن الحي و ضمان أمنه من خطر العدو المفترس .

أما الأديان السماوية التي بدورها شرعنت هذا المبدأ ، فقد اختصت به الإنسان و استثنت الحيوان مع إبقائها على شرط عدم التعسف و اللامبرر للقتل و إلحاق الأذى بالنسبة للحيوان و الإنسان معاً ، و إضافة شرط انتفاء الظلم و الجور بالنسبة للإنسان . و ما خلا ذلك فالأصلح للشيء هو الأولى بالقيام به و الأولى

أن يؤتى و يُطلب لأجل ذلك .. لا حياء و لا حرج { أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ } [النساء : ٥٩] .

لقد ثبت عبر السيرورة التاريخية و صيرورتها الحالية ، أن مفهوم (البقاء للأصلح) هو المفهوم الشامل المعتمَد عبر التاريخ على مستوى الأفراد و حتى على مستوى الجماعات و الأمم و الدول . كذلك هو مفهوم (التكيّف) الذي ثبت أيضاً أنه هو المفهوم المعتمد تاريخياً و أنتروبولوجياً و دينياً لا بل و حتى علمياً و لا بديل عنه و لا حل آخر . و ها هو تاريخ الإنسان من بداية وجوده و إلى الآن . فهو قد بقي على هذه الأرض و ساد فيها ، بناء على هذين المبدأين حصراً و إلا .. لو لم يكن هو الأصلح للبقاء و السيادة في الأرض ، لكان قد انقرض و زال مثله كمثل غيره من الكائنات التي انقرضت من الأرض و بادت .

البيئة الجغرافية هي الحاضن الأم للبيئة الاجتماعية التي هي التجلي الظاهري للمجتمع . و كنا فيما سبق قد قلنا إن الإنسان و حتى الكائن الحي ، هو ابن بيئته الاجتماعية و الجغرافية . و من هاتين البيئتين ، تتكون و تنبثق و تولد كل أشكال الفكر و العادات و التقاليد و الأعراف و الثقافات . و أحياناً العقائد الدينية .

و حسب ما يتضح من المنظورين التاريخي و الأنثروبولوجي ، فإن حوامل الفكر و الثقافة و الأعراف ، لمجتمع من المجتمعات ، تترابط ارتباطاً حصرياً بالحامل البيئي لذلك المجتمع أو تلك الجماعة . و عندما نقول البيئي فإن ما نعنيه من ذلك هو **الجغرافي – الاجتماعي** . و هذه العناصر الفكرية و البيئية ، جميعها قد انصهرت في بوتقة حامل واحد ضمن مسار ثابت و دورة متكاملة . فشكلت بذلك جلموداً صلداً ليس من السهولة بمكان ، كسره أو تغييره أو تعديل مساره و تموضعه .. حتى الأديان و العقائد الدينية ، هي في نهاية أمرها منتج من نتاج تلك البيئة . أما السماوية منها أو الوضعية الوافدة على البيئة ، فقد تبين بالثبت التاريخي أنها خاضعة نهاية أمرها للقولبة و إعادة التصنيع ، حسب البيئة الوجهة أو الهدف ، حتى و لو كانت تلك الديانات غازية محتلة أو وافدة بالقوة الإجبارية .

إذن .. فالبيئة و الفكر هما صنوان يشكلان عروة لا انفصام لها ، و جدلية اصطلاحية ثنائية تبادلية شبه متطابقة بين طرفيها . بمعنى أن أحدهما هو وجه للآخر و صورة عنه و له . أي أن العامل الفكري الثقافي و العقائدي ، هو صورة للبيئة الاجتماعية الجغرافية و العكس صحيح أيضاً . و تبعاً لما سبق ، فإن الإنسان على مستوى الفرد أو الجماعة و حتى المجتمع ، يشعر بانتمائه الفكري من خلال انتمائه البيئي . و يشعر بانتمائه البيئي من خلال انتمائه الفكري الثقافي . و بالتالي فهو يدافع عن فكره و ثقافته و عقيدته و انتماءه إليها جميعاً كما يدافع عن موطنه و بيئته و انتماءه إليهما . و هذه القضية تتبدى لنا بشكل جلي واضح إذا ما راجعنا الوقائع و الأحداث التاريخية ، فيثبت لنا أنه منذ الفترات الزمنية القديمة و اللاحقة لها و إلى الآن ، كان الإنسان يدافع بشراسة عن عقائده و ثقافته و فكره و تقاليده كما يدافع عن أرضه و يقاتل لأجلها . و إذا أُجبِر على عقائد و أفكار وافدة جديدة ، فإنه سرعان ما يتحين الفرص السانحة للانقضاض عليها و العودة إلى عقائده السابقة ذات البيئة خاصته . و إذا لم يستطع ذلك فإنه يحاول بشتى السبل تحوير العقائد و الثقافة الجديدة الوافدة عليه قسراً ، و تطويعها بما يتلاءم إما مع عقائده و ثقافته السابقة و إما مع البيئة الاجتماعية التي نشأ عليها و جرت في عقليته مجرى الدم في العروق .

كذلك الأمر فإن هذا الإنسان نفسه إذا تحول إلى وضعية الهجوم و المبادرة للسيطرة على الغير ، فرداً كان أم مجتمعاً أم دولة ، فإنه يحاول فرض عقائده و ثقافاته و تقاليده في تلك البيئة الجديدة التي احتلها ، و يلقى في الوقت ذاته المقاومة العنيدة الشرسة و الفِعال ذاتها من الطرف الآخر .

في الواقع .. إن معظم الحروب و الغزوات الخارجية منها و الداخلية ، و حتى الحروب الأهلية ، سواء فيما بين تلك الممالك و الإمبراطوريات أو داخل مجتمعاتها نفسها ، كانت غالباً ما ترتبط بالصراع الفكري العقائدي ، بدءاً من الصراع في فترة الحضارات القديمة الأولى في بلاد ما بين النهرين و مصر ، حيث كان الطرف الغالب يفرض عقائدله و ينشرها في مجتمعات الشعوب المغلوبة أو المدن المفتوحة ، فتتبدل العبادة و العقيدة و الدين ، من آلهة المدينة أو المملكة المغلوبة المنكوبة إلى آلهة الطرف الغازي المحتل . و كثيراً ما تبدلت آلهة و معابد نتيجة الحروب و الغزوات في تلكم الحضارات القديمة . و فضلاً عن ذلك ، كان الطرف الغالب المنتصر يعمد إلى محو جميع أو معظم آثار و منقوشات الطرف المغلوب و يزيلها من على الحجارة و الألواح . و ما حروب الاسكندر المقدوني و فتوحاته التي اشتملت على مناطق شاسعة من العالم إلا نوع من أنواع التدخل الفكري الثقافي العقائدي المقصود و المخطط بل و حتى المنهج . فقد شهدت فتوحات الاسكندر المقدوني أكبر و أضخم و أوسع عملية تلاقح فكري ثقافي و عقائدي شهدته البشرية ، فكان كل بلد و كل إقليم يتم فتحه من تلك الإمبراطورية الشاسعة ، ترافقه عملية تمازج فكري حضاري على المستويات كافة .. الاجتماعية منها و العقائدية و الدينية و حتى العلمية الأدبية ، و كل ما يتبع للفكر من لون و مشرب . و بالطبع لاقت عملية التلاقح و التمازج الفكري تلك ، مقاومة شرسة من بعض الأماكن و بالذات تلك صاحبة الحضارة العريقة كبلاد فارس . كما لاقت مقاومة و معارضة من بعض الإغريق أنفسهم كونهم اعتبروا أن العِرق أو الجنس اليوناني هي أرقى المستويات البشرية . فبعض ضباط الاسكندر و جنوده ،

عبّروا عن سخطهم من عملية الاختلاط و التزاوج فيما بين الإغريق و بقية الشعوب الأخرى و مزج ثقافاتهم بعضها ببعض .

هنالك أيضاً من قَبِلَ على مضض لا بل و رحب ظاهرياً بالثقافة و الاحتلال الإغريقي ، كالمصريين الذين لم يكتفوا فقط بالترحيب بالإسكندر بل نصبوه إلهاً . لكن ما أن انحسر الاحتلال اليوناني حتى عادوا سيرتهم الأولى في العقائد و الثقافة و التقاليد .

لقد انسحبت قضية الاختلاط و التمازج الفكري الثقافي العقائدي فيما بين الوافد و القديم .. انسحبت على سيرورة التاريخ البشري ككل . و كانت سيماها الأساس هي الغلبة و القهر و الإكراه ، و كانت جدلية آليتها تقوم على ثنائية الإيجاب والسلب .. الفرض و الممانعة .. القوة و المقاومة . و في النذر اليسير ، يتم تغيير و تبديل القديم المقيم بالجديد الوافد ، بالآلية التلقائية الافتراضية ، و هي حالة استمرت تقريباً حتى الأواخر من القرون حيث بدأت بالانحسار تدريجياً مع بداية الثورات العالمية الكبرى التي قلبت موازين القوى و السلطات و غيرت مفاهيم أنظمة الحكم و المجتمع و الدولة ، كالثورة الفرنسية . و تزايدت حدة الانحسار و الانكماش لهذه الظاهرة مع بداية ظهور المواثيق العالمية لحقوق الإنسان و حقوق الفكر و العقيدة و الدين و غير ذلك ، و ظهور المنظمات و المؤسسات الدولية المواكبة لهذا الحدث حتى أضحت شبه معدومة .

في واقع الأمر .. لقد أشارت الأديان إلى هذه القضية و عبرت عنها في مضامين كتبها ، لكنها اعتبرت أن التعصب لها و التمسك بها بالمطلق ، حالة مذمومة . فأنكرت على فاعلها فعلته .. جاء في القرآن الكريم ..

{ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } [البقرة : ١٧٠] .

و في التوراة ..

[من أجل أن آباءكم قد تركوني يقول الرب و ذهبوا وراء آلهة اخرى و عبدوها و سجدوا لها و إياي تركوا و شريعتي لم يحفظوها * و أنتم أسأتم في عملكم أكثر من آبائكم و ها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى لا تسمعوا لي] (سفر إرميا – الإصحاح ١٦) .

و في الإنجيل جاء ..

[كل من ترك بيوتاً أو أخوة أو اخوات أو أباً أو أماً أو امرأة أو أولاداً أو حقولاً من أجل أسمي يأخذ مئة ضعف و يرث الحياة الابدية * و لكن كثيرون أولون يكونون آخرين و آخرون أولين] (متى – الإصحاح ١٩) .

كما أنها ركزت على الوقت الحاضر و اعتبرته حالة واقعية منقطعة منطقياً عن الماضي

{ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ } [البقرة : ١٣٤] .

كان لا بد و الحالة هذه .. حالة انقلاب المفاهيم السلطوية و التغيرات الجذرية في المفاهيم الإنسانية و العقائدية ، كان لا بد من أن يتغير مفهوم الجدلية الثنائية القائمة على ارتباط الأفكار و العقائد و الثقافات الغربية الوافدة بمبدأ القوة و القهر و الإجبار و رد الفعل المضاد الصادّ لها المقاوم لتأثيرها و آثارها . فهو و إن انحسر و انكمش إلى أقصى الحدود و تراجع حتى أدنى مستوياته حتى لم يعد له وجود يُذكر ، فإنه و على ما يبدو ، قد استُبدِلَ بجدلية ثنائية أخرى مختلفة عنها من

حيث المضمون و المتن ، شبيهة بها من حيث المبدأ ألا و هي ثنائية **(التبشير – الغزو الفكري أو الثقافي) .**

قد يبدو من الوهلة الأولى للقارئ ، أن طرفي الثنائية هذه ، هما متشابهان و لهما المبدأ ذاته . لكنهما و إن كانا كذلك ظاهرياً ، فإن وجه الاختلاف بينهما هو في الأطراف المتناقضة التي تبنت كل منهما . و هذه الأطراف هي نفسها التي كانت في السابق الطرف القوي المحتل صاحب و جالب الفكر و الثقافة و العقائد الجديدة الوافدة . و الطرف الآخر المضاد لها بكل ما أوتي من قوة و أدوات . أما اليوم ، فقد غير كل طرف من أساليبه في استخدام المفهوم و حتى في تسمية المفهوم ذاته . فأصبحت الثقافة و العقيدة و الأفكار الوافدة تتم بشكل انسيابي سلمي ، لكن بأدوات و مؤثرات قوية (وسائل إعلام – وسائط تكنولوجية رقمية متقدمة – مغريات مادية ... الخ) . كما أُطلِقَ على هذه العملية اسم (التبشير) على اختلاف أنواعه (دينياً كان أم سياسياً) و وسائله و الوسائط المستخدمة لأجل ذلك . أما الطرف الآخر المضاد و الذي عادة ما يكون هو الأضعف ، فإنه يطلق على ما يقوم به الطرف الأقوى تسمية (الغزو الفكر و الثقافي) .

لقد تحول مبدأ و منطق (الغزو الفكري الثقافي) اليوم إلى شعار براق طنان رنان يُستَخدَم في كل مناسبة و حدث . و كثيراً ما يتردد على ألسنة النقاد و الباحثين و رجال الدين و في الصحف و المؤلفات و القنوات التلفزيونية . و يُستَخدَم دائماً من المنطوق السلبي البحت . و في معظم الأحيان يُستَخدَم كدلالة على رفض كل فكر و كل ثقافة خارج البيئة المحلية ، أياً يكن هذا الفكر أو تلك الثقافة ، و بغض

النظر عن إيجابياتها و أثرها في التقدم العلمي و الاجتماعي و الحضاري . تتم الدعوة لمحاربة هذا (الغزو الفكري) أو (الغزو الثقافي) بالدعوة إلى الانكماش على ما هو موجود بالمجتمع و العض عليه بالنواجذ ، بالرغم مما قد يكون فيه من سلبيات و عوامل تخلف و فقر و ضعف و شرذمة و انقسام .

على أننا في مبحثنا هذا ، لا نبرأ الفكر الخارجي الوافد و الدخيل من السلبيات . و لا الفكر الداخلي المقيم ، من الإيجابيات بل الغاية الأساس تناول منطق (الغزو الفكري الثقافي) بهمومه و حيثياته .

لقد كانت موجبات مقاومة الغزو الفكري الثقافي في الماضي ، إسقاط حامله على حامل القوة العسكرية الغاشمة المرتبطة في غالب الأحيان بالاحتلال العسكري الذي هو كحالة مادية و معيار افتراضي طبعي مرفوض من قِبَل كل الجماعات البشرية . فأي إنسان مهما كان وضعه الاجتماعي ، أكان فرداً أم ضمن جماعة أو قبيلة أم ضمن مجتمع و دولة ، لا يقبل أن يكون عرضة للاحتلال من قبل الغير ، تحت أي ظرف كان . و لم يقتصر هذا الأمر على الجماعات البشرية فقط بل تعداه إلى معاشر الحيوان أيضاً التي لا يقبل أي منها أن يكون جحره أو موطنه عرضة لمحتل غريب . حتى النباتات في بعض فصائلها تفعل ذلك . فالقضية بكل بساطة هي النظر للثقافة و الفكر الأجنبيين الوافدين كمتلازمتين مع المحتل الأجنبي الغريب الغاشم الذي احتل الأرض و أحرق المدن و دمر البنيان ، بغض النظر عن صحة تلكم العقائد و الأفكار و الثقافات و مدى مصداقيتها و إيجابياتها .

و مهما يكن ، فإن هذه النظرة إلى الفكر الأجنبي الوافد ، تحمل في طياتها مبرراتها المنطقية .

أما في الوقت الراهن حيث انتفى الاستعمار و الغزوات و الاحتلال ، و حيث أصبحت العقائد و الأديان في موضع الحجم و الامتداد النهائي ، و حيث قد علم كل أناس مشربهم و كلٌّ مقتنع بما عنده من عقائد و أديان لا يرى عنها لغيرها بديلاً و لا ملتحداً . و حتى التبشير الديني الذي نشط في الاثنين من القرون الأواخر مترافقاً بشكل سلمي مع الاستعمار الحديث و معتمداً على الوضع الاقتصادي المعيشي الصعب لسكان المستعمرات . هذا التبشير الديني ، انحسر أيضاً بانحسار ظاهرة الاستعمار الحديث و بظهور مواثيق الحقوق العالمية التي ضمنت للأفراد حرية معتقداتهم الدينية و السياسية و عدم إكراههم على غيرها . و بالتالي لم يعد هنالك من عمليات للتبشير الديني إلا في حالات ناشزة ضئيلة لا تكاد تذكر . و اقتصر التبشير الديني اليوم فقط على مبدأ العرض و الدعاية ، بمعنى أن تلك الجهة أو الفرقة الدينية كما السياسية ، تعرض عقيدتها و كتبها و فقهها و تراثها للعموم من الغرباء ، فمن شاء أن يدخل دخل و من شاء ألا يفعل ذلك فَعل لا أحد يجبره على ذلك .

و السوآل الذي يطرح نفسه بقوة هنا ، هو .. طالما أن مبدأ فرض العقائد و الأفكار و الثقافات القهري الإجباري بقوة السلاح ، قد انتفى منذ زمن ، و طالما أن التبشير العقائدي الديني المتكئ على العوز و الفقر المادي و الجهل الطبعي ، قد انحسر بدوره أيضاً ، فماذا يبقى من مفهوم الغزو الفكري الثقافي ؟؟!! و لماذا يتم اليوم التحذير منه مراراً و تكراراً و اعتباره خطراً كبيراً و غولاً ضخماً يبتلع الأفراد و الجماعات و يكتسح عقولهم ؟؟!! و لماذا يتم اعتباره سلبية مطلقة و سيئة فعّالة مستدامة ؟؟!! و بناء على ماذا تم اعتماد مفهوم و فكرة الغزو الفكري الثقافي ، مادة للقيل و القال ؟؟!! .

إن مفهوم (الغزو الفكري الثقافي) و حسب المنطق الثاني ، هو مصطلح تم اختلاقه من قِبَل الطرف الأضعف في لعبة الثقافة و الفكر و العلم .. الطرف الأضعف في لعبة الحضارة و السياسة . و الغاية منه هي منع أي تواصل فكري حضاري فيما بين الشعوب و المجتمعات . و السبب فيما يمكن أن يتضح من ذلك هو اجتماعي سياسي و ليس بالضرورة أن يكون ديني كما يتوهم البعض و يقبل تسويق هذه الفكرة . أما الجذور التي تعود إليها المظاهر الاجتماعية و السياسية ، فهي المنافع المجردة البحتة المتمثلة بالسلطة و القيادة و المال ، حيث إنه من الممكن في المجتمعات المتخلفة الرازحة تحت نير ديكتاتورية سياسية أو اقتصادية (نظام الإقطاع) أو اجتماعية (قبيلة – عشيرة ... الخ) أو حتى دينية (طائفة – مذهب) و التي تتعرض إلى ما يسمى بـــ (الغزو الفكري الثقافي) ، من الممكن أن يؤدي ذلك إلى حدوث التمرد على الواقع السلطوي الاجتماعي أو السياسي . و دائماً ما تتولد لدى الملأ الاجتماعي (الديني – العشائري – القبلي .. الخ) الخشية من التمرد على نظام القبيلة أو العشيرة أو النظام المالي الاقتصادي أو السلطوي الديني و ليس العقائدي الفقهي نتيجة الاطلاع على الثقافات و الأفكار الأخرى . كذلك المجتمعات ذات سِمَتيّ التخلف و الظلم الاجتماعي ، تحظر على أفرادها الاطلاع على ثقافات الغير و أفكاره ، و بالأخص ثقافة الأمم المتحضرة المتقدمة ، و تعد ذلك نوع من أنواع الغزو الثقافي .

أيضاً الديكتاتوريات السياسية في البلدان المتخلفة أو ذوات الأنظمة الشمولية الفردية أو المركزية ، تحذو الحذو ذاته في منع أفرادها و رعاياها و الخاضعين لسلطانها ، من الاطلاع على ثقافات و أفكار المجتمعات الأخرى و خصوصاً منها تلك التي تطبق الديمقراطية و أنظمة التعددية السياسية و حرية الفكر و الرأي و

التمذهب السياسيين . و السبب في ذلك أنها تعد هذه الأنظمة و أفكارها و ثقافاتها ، خطراً شديداً عليها هي بالذات و على نظام حكمها الديكتاتوري التسلطي الشمولي الفردي ، أكثر من أن يكون خطراً على شعوبها و مجتمعاتها . وخير مثال على ذلك هو الحكم الشيوعي في زمن ما عُرف بـــ (الاتحاد السوفييتي) و كيف تم إنشاء ستار حديدي مَنَعَ المواطنين هناك من مجرد معرفة ما يدور خارج حدود هذا الاتحاد . علماً أن الاتحاد السوفييتي كان دولة قوية متقدمة و قطباً أعظماً في السياسة العالمية ، فما بالنا بالدول الديكتاتورية المتخلفة ؟؟!! .

و عطفاً على ما سبق ، فإنه غالباً ما تعتمد هذه الأنظمة و النخب الاجتماعية و السياسية ، إلى معاقبة كل من تُسوِّل له نفسه الاطلاع على ثقافة و فكر الأغيار ، وبالذات منهم .. المخالفين . و تندرج العقوبات ، من الاعتبارية كالتسفيه أو الرمي بالكفر و الهرطقة أو التخوين و المقاطعة وصولاً إلى المادية منها ، كالاعتداء الجسدي أو السجن أو التضييق المادي ، و أحياناً تصل إلى حد الاغتيال و التصفية الجسدية .

إذن .. فمفهوم (الغزو الفكري الثقافي) هو عند هؤلاء الرهط الملأ ، لا يقتصر فقط على مبادرة الغريب بأفكاره و ثقافاته ، بل تعدى ذلك إلى مبادرة المقِيْم إلى الاطلاع على فكر و ثقافة الغير من الخارج ، و اعتبار عمله هذا نوع من أنواع الغزو الثقافي . و ما الهجوم في السابق و اليوم على رواد النهضة العربية و أعلامها في القرنين الماضيين ، من بعض الجهات الدينية و السياسية و من يرتبط بها ، إلا أكبر دليل و شاهد على ذلك .

إن الإشكالية و الخلل اللذان يعتريان مصداقية و صحة مفهوم (الغزو الفكري الثقافي) في وقتنا الراهن يتجليان في أمور عدة هي ..

الأول .. حق أي إنسان أو جهة أو منظمة أو فرقة دينية أو حزب أو دولة ، في أن ينشر أفكاره و آرائه و ثقافته و أيديولوجيته على اختلاف أنواعها ومشاربها ، و أن يتحدث عنها بشكل سلمي دونما أي إكراه أو ضغط .

الثاني .. إن عملية و آلية نشر الفكر و الثقافة و العقيدة أو الإيديولوجية لكل طرف مما ذكر آنفاً ، هي بعمومها موضعية ثابتة و إعلامية بحتة ، بمعنى أن كل طرف من هذه الأطراف ينشر أفكاره و عقائده و ثقافته ، في وسائل إعلامه المرئية و المسموعة و المكتوبة ، و لا يجبر أحد على اعتناقها أو قبولها . و إذا ما دعا الغير إليها ، فإنه يفعل ذلك بشكل سلمي بحت و بطريقة العرض المجرد . و هو ما يضع مفردة (الغزو) موضع الضعف و عدم الدقة و الموضوعية ، و ينحو بها اتجاه العاطفة الغريزية أكثر منها العقلانية المنطقية .

الثالث .. لم يبقَ أحد في الكرة الأرضية و منذ بدء التاريخ البشري و إلى الآن ، إلا و مارس و يمارس الدعوة إلى فكره و ثقافته و عقائده و يحاول بشتى السبل نشرها . و هنالك من فعل ذلك بحد السيف و إهراق الدماء لأجل ذلك . و بالتالي .. لا يستطيعن أحد لوم أحد على ذلك و لا أن يتهمن أحد أو يرمينّه بـــ (الغزو الفكري و الثقافي) فكلٌّ ارتكب هذه الفعلة و مارسها .. اللهم ما عدا تلكم الشعوب و القبائل البدائية في مجاهل إفريقية و الأمازون و القطبين . و إن من سحب السيف في الماضي و فرض بموجبه عقائده و أفكاره على الغير و جلب نساءه و أطفاله جَوارٍ و إماء و عبيد ، و لا زال إلى الآن يطالب باحتلال العالم و

فرض عقائده على شعوبه قاطبة ، لا يحق له التكلم عن الغزو الفكري الثقافي لهذا الغير و الشكوى منه كل بارحة و سانحة .

الرابع .. إن دواعي و موجبات الانتقاد العنيف لمفهوم (الغزو الفكري الثقافي) هي بدورها فاقدة للمصداقية و الموضوعية . و يوجد سببان لذلك .. **الأول** هو اختلاف الفكر و الثقافة الأجنبية أو الخارجية ، عن ثقافة البيئة المحلية الداخلية . و هذا أمر طبيعي شرعي لا إشكال عليه . أقرّت به الأديان السماوية التي شجعت على التعارف و التلاقح الفكري فيما بين الشعوب . جاء في التوراة ..

[الرب مخيف إليهم لأنه يهزل جميع آلهة الأرض فسيسجد له الناس كل واحد من مكانه كل جزائر الأمم] (سفر صفنيا – الإصحاح ٢) .

[احمدوا الرب ادعوا باسمه اخبروا في الشعوب] (أخبار الأيام الأول – الإصحاح ١٦) .

و في الإنجيل ..

[لأن عيني قد أبصرتا خلاصك * الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب] (لوقا – الإصحاح ٢)

.

[فتقدم يسوع و كلمهم قائلا دفع إلي كل سلطان في السماء و على الأرض * فاذهبوا و تلمذوا جميع الأمم و عمدوهم باسم الأب و الابن و الروح القدس] (متى – الإصحاح ٢٨) .

و في القرآن الكريم جاء ..

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } [الحجرات : ١٣] .

و بالإضافة إلى ذلك ، فإن الخلاف مع فكر مغاير و مناقض و مختلف ، لا يعني بالضرورة أن هذا الفكر سيء و خاطئ و أن الفكر الأول هو صحيح و مقبول . **ثانياً** .. ركز أصحاب نظرية (الغزو الفكري الثقافي) على مقولة .. إن الثقافات الأخرى قائمة على الفساد و الانحلال الأخلاقي و الديني و إنها تعمل على إفساد الشعوب و نشر الرذيلة و التحلل فيما بين ظهرانيها . و هي مقولة ساقطة منطقياً و موضوعياً لأن الخير و الشر ، و الفضيلة و الرذيلة ، و الأخلاق و النقائص ، هي مفاهيم و مصطلحات و عادات و أفعال و تصرفات لا يختص بها شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات أو دولة من الدول دوناً عن غيره . كذلك الأمر لا يبرأ منها كل من هؤلاء جميعاً .

و بموجب ذلك أيضاً .. لا يستطيعن أحد أن يرمين أحد بالفسق و الفجور و الهتك و الإفك . فكل قد ورد هذا المورد و كل شارب منه و ناهل و لا يزال إلى الآن يفعل ذلك . فمن هو الذي اختص بالفضيلة دوناً عن غيره ؟؟!! و من هي الدولة التي وصِمَت بالرذيلة و الدولة التي وصِمَت بالفضيلة و الأخلاق ؟؟!! .

إن الغزو الفكري الثقافي الذي يتم طرحه و تسويقه الآن ، هو مفهوم و مصطلح وهمي لا يمت إلى الحقيقة بصلة و لا أساس عقلاني منطقي له و لا سند علمي من أرض الواقع . لأنه بكل بساطة يتناقض مع مفهوم آخر يمثل بحيثياته ، منطق العقل و الطبيعة و القوانين الفطرية الحقيقية فيها و العلوم التطبيقية الموجودة في فضائها ، بالإضافة إلى العلوم الفلسفية الاستنتاجية ، ألا و هو مفهوم و منطق .. **البرهان** .. المنطق المعتمد لوصول إلى الحقيقة و النتيجة الصحيحة السلمية . فروّاد العلوم التطبيقية من رياضيات و فيزياء و كيمياء و غيرها ، و أصحاب النظريات المرتبطة

بها ، يعتمدون منهج الفرض و البرهان للوصول إلى الحل الصحيح و النتيجة الصواب و القانون الأساس . و آلية ذلك تقوم بكل بساطة على أن توضع جميع الفرضيات و الحلول و التوقعات الممكنة و من ثم وضعها جميعاً واحداً تلو الآخر ، محك التجربة و التطبيق حتى يتم استخلاص الصحيح الأمثل منها ، لا بل إن هنالك مبدأ في العلوم التطبيقية و النظرية يقوم على القبول بالفرض الخاطئ كفرض ، و من ثم إثبات أنه خاطئ أو غير قابل للتحقق ، و هو ما يسمى (نفي النفي) و يقع ضمن المضمار الفلسفي أيضاً . حتى الأديان السماوية أقرت هذا المبدأ و اعتمدته ، جاء في التوراة ..

[موازين غش مكرهة الرب و الوزن الصحيح رضاه] (سفر الأمثال – الإصحاح ١١) .

و في الإنجيل جاء ..

[اذ أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلم في الذي ليس ضعيفاً لكم بل قوي فيكم * جربوا أنفسكم هل أنتم في الإيمان امتحنوا أنفسكم أم لستم تعرفون أنفسكم] (رسالة بولس الثانية – الإصحاح ١٣) .

و في القرآن الكريم ورد ..

{ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : ١١١] .

{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ } [النساء : ١٧٤] .

{ لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ } [يوسف : ٢٤] .

{ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ } [القصص : ٣٢] .

{ فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ } [القصص : ٧٥] .

بناء عليه و عليه بناء ، يتساءل المنطق الثاني .. أليس (الغزو الفكري الثقافي) هو حالة طبيعية طبعية لتمازج الأفكار و تلاقحها ، سادت منذ بدء تاريخ البشرية و إلى الآن ؟؟!! أليس مفهوم و منطق (الغزو الفكري الثقافي) إن صحت التسمية هو حالة من حالات مفهوم و منطق (البقاء للأصلح) ؟؟!! أليس تاريخ تطور البشرية منذ ظهور الإنسان الذي عاش في الكهوف و المغاور و حتى الإنسان المصنِّع للتكنولوجيا الرقمية المتطورة ، هو تاريخ قائم على استبدال الأفكار القديمة بأفكار أخرى جديدة مستحدثة مستوردة و ناتجة عن تلاقح متبادل فيما بين بني البشر ؟؟!! ألم يثبت في التاريخ البشري أن هنالك أفكار و آراء و معتقدات كان يُظَن أنها الصواب و الأفضل ثم ثبت بعد ذلك بطلانها و عدم صحتها و مخالفتها لمنهج الواقع و التطبيق ، نتيجة لأفكار و حقائق أخرى أثبتت ذلك ؟؟!! هل يكفي اتهام فكرة ما بالسوء و الشر ، أن يكون دليلاً على ذلك و دليلاً على بطلان صحتها و صوابيتها ؟؟!! أليست أسهل طريقة ، القول للغر الجاهل .. احذر هذا الطعام فإن فيه السم الزعاف لكي يعافه و يتركه حتى و إن كان قولاً كاذباً في ذلك ؟؟!! . و يكرر المنطق الثاني السوآل .. **لماذا نقبل بمنتجات الغير و صناعته بشغف و نَهَمْ و لا نقبل بأفكاره التي أنتجت هذه الصناعات ؟؟!! .**

الانتهازية و المصلحة الشخصية

إن قانون الحياة و الطبيعة منذ ظهور الكائنات الحية على الأرض ، قائم على أمرين اثنين ، **الأول** .. البقاء على قيد الحياة و استمرارية الحياة . **الثاني** .. التطور نحو الأفضل و الأنسب . و هذان الأمران شكّلا المنهج الأساس الأول للكائنات الحية جميعاً ، من نبات و حشرات و حيوان و إنسان ، في البر و البحر . و هو مبدأ لا يشكّل حالة بقدر ما يشكل حاجة لا بد منها ، و من دونها لا يمكن استمرار الحياة على الأرض . فالكائن الحي أياً كان نوعه و جنسه و فصيلته ، لا بد له من أن يعمل على مدار الساعة على تأمين استمراريته في البقاء على قيد الحياة و تأمين تكاثره و تناسله ليضمن بقاء جنسه على كوكب الأرض و يُختَص في هذا السياق الإنسان . هذه العملية يلزمها احتياجات و متطلبات للقيام بأودها ، أهمها .. تأمين الغذاء الذي لا بد من التحصّل عليه بأية وسيلة كانت إذا اضطر الأمر ، للبقاء على قيد الحياة .. كذلك المأوى و المسكن الذي يؤمّن الوقاية من عوامل الطبيعة و هجوم الحيوانات المفترسة .. كذلك الأمر تأمين اللباس لوقاية الجسم و تأمين درجات حرارة مناسبة . و تأتي بعد ذلك المستلزمات و الاحتياجات الأخرى ، كأدوات الاستخدام للزراعة أو الطعام أو الدفاع عن النفس و غيرها . و هذه بدورها تحتاج أمرين اثنين لا ثالث لهما ، **الأول** .. البحث و التقصّي . و

الثاني .. التعاون و التكامل و التعاضد الاجتماعي و الجماعي في آن معاً . فلا يمكن لأي إنسان فرد مهما علا شأنه و تميّزَ عن أقرانه من بني البشر ، سواء في القوة البدنية أو المقدرات العقلية كالذكاء الفطري المكتسب ، أو قدرات خارقة معينة و ما إلى ذلك .. لا يمكن لهذا الشخص أن يحل محل الجماعة في قدراتها و منافعها و ميزاتها . كما أنه لا يمكنه الاستغناء عنها في الوقت نفسه .

هذه القضية أقرت بها الأديان و أيدتها ، فقد جاء في القرآن الكريم ..

{ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } [آل عمران : ١٠٥] .

{ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ } [الأنفال : ٤٦] .

{ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة : ٢] .

و في التوراة جاء ..

[كَلِّمْ كُلَّ جَمَاعَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَقُلْ لَهُمْ: تَكُونُونَ قِدِّيسِينَ لأَنِّي قُدُّوسٌ الرَّبُّ إِلهُكُمْ]

(اللاويين ١٩ : ٢) .

[هؤُلاَءِ هُمْ مَشَاهِيرُ الْجَمَاعَةِ، رُؤَسَاءُ أَسْبَاطِ آبَائِهِمْ. رُؤُوسُ أُلُوفِ إِسْرَائِيلَ] (العدد ١ : ١٦) .

[فَتَشَتَّتَتْ بِلاَ رَاعٍ وَصَارَتْ مَأْكَلاً لِجَمِيعِ وُحُوشِ الْحَقْلِ، و تَشَتَّتَتْ] (حزقيال ٣٤ : ٥) .

و في الإنجيل ..

[فَاجْتَمَعَ الرُّسُلُ وَالْمَشَايِخُ لِيَنْظُرُوا فِي هذَا الأَمْرِ] (أعمال الرسل ١٥ : ٦) .

أما مفهوم التطور ، فهو أيضاً سمة رديفة أساس لزمت الإنسان العاقل و اختصت به أكثر من غيره من الكائنات الأخرى . و بنظرنا .. فإن موضوع البقاء على قيد الحياة و استمراريتها و التطور نحو الأفضل ، قد ارتبطا بعامل آخر هو (المصلحة الفردية الشخصية) و (المصلحة الجماعية) أيضاً . و لا يمكن فصلهما بعضهما عن بعض ضمن الشروط المعيارية الافتراضية ، و هي قضية تحدثنا عنها في مبحث سابق من هذا الكتاب .

و بنظرنا أيضاً فإن هذه القضية من الناحية المعيارية العمومية ، لها معيارين اثنين ، معيار شرعي أخلاقي ، و معيار آخر لا شرعي و غير أخلاقي . و هذه المعايير و الضوابط قد حددها المجتمع و أعرافه بالإضافة إلى الأديان . و هي قضية تماهت أيضاً مع قضية التطور الاجتماعي للإنسان العاقل ، من مستوى الفرد إلى مستوى الجماعة إلى مستوى المجتمع و نظام الدولة و ترافقت معها . فتطور مفهوم المصلحة الإنسانية مترافقاً مع التطور السابق ، من المصلحة الشخصية إلى المصلحة الجماعية (مصلحة القبيلة – العشيرة ... الخ) إلى مصلحة المجتمع و من ثم مصلحة الدولة .

لكن سويات هذه المصالح جميعاً ارتبطت في النهاية بالمصلحة الفردية الشخصية للإنسان ، بمعنى أنها في الوضع الافتراضي الشرطي المعياري ، هي لخدمة الفرد في الجماعة و المجتمع و الدولة . و في أسوأ الأحوال يُفترَض أنها لا تتعارض بعضها مع بعض أو تلغي بعضها بعض .. هذا ما أقرته الأديان السماوية و دعت إليه . كذلك النظريات الاجتماعية و الفلسفية الوضعية و منها و أهمها نظرية (العقد الاجتماعي) أو (الحق الطبيعي) الذي تطرقنا إليها في مبحث سابق . فحسب

الشرط المعياري الافتراضي ، من غير المعقول أن تتعارض مصلحة الجماعة مع مصلحة الفرد لأن الفرد في النهاية هو أساس الجماعة و المجتمع و الدولة . ففي نظام القبيلة على سبيل المثال ، لا يؤمن الفرد بانتمائه لقبيلته و خضوعه لنظامها ما لم تؤَمِّن له القبيلة شروط معينة كالحماية مثلاً و المأوى و الحفاظ على الكرامة و العدل و المساعدة عند الوقوع في مأزق ما ، و هو ما ينسحب على نظام المجتمع و الدولة أو الطائفة و المذهب أو الحزب السياسي أو أي مجتمع أو تكل آخر . ففي النهاية ، هنالك مصالح متبادلة لا يمكن لأي نظام و تكتل اجتماعي أو ديني أو سياسي أن يتجاهلها و إلا فإنه يعرّض نفسه للتفكك و الانحلال و من ثم الزوال .

و إذا نظرنا في تاريخ نشوء الحضارات و الدول و الممالك و الأحزاب و حتى المذاهب و الأديان ، و تفكك و انحلال و زوال هذه الأنظمة جميعاً ، لوجدنا ما يوافق القول المذكور آنفاً . فأهم عامل من عوامل سقوط نظام و كيان اجتماعي أو سياسي أو ديني و زواله ، هو حصول خلل أو فساد و مشاكل أو أخطاء فادحة في بنية الهيكلية الاجتماعية النفعية المتبادلة فيما بين الفرد و النظام أو الكيان التابع له .

فبمجرد أن يشعر فرد ما أو مجموعة أفراد ، بعدم قدرة النظام أو الكيان الذي ينتمون إليه اجتماعياً أو سياسياً أو دينياً أو حتى اقتصادياً ، على تلبية احتياجاتهم الضرورية و الأساسية و أنه قد أصبح عبئاً عليهم أكثر مما ينبغي ، حتى يفكرون باستبداله أو التخلي عنه ، و بأحسن الأحوال إذا لم يستطيعوا فعل ذلك ، فإنهم يعتبرون أنفسهم غير معنيين به و يحاولون قدر الإمكان التملص من القيام

بواجباتهم تجاهه . هذا كله يندرج ضمن إطار مظاهر حياتية شرعية قانونية تحدث في عصرنا هذا كالانتخاب الذي يحصل في الدول الديمقراطية المتقدمة المتحضرة ذات التعددية السياسية حيث يقوم الناخبون بانتخاب مرشحهم بموجب مصلحة نفعية شخصية دونما حياء أو حرج ، و يُسقطون مرشح آخر انتخبوه سابقاً ، بنفس الطريقة أو المعيار و لا يبالون أو يشعرون بأي حرج . فكم حصل في البلدان الأوروبية أن سقطت حكومات و وزارات و نواب و عُمَد بلديات ، لمجرد زيادة بسيطة في الضرائب أو خفض نسبة ضئيلة في الضمان الاجتماعي ، إلى ما هنالك من أمور حياتية بحتة تمس بالدرجة الأولى حياة المواطن الشخصية و منافعه الذاتية و مصالحه الفردية ، و هو حق شرعي للإنسان لا يجرؤن أحد على انتقاصه أو النيل منه أدبياً أو حتى معنوياً ، حتى الأديان السماوية تطرقت إلى هذه القضية . فالقرآن الكريم كثيراً ما خاطب من يُسمونَ (المشركين) أو (الكفار) بصيغ و أساليب عدة ، منها صيغة المفاضلة و الممايزة و المصلحة الشخصية الذاتية بين الله جل و علا ، و بين الآلهة التي أشركها هؤلاء في عبادتهم ، معه . عندما سألهم عن الأنفع و الأجدر لهم و طالبهم أن يتخذوه إلهاً و معبوداً و من مثال ذلك ..

{ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ } [النحل : ١٧] .

{ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ } [يونس : ٣١] .

{ أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } [النمل : ٦٤] .

{ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ } [الأنبياء : ٦٦] .

من هنا و من خلال كل ما سبق قوله في هذا المبحث ، يمكن القول إن المعايير الأخلاقية و الضوابط الشرعية القانونية العرفية للمصالح الشخصية و المنافع الفردية، يتراوح مداها حصراً ضمن إطار المصالح الاجتماعية الفردية المتبادلة . و ضمن هذا الإطار يتم تقييم أي تصرف فردي شخصي ينم عن مصلحة فردية و منفعة شخصية إذا ما كان تصرفاً مقبولاً يقع ضمن نطاق الأخلاق ، أم أنه تصرف معيب ينم عن أنانية و جشع و انتهازية يقع في نطاق العيوب الخُلقية .

و تتناسب العلاقة طرداً فيما بين الطرفين . فبمقدار ما تكون المنافع و المصالح الفردية – الجماعية ، متبادلة و قوية و محترمة ، بمقدار ما تكون الضوابط و القيود الأخلاقية للمصالح الشخصية و المنفعة الفردية شديدة و صارمة و تصبح الانتهازية هنا أمراً معيباً لا يمكن تبريره بحال من الأحوال . و هو أمر يبدو واضحاً جلياً في الدول الديمقراطية المتحضرة و التي تُعنى فيها الدولة جيداً بمواطنيها و تسهر على أمنهم و رعايتهم و تأمين كافة مستلزماتهم المادية العينية و الاعتبارية حيث يُحاسب المرء هناك على أدنى عمل أو تصرف يدل على بوادر المصلحة الشخصية و المنفعة الخاصة غير الشرعية ، سواء بالنسبة لاستغلال المنصب أو التهرب الضريبي أو غيره من الواجبات نحو الدولة و المجتمع . و ما الفضائح التي تطالعنا في الصحف و المجلات و قنوات التلفزة من فضائح لنواب و وزراء أو رؤساء حكومات أو حتى رؤساء دول في أوروبا و غيرها ، عن استغلالهم لمناصبهم أو قبولهم لهدايا معينة بسيطة ، إلا شيء بسيط ضئيل لا يكاد يُذكَر ، مما يحصل في أماكن أخرى كدول العالم الثالث ، مع أن ذلك يُعد فضيحة بالنسبة إليهم !!!.

قد يتبادر إلى ذهن القارئ ، سوآل عن دور الوعي الاجتماعي و التوعية الاجتماعية الوطنية و حس المسؤولية الوطنية ، في التخفيف من حدة شبق التحصّل على المنافع الشخصية و المصالح الفردية بالطرق غير الشرعية ، و يقع الاعتقاد في صحة ذلك و وجوبه . و الواقع أن ذلك بالوجه المجرد المطلق ، هو مجافٍ للحقيقة تماماً و لا يصح في الواقع اليومي العملياتي . و السبب في ذلك بسيط جداً و هو أن مبدأ الوعي و التوعية الاجتماعية هو نتيجة لا مقدمة .. هو نتيجة لمقدمات التكافل و التعاضد الاجتماعي العملي المجسد عبر الدساتير و القوانين الناظمة لمجتمع من المجتمعات سواء التي يشترعها المشرع القانوني للدولة أو تلكم التي تشترعها الأعراف الاجتماعية الوضعية الناتجة عن تراكم الأحداث و الوقائع اليومية في هذا المجتمع و تطورها ، من نظام الأسرة مروراً بنظام الجماعة و المجتمع وصولاً إلى نظام الدولة و كيانها السياسي الذي هو الصورة الأخيرة الناظمة لكل ما سبق . و هو أمر ينطبق أيضاً على نظام الأحزاب السياسية و الدينية و هيكليتها ، تماماً .

أما الانتهازية كدلالة و فعل ، فهي تعود في أصولها اللغوية إلى فعل (نهز) . ففي المعجم [1] " النهز هو التناول باليد و النهوض للتناول جميعاً . و النهزة هي الشيء الذي لك معرض ، كالغنيمة . و النهزة أيضاً هي الفرصة . و انتهاز الشيء هو التمكن منه قبل الفوت . و انتهز الفرصة أي بادر وقتها . و انتهزها أي تناولها من قرب و بادرها و اغتنمها " (انتهى) .

[1] انظر معجم (لسان العرب) مادة / نهز / .

و اغتنام الفرص و انتهازها ، هو في الوضع الافتراضي أمر مشروع لا غبار عليه أو إشكال فيه أقرت به جميع الأعراف و جرت في قوله و تناوله الأمثال الشعبية و الحِكَم و الأقوال المأثورة . كذلك الأديان السماوية اعترفت به و أيدته . جاء في القرآن ..

{ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنفال : ٦٩] ▪

و في التوراة جاء ..

[بَيْنَ الْسُّفَهَاءُ تَرْقُبُ الْفُرْصَةَ وَ بَيْنَ الْعُقَلاءِ كُنْ مُوَاظِبا] (سيراخ ٢٧ : ١٣) ▪

[فَلَمَّا اصِبْنَا الْفُرْصَةَ اسْتُرَدَدْنا مِيْرَاثُ ابَائِنَا] (المكابيين الأول ١٥ : ٣٤) ▪

على إن (الانتهازية)كمفهوم و توصيف ، قد أخذت الصفة السلبية و وضعت في موضع المعايب الخُلقية . فأصبحت صفة الانتهازية صفة سلبية تتخذ شيمة الاستغلال و الطمع و الأنانية . و غالباً ما يتم ربط منطق الانتهازية بمنطق المصالح الشخصية و المنافع الفردية .

على إن ما يفرّق مبدأ الانتهازية و منطقها ، عن مبدأ و منطق المصلحة الشخصية الفردية ، هو عدم ارتباطها بالمفهوم الاجتماعي كما هو الحال في المصالح الفردية الشخصية . فالانتهازية هي في أساسها ، صفة شخصية فردية قبل كل شيء .

بالعودة إلى منطق المعيار الافتراضي المذكور في مبحث سابق من هذا الكتاب ، و بإسقاط ما تم ذكره في مبحثنا هذا عليه ، فإن المنطق الثاني يقول .. إن المظاهر السلبية المعيبة و الجوانب اللاأخلاقية لمفهوم المصلحة الفردية و المنفعة الشخصية ،

تتحدد حتماً و حصراً بموجب المعيار الافتراضي لهذه المصالح ألا و هو العلاقة التبادلية الصحيحة الكاملة و غير المنقوصة فيما بين الفرد و الجماعة .. أو الفرد و المجتمع .. أو الفرد و الدولة .. أو الفرد و الحزب أو الطائفة ... الخ . و إن المسؤول الأول عن هذه العلاقة في حال وجودها هو الطرف الثاني أي المجموع أو الدولة أو الحزب و الطائفة ... الخ . و هو الذي يتحمّل أولاً و أخيراً أي خلل أو فساد أو خطأ أو تقصير في هذه العلاقة كونه هو الطرف صاحب السلطات و الصلاحيات و القوانين القاهرة مادياً و أدبياً و اعتبارياً . و هو الذي تتجمع في يديه الموارد المادية و الاقتصادية و البشرية و هو المسؤول الأول عن تنظيم و إدارة الأفراد الخاضعين لسلطانه الاجتماعي .

و تبعاً لذلك ، فإنه عندما يتم فقدان أواصر الروابط الاجتماعية و النفعية بين تلكم الأنظمة السابقة و بين الأفراد ، تتلاشى تلقائياً الموجبات السلبية اللاأخلاقية ، لمبدأ المصلحة الشخصية الفردية التي تتحول بدورها إلى قيمة مجرّدة مطلقة (إن صح التعبير) و بالتالي تفقد المعايير الأخلاقية التوصيفية دورها في تصحيح مسار المصالح و المنافع الفردية الشخصية للأفراد . و تصبح الانتهازية أمراً مبرراً مشروعاً حال فقدان تلك الأواصر و الروابط و يصبح من حق الشخص الفرد أن ينسلخ عن رابطته الاجتماعية القديمة و يبرأ منها و يبحث عن رابطة أخرى تؤمن له مصالحه الفردية الشخصية أو أن يبقى خارج أية رابطة واضعاً منافعه و مصالحه الشخصية فوق أي اعتبار .

إن النظام الاجتماعي الطبعي ذو المصالح النفعية المتبادلة ، هو نظام الأسرة الذي يوجد فيه الفرد تلقائياً عند الولادة و ينشأ طبعياً على قوانينه و مبادئه . و أول

مصلحة و منفعة شخصية يشعر بها المرء ، هي من نظام الأسرة الجماعي الذي يقدم له الطعام و الملبس و المأوى و العلاج و الحماية و التعليم مجاناً دون أي يقدم هو (أي المرء) أية منفعة تُذكَر إلا في وقت لاحق يستغرق سنين عدة . و هذا إن دل على شيء فإنه يدل على أن أول شعور يشعر به الإنسان هو شعور الانتماء الجماعي للأسرة ، قبل شعوره بالانتماء الفردي . و هذا بدوره يستجلب نقطة هامة جداً و خطرة جد الخطورة في الوقت عينه . و هي أن الإنسان اللقيط أو اليتيم الذي لا أسرة له ، قد ينشأ في غالب الأحيان دونما شعور بالرابطة الاجتماعية . و بالتالي يصبح مقيداً لإغراء و أهواء مصالحه الشخصية لا ينظر غيرها و لا يعتبر مفهوم الجماعة و المصلحة الجماعية ، و لا يتملك حس الولاء للدولة و المجتمع أو أي تكتل حزبي آخر . و تبعاً لذلك يصبح هذا الشخص اللقيط أو اليتيم أو مجهول الأب أو الأم أو الاثنين معاً ، يصبح عرضة للانقياد لكل من يحقق له شروط مصلحته النفعية الشخصية أياً كانت الأهداف و الوسائل التي يريدها هذا الطرف منه ، دونما اعتبار لأية معايير و ضوابط شرعية و أخلاقية كونه هو بالأساس فاقد لميزة تحسس و إدراك الرابطة الجماعية و المصلحة النفعية المرتبطة بها ، و للأسف الشديد يقول المنطق الثاني .. إن هذا الشخص محق في كل تصوراته و كل أعماله التي يَبْرَأ فيها من المجتمع و يسعى لتأمين أقصى منفعة شخصية له . و لهذا قد يوصف الشخص السيء الأخلاق و الخصال و شرير الفعال بأنه (ابن حرام) أو (ابن زنا) و هو تعبير مجازي أحياناً أكثر منه موضوعي حقيقي لأي شخص (حسب العرف الاجتماعي) يفعل أي شيء لأجل مصالحه الشخصية الفردية دونما أي اعتبار للمجتمع ، فالكثير من الأيتام

الذين يربون في ملجأ للأيتام دونما أب لهم أو أم ، هم على درجة عالية من الخُلق و الفضيلة أكثر بكثير ممن لهم هوية نسب لأب و أم .

و بلغ من خطورة هذه القضية أن تناولتها الأديان السماوية و أولتها غاية اهتمامها نظراً لخطورتها الشديدة . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ } [الأنعام : ١٥٢] .

{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } [الإنسان : ٨] .

{ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ } [الفجر : ١٧] .

{ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ } [الضحى : ٩] .

{ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ } [الماعون : ٢] .

{ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ } [البقرة : ٢١٥] .

{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ } [البقرة : ٢٢٠] .

و في التوراة جاء ..

[لاَ تُسيِءْ إِلَى أَرْمَلَةٍ مَا وَلاَ يَتِيمٍ] (الخروج ٢٢ : ٢٢) .

[مَلْعُونٌ مَنْ يُعَوِّجُ حَقَّ الْغَرِيبِ وَالْيَتِيمِ] (التثنية ٢٧ : ١٩) .

[الرَّبُّ يَحْفَظُ الْغُرَبَاءَ. يَعْضُدُ الْيَتِيمَ] (المزامير ١٤٦ : ٩) .

لقد أثبت مبدأ المصالح الشخصية الفردية و مبدأ الانتهازية ، أثبتا أثرهما في تطور و ازدهار المجتمع و بالذات ، حال ارتباطهما بمبدأ البقاء للأصلح . و فضلاً عن ذلك و ذاك ، فإن فساد المجتمع أسوأ من فساد الفرد .. و فساد المجتمع النخب أسوأ و أخطر بكثير من فساد الأفراد .. و المصالح الشخصية للملأ يعود ضررها على الأفراد أكثر بكثير مما تعود به مصالح الأفراد الشخصية على الملأ .

و يختم المنطق الثاني هذا المبحث بالقول .. كل انتهازية و كل مصلحة شخصية فردية لا تسبب ضرراً مقصوداً مباشراً من قِبَل صاحبها لغير صاحبها ، هي حق مشروع طبعي مكتسب لا غبار عليه و لا إشكال فيه و لا حياء و لا خجل .

المقدس و التابو

سعى الإنسان العاقل منذ وجوده و إدراكه لمظاهر ما حوله من طبيعة و فضاء و جغرافية و كائنات . و ملاحظته لظواهر خفية أو مادية عيانية لم يدرك أسبابها . و أخرى داخلية نفسية لم يتسنى له سبر أغوارها و معرفة خباياها ، سعى للكشف عن سر الوجود المحيط به ، و الكون الممتد أمامه إلى ما لا نهاية . و عندما اصطدم بقوى الطبيعة و آثارها النافعة و الضارة معاً ، المفيدة و المميتة في آن واحد ، برزت أمامه ظاهرة أو مفهوم .. التابو و المقدس و الذي ترافق معه فيما بعد مفهوم (الطوطم) .

و قد ظهر مفهوم التابو أو المقدس عند الإنسان ، كحل للمعضلات الآنفة الذكر بالدرجة الأولى و من ثم الناظم لبعض أو كل شؤون الإنسان الحياتية ، الاجتماعية منها و الاقتصادية و حتى السياسية ، تحت إطار ما عُرف في بعض جزئياته بـــ (الدين) و ليتخذ فيما بعد ، دوراً سلطوياً امتد به إلى الفترة الراهنة من عصرنا الحالي .

و التابو المقدس يعود بجذوره إلى مصدرين اثنين .. مصدر إنساني بشري وضعي اخترعه الإنسان لنفسه كحالة افتراضية . و مصدر وصف نفسه بأنه إلهي سماوي و عبّر عن ذلك في حيثيات بنوده و مضامينه المكتوبة و المقروءة . علماً أن أداته في ذلك كانت الإنسان نفسه . و بنظرنا أيضاً فإن التابو و المقدس كمفهوم و مصطلح ، قد اتخذت حالة شبيهة بحالة المجتمع و النظام الاجتماعي من حيث الحاجة و الضرورة الماسة الملحة الناتجة عن تراكم الأحداث و تطورات الحياة اليومية من نظام الأسرة إلى نظام الجماعة إلى نظام المجتمع و من ثم ، نظام الدولة . فشكّلَ التابو حالة مشابهة متوافقة لما هو الحال عليه في قضية التطور الاجتماعي . فالتابو ظهر لدى الإنسان عندما كان هذا الأخير ضمن نظام الأسرة المشاعي ، أي الإنسان الفرد حيث لم يكن هنالك جماعة بعد ، و هو ما دعمته الأديان السماوية بدورها و التي قالت إن الإنسان العاقل الأول و هو (آدم) عندما خلقه الله وحيداً ، ألقى إليه بأمور دينه و دنياه و علمه إياها ، و قد أدرك آدم قداسة ربه و خالقة ، من اللحظة التي خلقه بها و علمه الأشياء و مسمياتها و مناطقها . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ } [البقرة : ٣١] .

{ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا } [طه : ١١٥] .

و في التوراة جاء ..

[فَدَعَا آدَمُ بِأَسْمَاءٍ جَمِيعَ الْبَهَائِمِ وَطُيُورَ السَّمَاءِ وَجَمِيعَ حَيَوَانَاتِ الْبَرِّيَّةِ] (التكوين ٢ : ٢٠) .

[ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُ، وَبَارَكَهُ وَدَعَا اسْمَهُ آدَمَ يَوْمَ خُلِقَ] (التكوين ٥ : ٢) .

إن هذا المقدس الذي ظهر للإنسان كفرد ، كان لابد للإنسان من أن يقوم بتطويره و تحديثه عندما تطور هو نفسه من نظام المشاعة الفردي إلى نظام الجماعة و ما تلاها . ففي كل عملية تطور تلقائي في النظام الاجتماعي ، كان يقابلها عملية تحديث لمفهوم التابو المقدس ليواكب النظام الاجتماعي الجديد . و هذا التحديث بدوره كان له مصدرين اثنين .. الإنسان نفسه ، و الله الخالق الذي أرسل الأنبياء خلال فترات زمنية متوالية و بالأخص منهم ، أصحاب الرسالات الكبرى أو الأديان السماوية الثلاث .. اليهودية و المسيحية و الإسلام . و بالنظر إلى مضامين تلكم الأديان السماوية (و حتى غير السماوية منها) يتضح لنا أن هذه الأديان قد جاءت بالدرجة الأولى إلى المجموع لا إلى الفرد ، و خاطبت الجماعة أكثر منها الأفراد .

إذن .. فمفهوم التابو أو المقدس ، ساير منذ نشأته الأمر و المفهوم الاجتماعي عند الإنسان و رافقه في تطوراته . و حتى نفهم قضية التابو أو المقدس ، يجب معرفة المعنى جيداً . جاء في المعجم [1] .. التقديس هو التطهير و التبريك و هو التنـــزيه أيضاً . و القدوس هو الطاهر المتره عن العيوب و النقائص (انتهى) . و المقدس أيضاً هو المكان العالي الصعب الوصول إليه ، و تطلق أيضاً على الجبل العالي صعب المرتقى .

[1] انظر معجم لسان العرب مادة (قدس) .

إن المقدس أو التابو كمفهوم و مصطلح ، لم ينحصر فقط ضمن دوائر الدين أو الغيبيات الماورائية ، بل تعدى ذلك إلى المفاهيم و المصطلحات الاعتبارية أو المادية الأخرى . فكل شيء عزيز على الإنسان هو بالنسبة إليه شيء مقدس . و أي شيء يهتم به الإنسان و يختص به و لا يريد لأحد انتهاكه أو المساس به ، هو أيضاً شيء مقدس بالنسبة إليه . فهنالك من يعتبر بعض الأشياء المادية أمراً مقدساً كالنار أو القبور أو بعض الأشجار و الأحجار أو بعض الحيوان كالأفعى و البقرة (الطوطم) و هي في غالبها ذات منشأ عقائدي ديني . و هنالك ما هو غير ذلك أيضاً كالمال أو الذهب و ما إلى ذلك . و هنالك أيضاً من يعتبر بعض المفاهيم شيء مقدس بالنسبة إليه كالاشتراكية أو القومية أو الوطنية أو الجنس مثلاً .. فالجنس على سبيل المثال كان في فترة من الفترات لدى بعض القبائل و الشعوب ، حالة مقدسة لا تجوز ممارسته إلا في فترات معينة و أماكن محددة . و هنالك أيضاً من كان يعتقد في فترة من الفترات أن الأعضاء التناسلية هي أعضاء مقدسة لأنها تهب الحياة و تؤمن البقاء و الاستمرارية . كما أن هنالك من يعدّ بعض المفاهيم الاعتبارية الأخرى ، أمراً مقدساً كالأخلاق و العمل و العلم و الكرم و نحوها . فالكرم عند العرب في الجاهلية كان أمراً مقدساً لا يجوز المساس به أو انتهاكه . كذلك حماية المستجير حتى و لو كان عدواً لدوداً أو مطلوب لديهم بثأر . فبمجرد أن يدخل فناءهم طالباً الإجارة و الحماية ، كانوا يجيرونه و يحمونه حتى يخرج من عندهم و لا يعودون لطلب ثأرهم منه إلا بعد انقضاء مدة أو مسافة معينة . و هي أمور يُطلَق عليها بالأحوال كافة .. التابو .

إذن .. و من خلال ما سبق ، يمكن تعريف المقدس أو التابو بأنه .. الشيء الذي لا يمكن المساس به أو الوصول إليه . و في الوقت نفسه لا يجوز المساس به أو

الوصول إليه إن كان يمكن ذلك و هو بالوقت عينه شيء أو مجموعة أشياء طاهرة نقية خالية من الشوائب و النقائص . و يجب أن تبقى كذلك و أن يتم الحفاظ عليها و حمايتها لكي تبقى كذلك . فالتابو إذاً .. هو الشيء العزيز لدى شخص ما يكنّ له احتراماً و أهمية و عناية و خوفاً في آن معاً . و كل شيء يعدّه الإنسان خط أحمر هو بالنسبة إليه .. **تابو** .

لقد اتخذ التابو بالنسبة للإنسان وضعين اثنين .. الأول هو التابو الذي سعى إليه الإنسان من تلقاء نفسه ثم اتخذه لنفسه . و الثاني هو التابو الذي سعى هو إلى الإنسان و عرّف عن نفسه متخذاً السمة الإلهية . و الفرق فيما بين الاثنين ، هو أن الإنسان قد وضع شروطه على الأول و لو بشكل غير مباشر ، بينما الثاني هو من وضع شروطه على الإنسان و كان على شكل مبادرة أو صفقة و منهج (إن صح التعبير) .

لكن ما حصل بعد ذلك ، هو أن الإنسان نهاية المطاف ، قد اتخذ كلا المقدّسين و سخّرهما لمصالحه الشخصية و ضمن شروطه هو . و قام بدمجهما معاً ضمن كارتل أو مجمع واحد و ذلك لسهولة الاستخدام .

مما سبق ، يتضح أن السيرورة التاريخية للتابو بالنسبة للإنسان ، بدأت من عامل الخوف من المجهول الخفي و اتقاء ضرره و أذاه ثم التقرب منه و محاولة معرفته و وضع أسس معينة للتعامل معه و حلول افتراضية لتعريفه و فيما بعد .. السيطرة عليه و التحكم به و وضعه موضع الخدمة الميدانية و الاستثمار الاقتصادي أو السياسي أو الاجتماعي ، و هو ما نراه اليوم في عصرنا الراهن .

باختصار شديد يجمل كل ذلك ، فإن التابو المقدس في الصورة النهائية المتبلورة له قد اتخذ جدلية ثنائية طرفية قوامها (الضرر – النفع) . و الثبت التاريخي البشري يدعم هذه المقولة . كذلك الخطاب الديني السماوي . جاء في القرآن الكريم ..

{ قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ } [يونس : ٤٩] .

{ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ } [يونس : ١٠٦] .

{ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [يونس : ١٠٧] .

و في التوراة جاء ..

[إنّ جَمِيْعُ أعْمَالِ الْرَّبِّ صَالِحَةً فَتُؤْتِيْ كُلّ فَائِدَةَ فِيْ سَاعَتِهَا] (سيراخ ٣٩ : ٣٩) .

[لأَنَّهُ بِهذِهِ يَدِينُ الشُّعُوبَ، و يَرْزقُ الْقُوتَ بِكَثْرَةٍ] (أيوب ٣٦ : ٣١) .

فمن غير المنطقي و المعقول أن يقدّس الإنسان شيء لا ينفعه و لا يضره . و الثابت تاريخياً أن الإنسان قد اتجه إلى تقديس ما رآه يشكل خطراً أو ضرراً مباشراً عليه أو منفعة و فائدة مباشرة في آن معاً ، أو أحدهما ، إما ضرراً أو نفعاً .

بناء عليه و عليه بناء ، فإن المنطق الثاني يقول .. إن كل مقدّس أو تابو لدى الإنسان أياً كان هذا الإنسان و أياً كان هذا التابو . و كل مقدّس يتم طرحه على إنه مقدّس ، يجب أن يحقق هذين الشرطين بالنسبة للإنسان .. الضرر الحتمي المؤكد أو النفع الحتمي المؤكد ، أحدهما أو كلاهما معاً . و كل ما لا يحقق هذين الشرطين ، لا يصح أن يُطلق عليه مقدّس .

هذا الأمر يقودنا مباشرة إلى قضية خطيرة جداً و هي .. المقدَّس الوهمي أو بوجه آخر من وجوهها .. توهم المقدس . و خطورة هذه القضية تنبع من أمور ثلاثة .. انتشارها الواسع لدى شريحة واسعة من الناس .. قوة ثباتها لديهم .. بساطة أسبابها و افتقارها لأدنى دليل و إثبات عقلي منطقي . و طبقاً لذلك ، يكفي أي شخص ما أن يتوهم شيئاً ما بأنه مقدس ، حتى يعطيه صفة القداسة و هي هنا بالغالب الأعم تكون دينية ، و حتى يتعامل معه على هذا الأساس و بالتالي يتحول هذا الشيء إلى (طوطم) . أما الأسباب التي دعته لقبول قداسة هذا الشيء و طوطميته و اعتمادها ، فهي أسباب واهية كاذبة لا إلى تستند إلى أدنى دليل منطقي عقلاني و لا إلى ركن وثيق . فهي إما أن تكون نسبة إلى منام رآه عن أحد الأشخاص أو أحد القبور أو الأمكنة أو أحد جمادات الطبيعة أو سماعه صوتاً غريباً يصدر من مكان ما ، أو شيء ما يتحرك أو ضوء ما من جهة معينة أو ظاهرة فيزيائية لم يتحقق أسبابها ، و أحياناً يكون متوهماً ذلك كله . فيسارع إلى إضفاء القداسة عليها و الاعتقاد بها و من ثم الإيمان المطلق الذي لا يتزعزع فيها . ثم ينتقل إلى الخطوة التالية و هي إشاعة هذه القداسة و تلك الحادثة مع تقديم براهين و دلائل كاذبة مختلَقة تكون من نسج خياله و وحي أوهامه و تخيلاته و ضغث ذهانه . فيقوم أولاً بالتأثير على الأشخاص الخاضعين لسلطانه الاجتماعي (أسرته – قبيلته) أو سلطانه الاقتصادي أو الديني أو السياسي . و أحياناً لا يكون هؤلاء الأشخاص خاضعين له بأي شكل أو وجه ، لكن يتقبلون كلامه و ادعاءه بكل بساطة ، و يصدقونه فيما يفتريه من قول دونما تبيان لحقيقة أو لمحك صدق و صحة لادعاء أو حتى مجرد تجربة . و يصل بهؤلاء جميعاً إلى ما يعتقدون

أنه اليقين المطلق بقداسة ذلك الشيء ، و هي قضية ناقشتها و تناولتها الأديان السماوية و تحدثت فيها عن هؤلاء الرهط و أشباههم . جاء في القرآن الكريم ..

{ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ } [البقرة : ١٨] .

{ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [الزخرف : ٤٠] .

{ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } [الحج : ٤٦] .

{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ } [القصص : ٥٠] .

و في التوراة جاء ..

[إِلَى مَتَى أَيُّهَا الْجُهَّالُ تُحِبُّونَ الْجَهْلَ] (الامثال ١ : ٢٢) .

[لِسَانُ الْحُكَمَاءِ يُحَسِّنُ الْمَعْرِفَةَ، وَفَمُ الْجُهَّالِ يُنْبِعُ حَمَاقَةً] (الامثال ١٥ : ٢) .

[اَلسَّوْطُ لِلْفَرَسِ وَاللِّجَامُ لِلْحِمَارِ، وَالْعَصَا لِظَهْرِ الْجُهَّالِ] (الامثال ٢٦ : ٣) .

و في الإنجيل جاء ..

[أَيُّهَا الْجُهَّالُ وَالْعُمْيَانُ! أَيُّمَا أَعْظَمُ أَلْقُرْبَانُ أَمِ الْمَذْبَحُ الَّذِي يُقَدِّسُ الْقُرْبَانَ؟] (متى ٢٣ : ١٩) .

و لعل القصة الصينية الشعبية التالية ، توضح ذلك .. كان هنالك صياد سمك اصطاد ثلاث سمكات لأطفاله الجياع و عاد إلى منزله . و في الطريق ، انتابه التعب فاستراح تحت شجرة قديمة ذات جذع ضخم ذو أفحوص كبير و قام بوضع السمكات في ذلك الأفحوص و لمّا يزلن على قيد الحياة لكن على شفير الموت .

ثم أغمض عينيه ليحظى بغفوة قصيرة لكنه لم يلبث أن استفاق على مطر غزير مفاجئ ، فأسرع العدوَ راكضاً إلى المترل و قد نسي سمكاته الثلاث في أفحوص الجذع الكبير الذي امتلأ بماء المطر فعادت الحياة للسمكات الثلاث . و في صباح اليوم التالي الذي كان صحواً مشمساً ، استيقظ الصياد و قد تذكر سمكاته الثلاث، فأسرع الخُطى إلى الشجرة و عندما وصل هناك ، فوجئ بجمع غفير من المزارعين متجمعين حول الشجرة اليابسة المهترئة و ينظرون بتعجب إلى السمكات الثلاث و هي تسبح بنشاط ، مستغربين وجود هذه السمكات فيها ، و قد جثا بعضهم على ركبتيه بخضوع إلى الشجرة المباركة المقدسة ، بينما سجد بعضهم الآخر لها ، و آخرون رفعوا أيديهم يبتهلون إليها بخشوع و هم يصيحون بأنها شجرة مقدسة . فاقترب الصياد منهم و أخبرهم القصة الحقيقية الصحيحة الواقعية و أن هذه السمكات هي ملكه و أنه يجب أن يأخذها لأطفاله الجياع الذين لم يأكلوا منذ أمس . فجن جنون الجمهور و هجموا عليه متهمين إياه بالكفر و العصيان و التجديف و الكذب و هموا بقتله ، فأطلق الرجل ساقيه للريح رافعاً يديه إلى السماء سائلاً النجاة بجلده (انتهى) .

في سياق هذا السرد ، يُطرَح سوآل هو .. هل هذه القضية كافية لأن تكون بموضع الخطورة و الضرر المزمع عنها ؟؟ الإجابة هي .. إن الخطورة ليست بالضرورة في متن هذه القضية و سيرورتها ، لكنها موجودة بالتأكيد في نتيجتها و صيرورتها ، أي ما يمكن أن يتأتى عنها من أفعال مادية و تصرفات عملية تكون مدعاة للمشاكل و الفتن و المظالم الاجتماعية ، و أحياناً عمليات قتل و تصفية و ربما يصل الأمر بها إلى حروب أهلية .. هذا من جانب الأذى الجسدي ، أما من جانب الأذى المادي المعنوي فقد ثبت أنها أكبر أداة للاستغلال المادي و السلطوي

و النفعي على حساب أشخاص آخرين حيث انتفت منها النفعية المتبادلة و اقتصرت على النفع من جانب واحد .

هذا الأمر ينسحب بدوره و بكل بساطة على ما يسمى بـــ (أصحاب الكرامات) أو (أصحاب الخوارق و المعجزات) . فالمعجزات و الكرامات ، حتى في الأديان السماوية كانت مرتبطة حصراً بالعامل الدعوي لله جل و علا لا إلى غيره و لأجل تثبيت اليقين الإيماني {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [البقرة : ٢٦٠] ، و مدعومة بالدليل المادي العياني الذي يشاهده الجميع و الذي لا يمكن دحضه ..

{أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ} [آل عمران : ٤٩] .

{فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ} [الأعراف : ١٠٧] .

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} [الشعراء :٦٣] .

و هي معجزات و خوارق عيانية شاهدها الجميع حسب الخطاب القرآني . و بدوره و تماشياً مع ما سبق ، يقول المنطق الثاني .. فليوضع كل ما هو موضع النسب للقداسة و الكرامات الإعجازية ، فليوضع على محك الاختبار النفعي التبادلي و اختبار التنفيذ الحقيقي و محك المنطق العقلاني السليم على مبدأ الآية القرآنية {وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} . و إن الثابت عبر التاريخ ، أن القداسة إنما تصح

على المفاهيم (كالعمل أو العلم أو الأخلاق أو المال ... الخ) أو الدعوة إلى مفاهيم (الله الخالق – الدين – العقيدة) و لا تصح على الأمكنة أو الأشخاص أو بعض الأشياء . و كل قداسة نُسبت تاريخياً و تُنسَب الآن إلى واحد من هذه الأطراف الثلاث .. كانت حتماً موضع الاستغلال و التصيّد لأجل التسيّد .

الشذوذ

إن أهم سمة من سمات الكون الذي نحن فيه و الأرض التي نعيش عليها الدقة و التنظيم . لا حاجة إلى كثير عناء لمعرفة ذلك ، فيكفي النظر على امتداد البصر حتى ندرك ذلك بداهة . من حركة الكواكب و النجوم و انتظامها و دوريتها ، إلى مظاهر الطبيعة في الأرض و دورية حدوثها و تنظيمه . كذلك الأمر النظر إلى الكائنات الحية أجمع و دورة حياتها و معاشها و تصرفاتها و طبائعها و نظامها الفيزيولوجي . ذلك كله أظهر التنظيم و التدبير السائد و المهيمن على نظام الكون و المخلوقات التي تعيش فيه .

إن عملية التنظيم و الدقة المتراتبة المتكررة بشكل دائم ضمن شروط معينة ثابتة ، هي تجسيد لمبدأ و مفهوم الافتراضية المعيارية و وجه من وجوهها . و الافتراضية المعيارية هي قضية تحدثنا عنها في مبحث سابق من هذا الكتاب . لكن ما نريد إضافته هنا ، هو الافتراضية المعيارية التراتبية التي تشكل متوالية حلقية ترابطية ، بمعنى أن العامل الافتراضي الكلي ، يولد مجموعة عوامل افتراضية جزئية مرتبطة به افتراضياً ، و هذه العوامل الافتراضية بدورها يولد كل منها مجموعة أخرى من العوامل الافتراضية الفرعية و هكذا . و التأثير الحاصل بين تلك العوامل و المولدات ، هو ليس تأثير تبادلي بل ذو اتجاه واحد ، و حصراً من الأعلى إلى

الأسفل أو من الأعم إلى الأخص أو من الكلي إلى الجزئي . و لا يمكن للجزئي أن يؤثر على الكلي ، أو أن يؤثر الفرعي على الرئيس في هذه القضية لكن العكس هو الصحيح تماماً .

و من هذه الافتراضية المعيارية ، ظهرت مجمل القوانين في الكون و الطبيعة و تلك المتعلقة بالكائنات الموجودة فيها .. الجامدة منها و الحية . و أيضاً تلكم التي اختصت ببني البشر . فالقوانين التي شرّعوها و سنّوها ، و الأعراف التي وضعوها و ساروا عليها في مجتمعاتهم ، هي في مجموعها و مضمونها ، من رحم الواقع الافتراضي المعياري . حتى الأديان التي اعتنقوها .. السماوية منها و الوضعية ، جاءت أيضاً من ضمن ذلك الواقع الافتراضي الكوني . و السماوية منها تناولت هذه القضية و أيدتها و عبّرت عنها في مضامينها . جاء في القرآن الكريم ..

{ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الفتح : ٢٣] .

{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } [البقرة : ١٦٤] .

و لعل الإصحاح الأول من سفر التكوين في التوراة يدل أيضاً على عملية التكامل الافتراضية فيما بين السماء و الأرض و مخلوقاتها حيث جاء فيه ..

[فِي الْبَدْءِ خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ... وَقَالَ اللهُ: "لِيَكُنْ نُورٌ"، فَكَانَ نُورٌ... وَفَصَلَ اللهُ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ .٥وَدَعَا اللهُ النُّورَ نَهَارًا، وَالظُّلْمَةُ دَعَاهَا لَيْلاً. ... وَقَالَ اللهُ: "لِيَكُنْ جَلَدٌ فِي وَسَطِ الْمِيَاهِ. وَلْيَكُنْ فَاصِلاً بَيْنَ مِيَاهٍ وَمِيَاهٍ".٧فَعَمِلَ اللهُ الْجَلَدَ، وَفَصَلَ بَيْنَ الْمِيَاهِ

الَّتِي تَحْتَ الْجَلَدِ وَالْمِيَاهِ الَّتِي فَوْقَ الْجَلَدِ. وَكَانَ كَذلِكَ.٨وَدَعَا اللهُ الْجَلَدَ سَمَاءً.
...٩وَقَالَ اللهُ: "لِتَجْتَمِعِ الْمِيَاهُ تَحْتَ السَّمَاءِ إِلَى مَكَانٍ وَاحِدٍ، وَلْتَظْهَرِ الْيَابِسَةُ". وَكَانَ
كَذلِكَ.١٠وَدَعَا اللهُ الْيَابِسَةَ أَرْضًا، وَمُجْتَمَعَ الْمِيَاهِ دَعَاهُ بِحَارًا. ... وَقَالَ اللهُ: "لِتُنْبِتِ
الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا، وَشَجَرًا ذَا ثَمَرٍ يَعْمَلُ ثَمَرًا كَجِنْسِهِ، بِزْرُهُ فِيهِ عَلَى الأَرْضِ".
وَكَانَ كَذلِكَ.١٢فَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ عُشْبًا وَبَقْلاً يُبْزِرُ بِزْرًا كَجِنْسِهِ، وَشَجَرًا يَعْمَلُ ثَمَرًا
بِزْرُهُ فِيهِ كَجِنْسِهِ. ...١٤وَقَالَ اللهُ: "لِتَكُنْ أَنْوَارٌ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتَفْصِلَ بَيْنَ النَّهَارِ
وَاللَّيْلِ، وَتَكُونَ لآيَاتٍ وَأَوْقَاتٍ وَأَيَّامٍ وَسِنِينٍ.١٥وَتَكُونَ أَنْوَارًا فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى
الأَرْضِ". وَكَانَ كَذلِكَ.١٦فَعَمِلَ اللهُ النُّورَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ: النُّورَ الأَكْبَرَ لِحُكْمِ النَّهَارِ، وَالنُّورَ
الأَصْغَرَ لِحُكْمِ اللَّيْلِ، وَالنُّجُومَ.١٧وَجَعَلَهَا اللهُ فِي جَلَدِ السَّمَاءِ لِتُنِيرَ عَلَى
الأَرْضِ،١٨وَلِتَحْكُمَ عَلَى النَّهَارِ وَاللَّيْلِ، وَلِتَفْصِلَ بَيْنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ. ... وَقَالَ اللهُ:
"لِتَفِضِ الْمِيَاهُ زَحَّافَاتٍ ذَاتَ نَفْسٍ حَيَّةٍ، وَلْيَطِرْ طَيْرٌ فَوْقَ الأَرْضِ عَلَى وَجْهِ جَلَدِ
السَّمَاءِ".٢١فَخَلَقَ اللهُ التَّنَانِينَ الْعِظَامَ، وَكُلَّ ذَوَاتِ الأَنْفُسِ الْحَيَّةِ الدَّبَّابَةِ الْتِى فَاضَتْ بِهَا
الْمِيَاهُ كَأَجْنَاسِهَا، وَكُلَّ طَائِرٍ ذِي جَنَاحٍ كَجِنْسِهِ. .. وَبَارَكَهَا اللهُ قَائِلاً: "أَثْمِرِي وَاكْثُرِي
وَامْلإِي الْمِيَاهَ فِي الْبِحَارِ. وَلْيَكْثُرِ الطَّيْرُ عَلَى الأَرْضِ"...٢٤وَقَالَ اللهُ: "لِتُخْرِجِ الأَرْضُ
ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا". وَكَانَ
كَذلِكَ.٢٥فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ
الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا... ٢٦وَقَالَ اللهُ: "نَعْمَلُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِنَا كَشَبَهِنَا، فَيَتَسَلَّطُونَ عَلَى
سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى الْبَهَائِمِ، وَعَلَى كُلِّ الأَرْضِ، وَعَلَى جَمِيعِ الدَّبَّابَاتِ
الَّتِي تَدِبُّ عَلَى الأَرْضِ".٢٧فَخَلَقَ اللهُ الإِنْسَانَ عَلَى صُورَتِهِ. عَلَى صُورَةِ اللهِ خَلَقَهُ. ذَكَرًا
وَأُنْثَى خَلَقَهُمْ.٢٨وَبَارَكَهُمُ اللهُ وَقَالَ لَهُمْ: "أَثْمِرُوا وَاكْثُرُوا وَامْلأُوا الأَرْضَ، وَأَخْضِعُوهَا،
وَتَسَلَّطُوا عَلَى سَمَكِ الْبَحْرِ وَعَلَى طَيْرِ السَّمَاءِ وَعَلَى كُلِّ حَيَوَانٍ يَدِبُّ عَلَى
الأَرْضِ".٢٩وَقَالَ اللهُ: "إِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُكُمْ كُلَّ بَقْلٍ يُبْزِرُ بِزْرًا عَلَى وَجْهِ كُلِّ الأَرْضِ، وَكُلَّ
شَجَرٍ فِيهِ ثَمَرُ شَجَرٍ يُبْزِرُ بِزْرًا لَكُمْ يَكُونُ طَعَامًا.٣٠وَلِكُلِّ حَيَوَانِ الأَرْضِ وَكُلِّ طَيْرِ

السَّمَاءِ وَكُلِّ دَبَّابَةٍ عَلَى الأَرْضِ فِيهَا نَفْسٌ حَيَّةٌ، أَعْطَيْتُ كُلَّ عُشْبٍ أَخْضَرَ طَعَامًا". وَكَانَ كَذلِكَ] .

بالاستناد إلى ذلك كله ، صدرت القوانين الناظمة لشؤون البشر و شرائعهم الدينية و غير الدينية و مفاهيم الأخلاق و معاييرها . و أصبحت تلكم القوانين و الشرائع ، قواعد عامة يسير عليها الناس ، و كل من يخالفها يتعرض للعقاب العاجل أو الآجل ، قانونياً أو دينياً ، هذا بالإضافة إلى ما يلحقه من سمعة سيئة و أذىً اعتباري معنوي يناله و يُعاب عليه من قِبل الناس و عموم المجتمع ، كونه قد شكّل خرقاً للوضعية الافتراضية المعيارية التي يسير عليها المجتمع و يعاقب بموجبها القانون . و النتيجة تكون بتطبيق العقاب الملائم المتوافق مع نوع هذا التصرف و هو ما يكون عادة الحبس أو السجن و هي العقوبة الأشهر تاريخياً . أو الجَلد و الضرب و الإيذاء بمثل ما تصرف به الشخص المخالف الذي يكون قد أوقع الأذى بغيره ، سواء أكان مادياً أم معنوياً .

هذا التصرف أو الخرق للأوضاع و القواعد الافتراضية المجتمعية [١] يُعرف اجتماعياً بـــ (الشذوذ) و في الأديان السماوية عُرِفَ ذلك بـــ (الفسق) . و الفسق لغة هو [٢] .. الخروج عن الاستقامة و الخروج عن الأمر . و الفسق هو العصيان و الترك لأمر الله عز و جل و الخروج عن طريق الحق و هو الميل للمعصية (انتهى) .

و قد وردت شواهد كثيرة على مفهوم الفسق في الأديان السماوية . ففي القرآن الكريم جاء ..

---

[١] المقصود هنا في مبحثنا هذا ، هو الإنسان و المجتمع ما لم يُشار إلى خلاف ذلك .

[٢] انظر معجم لسان العرب مادة (فسق) .

{ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ } [الكهف : ٥٠] .

{ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ } [البقرة : ٩٩] .

{ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ } [المائدة : ٤٧] .

و في التوراة ..

[لأَنَّ اخْتِرَاعِ الاصْنَامَ هُوَ أصِلَ الْفِسْقِ وَ وِجْدَانِهَا فَسَادٍ الْحَيَاةِ] (الحكمة ١٤ : ١٢) .

[لأَنَّ الأَرْضَ امْتَلأَتْ مِنَ الْفَاسِقِينَ. لأَنَّهُ مِنْ أَجْلِ اللَّعْنِ نَاحَتِ الأَرْضُ. جَفَّتْ مَرَاعِي الْبَرِّيَّةِ، وَصَارَ سَعْيُهُمْ لِلشَّرِّ، وَجَبَرُوتُهُمْ لِلْبَاطِلِ] (إرميا ٢٣ : ١٠) .

أما الشذوذ لغة ، فهو [١] .. شذّ و يشذ ، انفرد عن الجمهور . و الشاذ هو الذي يكون مع الجماعة ثم يفارقهم و هو المتنحِّ . و كل شيء منفرد هو شاذّ . و الشاذّ هو القليل أيضاً ، يُقال .. جاؤوا شذاذً أي قلالاً . و شذّاذ الناس أي الذين يكونون في القوم ليسوا من قبائلهم و لا في منازلهم . و شذاذ الناس ، متفرقوهم . و شذاذ الإبل ، ما افترق منها (انتهى) .

إذن .. و من كل ما سبق ، يمكن تعريف الشذوذ أو الفسق بالمختصر المفيد أنه .. **الخروج عن الافتراضي المعياري و الشاذ هو المخالف المنكَر القليل ، و باختصار .. هو الاستثناء** . و بناء عليه ، فإن كل جنحة أو جريمة أو عمل أخلاقي شائن ، هو بمترلة فسق و شذوذ .

[١] انظر لسان العرب ، مادة (شذذ) .

و كما ذكرنا من قبل ، فإن عقوبتي السجن و القصاص الجسدي من جَلْدْ و ضرب أو إعدام ، كانتا أشهر عقوبتين في التاريخ ، لمعالجة ظواهر الفسق و الشذوذ . و هاتان العقوبتان مثلتا حالتين متباينتين لكنهما تكملان بعضهما بعضاً هما .. حالة الحجر و حجز الحرية أو التحفظ على الشخص الشاذ الفاسق ، و حالة الردع لهذا الشخص و لغيره ممن تسول لهم أنفسهم القيام بمثل ما قام به . و كلتا الحالتان هما من حيث المبدأ الافتراضي ، صحيحتان و صحيتان في آن . فالشخص الشاذ الفاسق ، لا بد من حجره و التحفظ عليه و حجز حريته لمدة معينة تقصر أو تطول و يستخدم خلالها بالأعمال الشاقة ، حتى يبرأ من فعلته تلك و يتعظ منها و لا يعود لمثلها أبداً . و من جهة أخرى ، فإن إنزال العقاب الصارم و المستحق لجنحة الشذوذ و الفسق و العصيان تلك ، بدءاً من التعزير مروراً بالجلد و الضرب و انتهاء بحكم الموت ، هو ردع للشخص و لأمثاله و لغيره ، من القيام بذلك الفعل و بخاصة إذا ما كان العقاب يتم تنفيذه أمام النظّارة و الجمهور و في الساحات و الميادين العامة و هذا ما كان يحصل عبر التاريخ و هو إجراء يصب في خدمة المجتمع و صيانته حتماً و هو ما أيدته الأديان السماوية و أكدت عليه و تناولته في مضامينها و شرائعها . جاء في القرآن الكريم ..

{ الْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ } [البقرة : ١٩٤] .

{ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى } [البقرة : ١٧٨] .

{ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة : ١٧٩] .

{ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [المائدة : ٣٣] .

و في التوراة ..

[فَاسْمَعْ أَنْتَ مِنَ السَّمَاءِ وَاعْمَلْ، وَاقْضِ بَيْنَ عَبِيدِكَ إِذْ تُعَاقِبُ الْمُذْنِبَ فَتَجْعَلُ طَرِيقَهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَتُبَرِّرُ الْبَارَّ إِذْ تُعْطِيهِ حَسَبَ بِرِّهِ] (أخبار الايام الثاني ٦ : ٢٣) .

[وَأُعَاقِبُ الْمَسْكُونَةَ عَلَى شَرِّهَا، وَالْمُنَافِقِينَ عَلَى إِثْمِهِمْ، وَأُبَطِّلُ تَعَظُّمَ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَأَضَعُ تَجَبُّرَ الْعُتَاةِ] (إشعياء ١٣ : ١١) .

و في الإنجيل ..

[لِيَصْنَعَ دَيْنُونَةً عَلَى الْجَمِيعِ، وَ يُعَاقِبَ جَمِيعَ فُجَّارِهِمْ عَلَى جَمِيعِ أَعْمَالِ فُجُورِهِمُ الَّتِي فَجَرُوا بِهَا] (يهوذا ١ : ١٥) .

كما جاء التأكيد على مفهوم الردع و مفهوم إشاعة الفعل و أن يكون العقاب علنياً . جاء في القرآن ..

{ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } [النور : ١٩] .

{ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ } [النور : ٢] .

مما سبق ، يمكن القول .. إن الشذوذ هو حالة تقع ضمن جدلية ثنائية طرفية قوامها (الشاذ – الافتراضي) ، (المنكَر – المعروف) . و الشذوذ مرتبط حتماً

بالعلاقة الجدلية التضادية ، مع الافتراضية . و لا يمكن القول بشذوذ دونما وجود حالة افتراضية تقابله .. يقاس بموجبها و عليها . فهو بالأساس مشتق عن حالة افتراضية لكن منشق عنها و معاكس لها . و الشذوذ الذي هو صيغة من صيغ عدة إحداها ما يسمى بــ (المنكَر) من الاستهجان و عدم القبول المنطقي العقلاني ، يقابلها في المقلب الافتراضي ما يُسمّى بــ (المعروف) أي المتعارف عليه المقبول و هما ما جاءا في القرآن الكريم مرتبطان بعضهما مع بعض ..

{ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران : ١٠٤] .

{ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ } [التوبة : ٦٧] .

{ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ } [التوبة : ١١٢] .

{ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ} [الحج : ٤١] .

{ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ } [لقمان : ١٧] .

فاللواطة على سبيل المثال التي هي نوع من الشذوذ الجنسي جاءت في القرآن الكريم تحت مسمى المنكر . { أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ } [العنكبوت : ٢٩] .

و يلاحَظ أن (المعروف) قد جاء بصيغة القبول و الوجوب ، بينما المنكر قد جاء بصيغة الرفض و النهي . و في التوراة جاء ..

[يَزَلْ الْغَنِيّ فَيُعَيّنُهُ كَثِيْرُوْنَ يَتَكَلّمُ بِالْمُنَكّرَاتِ فَيُبَرّئُونَهُ] (سيراخ ١٣ : ٢٦) .

[مَنْ يَرْحَمُ الْفَقِيرَ يُقْرِضُ الرَّبَّ، وَعَنْ مَعْرُوفِهِ يُجَازِيهِ] (الامثال ١٩ : ١٧) .

[تَفْتَحُ فَمَهَا بِالْحِكْمَةِ، وَفِي لِسَانِهَا سُنَّةُ الْمَعْرُوفِ] (الامثال ٣١ : ٢٦) .

[هَاتُوا مِنْ أَسْبَاطِكُمْ رِجَالاً حُكَمَاءَ وَعُقَلاَءَ وَمَعْرُوفِينَ، فَأَجْعَلُهُمْ رُؤُوسَكُمْ] (التثنية ١ : ١٣) .

قلنا أن الافتراضية المعيارية كمفهوم ، هي ذات مبدأ تراتبي في هذا الكون ، و من ضمنه الطبيعة و الكائنات الموجودة في الأرض ، و القوانين و التشريعات الموضوعة من قبل الإنسان و الأعراف المتلازمة معها . و إن مبدأ التأثير فيها هو مبدأ هرمي ، و حامل قوته ذو اتجاه واحد .. من الأعلى إلى الأسفل . فالمرتبة الأعلى هي التي تتحكم بما دونها من مراتب و هي السيدة عليها . و أي تغيير يقع عليها ، يقع على ما دونها حتماً .

أما التغيير فيها فإنه لا يقع و لا يصح إلا من خلال المرتبة الأعلى منها و قبولها هي أو حيثياتها لذلك ، أو حصول خلل ما أو شذوذ أو تغيير فيها . و إذا ما حصل أي خلل أو شذوذ فيها دون موافقة و قبول الأعلى أو تهيئة لحدوث هذا التغيير ، فإنه يُصار إلى إعادة تصحيح هذا الشذوذ ، سواء بقوة القوانين و التشريعات التنفيذية القاهرة الناظمة ، أو بحكم القوانين الطبيعية الافتراضية القاهرة بدورها على مبدأ الآية القرآنية ..

{ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا } [الفتح : ٢٣] .

فعلى سبيل المثال .. إذا شذّ شخص ما و فسق عن أعراف المجتمع الافتراضية التي تقضي بحرمة التعدي على أملاك الغير و قام بجنحة السرقة ، فإن قوانين هذا المجتمع و شرائعه الدينية و أعرافه ، توقع به العقوبة و القصاص اللازمين المستحقين لذلك و تمنعه من تكرار ذلك مستقبلاً و تؤهله نفسياً و صحياً و مادياً للعودة إلى وضعه الطبعي المتوافق مع تلك القوانين و الأعراف الافتراضية المعيارية . و في الوقت نفسه تردع غيره من القيام بهذا الفعل الشاذ عرفياً و أخلاقياً و دينياً .. الخ .. الماء مثلاً هو عبارة عن سائل في الوضع الافتراضي العام الذي تكون فيه درجة الحرارة فوق الـــ صفر درجة مئوية ، لكنه أيضاً يتجمد عند درجة الـــ صفر مئوية و ما دون إذا كان الوسط و الجو المحيط فيه ضمن هذا النطاق من درجات الحرارة . فإذا كان الطقس حاراً أو دافئاً و تم وضع الماء في ثلاجة مثلاً فإنه يتجمد فيها نتيجة شذوذ ميكانيكي حراري ، هو الثلاجة نفسها . و لا يعود الماء إلى وضعه الافتراضي السائل إلا عندما يُزال هذا الشذوذ كأن يتم إخراجه من الثلاجة أو يتم إيقافها عن التبريد و فصل مصدر الطاقة عنها . كذلك الأمر إذا وُضِع الماء على مرجل حراري فإنه يغلي و يتحول إلى بخار و لا يلبث أن يعود إلى وضعه الطبيعي السائل بعد تعرضه للهواء البارد . و ما ظاهرة هطول الأمطار و الثلوج إلا نتيجة لهذه الجدلية الافتراضية المتعلقة بالماء .

إذن .. فإن العامل الأعلى أو الكلي أو المحيط ، هو الذي يتحكم بما هو أدنى أو جزء أو محتوى .. بالافتراض أو بالشذوذ . و يصح القول هنا إن الشذوذ لا يمكن أن يقع إلا نتيجة خرق للافتراضي و قوانينه نتيجة قوة قاهرة أو خلل حادث يعطل الوضع الافتراضي الأعلى مرتبة و الأكبر إحاطة و الأكثر كلّية .

من هنا .. يأتي المنطق الثاني ليناقش القضية برمتها و يقول .. إن الشذوذ لا يمكن أن يحصل طالما أن الوضع و العامل الافتراضي الأعلى منه و المهيمن عليه ، موجوداً و قيد التفعيل . و إذا حصل ، فإنه بأسوأ الأحوال لا يمكن له أن يستمر . لكن ماذا لو أُزيلَ هذا العامل الافتراضي المذكور سابقاً أو تم تعطيله أو حجبه ، هل يبقى هذا الشذوذ شذوذاً ؟؟!! و هل تصح تسميته كذلك ؟؟!! و هل من المفترض الدائم اللازب أن يرتبط الفعل الجرمي ، بتعدد أنواعه (سرقة – اغتصاب – قتل .... الخ) بشخص الفرد الفاعل ، فيتم الحديث عن توصيف جرم معين و حصره بمرتكبه المباشر ، و تحديد العقوبة التي تقع على فاعله أو مرتكبه المباشر ، حصراً ؟؟!! و لماذا نلاحظ دائماً كيف أن القانون البشري الوضعي قد نحا المنحى عينه المذكور آنفاً .. و مما يلاحظ في حيثياته و بنوده .. من قتل ، يعاقب بكذا .. من سرق تقع عليه عقوبة كذا .. من زنى .. من .. إذا قام شخص بفعل كذا يعاقب بكذا . حتى الحوادث التي لا يقوم بها أو يتحمل مسؤوليتها أشخاص بعينهم .. جُيّرت عواقبها و نتائجها إلى أشخاص محددين بشكل منفرد ، و بالأحوال عامة ، يتم تحاشي الكثرة أو الجماعة أو النخبة .. و بالأحوال كافة ، يتم تحاشي المجتمع كمسبب أو دافع رئيس في جريمة من الجرائم أو كبيرة من الكبائر ؟؟!! كما أن هذه القوانين بعمومها و مجموعها ، قد تحاشت المساس بالأعراف الاجتماعية ، إلا فيما ندر و ضمن حالات استثنائية معينة استوجبتها ضرورة التغيير المرتبطة بالعامل الخارجي أو الظروف القاهرة . إذ أضحى من المعلوم الواضح ، أن الأعراف الاجتماعية لا يتم تغييرها إلا تحت ظرف القوة القاهرة و بعد مقاومة عنيدة قد تمتد لفترات زمنية طويلة أحياناً . فأصبحت العلاقة بين الأطراف الاجتماعية و القوانين الوضعية ، هي علاقة ثنائية يبرز فيها

الفرد كطرف أوحد لجهة ارتكاب الجرم و يظهر مبتوراً عن كل عوامل و مسببات ارتكابه لجرمه الذي اقترفه .

إذن .. لقد تمخضت نتيجة الصياغة القانونية المذكورة سالفاً و المنحصرة بالثنائية الطرفية (جرم – شخص فرد) ، عن تجيير جرائم كثيرة بالتاريخ ، إلى شخص واحد .. جرائم ذهب ضحيتها الملايين .. جرائم باقية على مدار الزمن و تُفتعل كل يوم ، من قتل و سرقة و نهب و زنا و اغتصاب و تعدٍ على الحقوق و الممتلكات .. كلها تُحال مسؤوليتها إلى فرد واحد و الذي هو الفاعل المباشر ، حيث تختصر أبعادها و مفاعليها و مسبباتها كلها ، في هذا الفرد ، و بالتالي التغافل عن مسببات الجرم الرئيسة . و في حال التطرق إلى مسببات الجرم ، فإنها في حدودها القصوى ، لا تتعدى الشخص نفسه . حتى الدراسات و البحوث الاجتماعية أو القانونية التي يقوم بها البعض ، لا تتخطى مجال العلاقة السابقة ، و تبقى محصورة في نطاق ثنائية (جرم – فرد) أو مصطلح .. الفرد الشاذ . أما المجتمع كوحدة أو طرف اعتباري منفصل بذاته ، فإنه لا يُذكَر بل يستعاض عنه بذكر حالات اجتماعية دون الوقوف على أسبابها و عوامل و دوافع حصولها التي تكون في بعض الأحيان عبارة عن أعراف اجتماعية .

ألم تتناول الأديان السماوية هذه النقطة منبهة منها و محذرة عندما تحدثت عن مسؤولية الجماعة أكثر من الفرد و مسؤولية النخبة أكثر من العامة ، في الإصلاح و الإفساد في المجتمع حيث جاء في القرآن الكريم ..

{ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ } [النمل : ٤٨] .

{ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة : ٧٧] .

{ وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ} [الأعراف : ١٥٩] .

{ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال : ٥٣] .

{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ } [الرعد : ١١] .

{ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ } [الحجر : ٥٨] .

{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ } [الأعراف : ٦٦] .

{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا } [الأعراف : ٨٨] .

{ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ } [القصص : ٢٠] .

و في التوراة جاء ..

[حَتَّى إِنَّ جَمِيعَ رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالشَّعْبِ أَكْثَرُوا الْخِيَانَةَ حَسَبَ كُلِّ رَجَاسَاتِ الأُمَمِ، وَنَجَّسُوا بَيْتَ الرَّبِّ الَّذِي قَدَّسَهُ فِي أُورُشَلِيمَ] (أخبار الايام الثاني ٣٦ : ١٤) .

[وَكَانَتْ يَدُ الرُّؤَسَاءِ وَالْوُلاَةِ فِي هذِهِ الْخِيَانَةِ أَوَّلاً"] (عزرا ٩ : ٢) .

[قَامَ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَتَآمَرَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ] (المزامير ٢ : ٢) .

و في الإنجيل جاء ..

[قَامَتْ مُلُوكُ الأَرْضِ، وَاجْتَمَعَ الرُّؤَسَاءُ مَعًا عَلَى الرَّبِّ وَعَلَى مَسِيحِهِ] (أعمال الرسل ٤ : ٢٦) .

[كَيْفَ أَسْلَمَهُ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَحُكَّامُنَا لِقَضَاءِ الْمَوْتِ وَصَلَبُوهُ] (لوقا ٢٤ : ٢٠) .

إن الوضع الافتراضي لأي مجتمع من المجتمعات ضمن نظام أي دولة من الدول ، يتجسد في تأمين الحد المتوسط من احتياجات الفرد الحياتية فيه ، من مأكل و مشرب و مسكن و دخل متوسط و كرامة محفوظة ، و تأمين الاحتياجات الاجتماعية من زواج و إشباع بقية الغرائز الإنسانية الفطرية بالطرق الشرعية العرفية من تسلية و ترفيه و منافع جانبية مكملة إضافة إلى العدالة الاجتماعية و سيادة القانون على ما عداه ، و الحريات العامة و الشخصية و توفير ثقافة و تعليم متوسطين .

هذه العوامل و المتطلبات الافتراضية ، إذا ما تم توافرها و تأمينها في مجتمع من المجتمعات ، فإنها تلغي عوامل و مظاهر الشذوذ فيه ، أو بأسوأ الأحوال تحجّمها إلى المستويات الدنيا و تجعلها ضمن الأطر الضيقة المحدودة . و أي تصرف شاذ يحصل في المجتمع أو يتأتى من أحد أفراده ، يكون نتيجة خلل نفسي داخلي أو مرض أو سوء تربية . و لا يعدو كونه استثناء يتم تطويقه و معالجته و التعامل معه حسب الأعراف و المقتضيات القانونية و الشرعية .

أما إذا اختل الوضع الافتراضي ، و هو خلل عادة بالغالب الأعم ما يكون بفعل فاعل قاصد متعمد و نتيجة لمقدمات الفساد و حب الذات و الأنانية ، و بشكل واضح أدق .. شذوذ النخب و المستويات العليا من الهرم الاجتماعي و السياسي و الديني أو ما يسمى اليوم بـــ .. الملأ . و في علوم الاجتماع و السيكولوجية النفسية ، بالإضافة إلى ما يعرف اليوم بـــ (علم الجريمة) فإن معظم الجرائم و

الجنح و التصرفات الشاذة المخلة بالأمن و الأخلاق و الآداب العامة ، تصبح ذات منبت اجتماعي في أساسها . و تعود مسبباتها بالدرجة الأولى إلى الفقر و الجهل و الفساد و الظلم الاجتماعي باختلاف أنواعه . و الموطن الغالب لهذه الفعال الشاذة هو الأحياء الفقيرة و المناطق أو التجمعات المهمَلة و التي لا تحظى بأدنى اهتمام من الدولة و لا تتوافر فيها الخدمات الاجتماعية و الصحية و التعليمية ، فتكون تبعاً لذلك كله ، بؤرة لكل الجرائم و الجنح و المنكرات الشاذة ، الاجتماعية منها و الأخلاقية و بالذات تلك التي تنخفض فيها سويات التعليم و الثقافة إلى أدنى حد ، فضلاً عن انتشار البطالة و السبب كما قلنا .. عاملي الفقر و الجهل . فالفقر يدفع الإنسان مضطراً إلى تحصيل رزقه بأية وسيلة كانت على المبدأ القائل (الجوع كافر) لأن الاضطرار يدفع المرء دفعاً إلى ردة فعل تكون أحياناً بغير إرادته . و هو تصرف قد يكون مبرراً ضمن حيثيات القوانين و الأعراف و حتى الأديان ، على مبدأ الآية القرآنية ..

{ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ } [البقرة : ١٧٣] .

أما عامل الجهل ، فهو الخطر الذي يجعل المرء لا يميز فيما بين الشاذ و المعروف أو الطيب و الخبيث . ثم يأتي بعد ذلك كله ، الفساد و هو الخطر الأكبر و الذي يتأتى تحديداً من الملأ الأعلى و بالتالي يكون التغيير هنا ، من العامل الافتراضي المعياري الكلي الأعلى . و كلمة (معياري) هي هنا في محلها الصحيح تماماً لأنه بموجب ذلك تتم معايرة جميع السويات الأخرى طبقاً للوضع الأعلى . و ذلك على مبدا المثل القائل (الناس على دين ملوكها) و على مبدأ الآية القرآنية ..

{ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ } [النمل : ٣٤] .

إن تحميل الجريمة (للمجرم الفرد) بكل عناصرها و دوافعها و حيثياتها ، أضحى الآن أمراً لا يستقيم ، بكافة معايير الحضارة و الرقي و التطور الذي تعيشه البشرية من جهة ، و الأحداث السلبية الأليمة (حروب و مذابح) من جهة ثانية . و التطور الكمي و النوعي الأفقي و العمودي للآلة الإعلامية المقروءة و المسموعة و المرئية . و نشوء المنظمات العالمية الإنسانية و الهيئات الاجتماعية العالمية التي تعنى بالإنسان و الدولة و القانون و المجتمع و التعليم و الصحة و التوعية ، من جهة ثالثة . لأن ذلك التوصيف الحاصل ، يستوجب بداهة إدراك المسببات الحقيقة الفعلية و الأصلية لأي حالة من حالات المجتمع و حوادثه . فالعديد من الجرائم التي ترتكب و التي تتلبس لبوس الفردية ، هي في أساسها ذات بيئة و منبع و دافع حالات و أعراف اجتماعية تسود المجتمع و المجتمع مسئول عنها بالدرجة الأولى . فالشخص الذي يغتصب فتاة قاصر ، هو مجرم بالتأكيد و لكن ... ليس ذئب بشري أو وحش أو غيره لأنه بكل بساطة هو شخص مكبوت جنسياً لم يوفر له المجتمع سبل إفراغ طاقته الجنسية بالطرق المشروعة لأن المجتمع نفسه هو مجتمع كبت جنسي . و أي شخص قد يكون معرضاً لفعل ما فعله هذا الشخص إذ ما تعرض للظروف و الضغوط و الكبت الذي يعيشه و يعانيه ذلك الجانح الموبق . و هنالك العديد من الدراسات الاجتماعية تشير إلى أن اللواطة و السحاقية تنتشر بكثرة في المجتمعات ذات الكبت الجنسي و بنسب مرتفعة جداً في بعض الحالات . نقرأ في قسم الحوادث لبعض الجرائد و الصحف مقال مثل .. (فلان شابّ عاطل عن العمل و لم يجد دخل يعيش منه و يتزوج و ليس له بيت .. و طرده أبوه أو عمه من المترل فلجأ إلى الشوارع و ساقته نفسه المريضة إلى السرقة و أغرته شهواته الدنيئة إلى الزنا و ارتكاب الفاحشة أو المخدرات) .. المصيبة أن

الصحفي المحرِّر للحادثة يبرر للشخص فعلته تماماً ، و إذا كان يبرر له فعلته فلماذا يلومه و ينعته بصفات قاسية ؟؟!! و لماذا يتجاهل التربية الفاسدة التي طالت هذا الشخص و الأعراف الاجتماعية أو الحالة الاقتصادية التي ساقته مضطراً إلى ارتكاب فعلته ؟؟!!.. أليس هو مجرم ضحية لمجتمع مجرم ؟؟ . و يبقى السوآل الكبير هنا .. هل الشخص الذي يقتل لأجل عرف اجتماعي فاسد و بالٍ و موجود منذ مئات السنين .. هل هو مجرم حقاً ؟؟!! أم المجرم هو العرف ؟؟!! من المسئول عن هذه الدوافع الفكرية الإجرامية لهذا الشخص أو ذاك ؟؟ أليس المجتمع ممثلاً بالأعراف الفاسدة ؟؟!! .

عندما يكون هنالك محاولة لتغيير عرف اجتماعي أو حالية اجتماعية سيئة و ضارة بالمجتمع و يتم إجهاض المحاولة بدعم و جهل شرائح اجتماعية معينة و تهديدها بإثارة المشاكل في حال التغيير . أو خوف من الشرائح الأخرى المقابلة ... يمكن القول أن المجتمع يمثل حالة و بيئة إجرامية .. و ما بعض المجتمعات التي تسود فيها الجريمة بشكل كبير جداً ، إلا حالة مجتمع مجرم . و أحد الأمثلة على ذلك هو مجتمع الجريمة المنظمة الذي تكون فيه الجريمة المنظمة حالة شرعية و مقبولة من معظم الشرائح .. أليس هذا المجتمع هو مجتمع جريمة و هو المجرم الأكبر ؟؟!! .

إن نظرية العقد الاجتماعي التي تناولت علاقات الأفراد و تناولت تشكيل المجتمع و السلطة التنفيذية كانت للأسف علاقة ثنائية تبادلية بين طرفين اثنين .. السلطة و الفرد .. اللذان يشكلان أساس و عماد المجتمع .. هذه النظرية التي كانت ابتكار و حدث مهم في تاريخ البشرية كونها تمثل أساس و ضمان النظام و الأمن في المجتمع ، كان يجب أن تتناول المجتمع أيضاً بوصفه حالة أو جهة اعتبارية ..

كان يجب اعتبار المجتمع طرفاً مادياً ثالثاً .. لكن المشكلة أن تم اعتباره حاوي و مستوعِب بدلاً من أن يكون طرفاً . و هنا لب القضية و سر الموضوع .

عندما يصل فساد الملأ الأعلى في المجتمع إلى قمة الفساد و الخلل ، يصبح الشذوذ عرفاً معروفاً و المعروف شذوذ منكراً بموجب المثل القائل **(الناس على دين ملوكها)** و هو مصداق الآية القرآنية التالية التي تتحدث عن الشذوذ و الفسق الذي وصل بقوم لوط و ملأهم إلى الحد الذي اعتبروا فيه أن كل من يخالفهم فيه و ينهاهم عنه ، هو الشاذ بعينه {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ} [النمل : ٥٦] .

السرّي و المعُلن

إن مبدأ و مفهوم السرية و التكتم ، يعود بنظرنا في أصوله الأولى إلى بداية وجود الإنسان نفسه . و لعل القضية في أساسها ، لها مبدأ حيواني ، فالإنسان القديم الذي كان يصطاد طرائده ، لا بد أنه كان يلاحظ كيف أن الحيوانات المفترسة عندما تصطاد فرائسها ، تقوم بإخفائها عن أعين أقرانها من الحيوانات المفترسة الأخرى حال الشبع ، فإما أن تدفنها في بعض الأماكن أو تقوم بسحبها إلى الأشجار العالية أو جرّها إلى أماكن مخفية مموهة لا ترى بالعين المجردة .

و الغاية الأساس من ذلك كله ، هي الحفاظ على الفريسة من الحيوانات الأخرى و منعها مشاركة الحيوان المفترس الذي اصطادها ، و من ثم العودة إليها مرة أخرى عند الجوع لالتهام ما تبقى منها . و بما أن الإنسان كان معرَّضاً هو الآخر بدوره للهجوم من بعض الحيوان المفترس ، فإنه كان يختبئ في الكهوف و المغاور و يخفي نفسه فيها . و لا بد أنه كان يلاحظ كيف تقوم بعض الحيوانات بالاختباء و التخفي و التمويه من بعض الحيوانات المفترسة الأخرى أو منه هو نفسه ، و تقوم بعملية إخفاء و تمويه دقيقة محكمة . و لا شك أيضاً أنه كان يلاحظ أن الكهوف و المغاور التي كان يأوي ملتجأً إليها و تحجبه عن العالم الخارجي ، هي موطن الدفء و الأمان و الحماية .

و بوجه آخر .. اصطلاحي معنوي ، فإن ذلك كله ، كان له مسميين ارتبطا بعضهما ببعض و شكلا ثنائية جدلية هي (السرية – النفعية) فالسرية هنا في هذا المقصد ، كانت لأجل النفعية المادية البحتة لا لأجل شيء آخر و من هنا ، يمكن تأسيس إحدى نقاط الارتكاز للسرية و مفهومها و نستطيع القول إن الوضعية الافتراضية المعيارية لمبدأ و مفهوم السرية ، كان أحد وجوهها هو .. النفعية المادية البحتة .

غير أن مبدأ السرية هذا ، لا بد من أن يكون له بُعد آخر أيضاً غير البعد أو الجانب المادي الوجودي في الطبيعة المحيطة و كائناتها الموجودة مع الإنسان ، و هو الجانب الروحي الميتافيزيقي . فهذا الإنسان الذي نظر إلى السماء و النجوم و قوى الطبيعة ، و بحث عن الإله الذي أحس بوجوده و أحس أنه بحاجة إليه و أراد أن يراه لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً . ثم جاءت الأديان السماوية لتطرح هذه المقولة و تصرح عنها جهاراً عندما أعلنت عن وجود إله واحد خفي لا يُرى بالعين المجردة و لا يمكن حتى تصوره أو تخيله و لا يمكن تشبيهه بشيء و من مصداق ذلك في القرآن ..

{ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ } [الشورى : ١١] .

{ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ } [الأنعام : ١٠٣] .

{ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } [الأعراف : ١٤٣] .

و في التوراة جاء ..

[وَقَالَ: لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لأَنَّ الإِنْسَانَ لاَ يَرَانِي وَيَعِيشُ] (الخروج ٣٣ : ٢٠) .

و فضلاً عن ذلك ، فإن عامل الفضول و الاستكشاف ، هو بحد ذاته وجه آخر من وجوه السرية لأنه يعني البحث عن المجهول و المخفي و الكشف عن المستور . و ذلك كله يمثل خصيصة من خصائص النفس البشرية . كانت هذه هي البدايات الأولى لمفهوم السرية الذي ظهر مع ظهور الإنسان نفسه و شكّل بالنسبة إليه أثافٍ اصطلاحية مبدأية هي (الخوف – الإخفاء – المنفعة) .

لكن و على ما يبدو ، فإن مفهوم السرية هذا في بداية أمره ، قد ترافق و تطور عبر التاريخ البشري ، مع منظومتين اثنتين .. المنظومة الاجتماعية و المنظومة الفكرية للإنسان . و من ثم ترافق بعد ذلك مع كل تطور آخر رافق مسيرة التاريخ البشري . و السبب في ذلك ، واحد بسيط و هو أن السرية هي صفة أساس من الطبيعة البشرية ، بدأت مع الإنسان و لازمته .

فالتطور الفكري الذي طرأ على الإنسان باختراعه اللغة و من بعدها الكتابة ، رافقه أيضاً تطور لمفهوم السرية و ارتباطه بهما . كذلك الحال مع التطور الاجتماعي الذي طرأ على الإنسان بظهور نظام الجماعة و من ثم المجتمع و الدولة، رافقه أيضاً تطور مفهوم السرية و ارتباطه معه . و من هذين المفهومين انسحب مفهوم السرية إلى الأمرين الديني و السياسي .

فمن الناحية الفكرية ، عمد الإنسان إلى السرية في مواقف معينة و ذلك باتخاذه اللغة و الكتابة أداة للسرية فاخترع لذلك الرموز الصوتية و الرموز المكتوبة ضمن

نطاق ما يُعرَف بـــ (التشفير) أو ما عُرف فيما بعلم (السيمياء) . كذلك الأمر أفرز التطور الاجتماعي منظومات اجتماعية سرية كبعض الجماعات و المنظمات السرية ، و هو أمر ارتبط بالغالب الأعم و بشكل تلقائي بالعامل الديني لأن هذه الجماعات أو التنظيمات السرية قد اتخذت الجانب الديني عقيدة لها . أما من الناحية السياسية ، فقد فرضت السرية نفسها من باب العداوات و الخصومات السياسية و الحروب و الغزوات و الصراعات العسكرية و الاستخبارات .. الخ .

إذن .. لقد اتخذ الإنسان السرية ، من تفاعل العوامل الخارجية التي احتك بها و تأثر فيها مع العوامل الداخلية النفسية التي اعتملت في داخله و شكلت جزءاً من نفسيته السيكولوجية .. من تصرفات الحيوانات التي يراها أمامه إلى خوارق الطبيعة و مظاهرها الخارجية المؤثرة القاهرة و الخفية الأسباب مجهولتها ، إلى البحث عن ماهية القوى الخفية أو الآلهة و انتهاء بغرائزه و كوامنه النفسية و العاطفية كالأنانية و حب الذات و احتكار الأشياء و الخوف من الآخر .. من بطشه و ظلمه أو حتى من عدله . و ما مفهوم الخصوصية لدى الإنسان إلا وجه من وجوه السرية ، فالإنسان بطبعه يعمل على إضفاء السرية على كل ما يشكل خصوصية بالنسبة له . فضلاً عن أن كل إنسان هو بالفطرة و بواقع الحياة و اليومية و حوادثها الاجتماعية و غيرها يمتلك أسراره الشخصية التي لا يريد أن يعرفها الغير ربما سوى قلة قليلة ، بغض النظر عن ماهيتها .

و مع تطور الحوادث و الوقائع البشرية تطور مفهوم و مبدأ السرية حتى أضحى يدخل في كل مفصل من مفاصل حياة الإنسان و أعماله و تصرفاته على أي مستوى كان .. الفردي أم الجماعي أم المؤسساتي أم الحكومي أم الدولي أم

الاقتصادي أم التجاري و الصناعي و المالي و حتى الديني و الفكري . و لا يقتصر الأمر عند هذا الحد بل تعدى الأمر إلى أن انتفاء السرية عن مجمل الأنظمة و الكيانات و بعض المنظمات أو التنظيمات ، يؤدي إلى زوالها و تدميرها مباشرة . كما أن هنالك كيانات و تنظيمات لا يمكن أن تنشأ منطقياً و شرعياً و حتى قانونياً و عرفياً إلا على السرية . و في علوم الحيوان و الحشرات ، فإنه من أهم العوامل الحيوية للبقاء على قيد الحياة ، هو عامل التخفي و التمويه . كذلك الأمر في العلوم العسكرية و في الحروب ، يكون عامل السرية و الكتمان و التخفي و التمويه ، من أهم العوامل و أولها لإحراز النصر أو على الأقل اتقاء شر الهزيمة المنكرة . كما أن أجهزة الاستخبارات و علومها هي من أقدم الأجهزة التنظيمية و العلوم التنظيرية في تاريخ البشرية ، و نشأت تقريباً مع نشوء نظام الجماعة و المجتمع .

و مع مرور الزمن ، تطوَرَ مفهوم السرية و أصبح مرتبطاً بمفهوم آخر هو .. الأمن أو الأمان و هو مفهوم أصبح الآن علماً قائماً بحد ذاته و له فروع و أقسام و برامج و كتب و مباحث و مناهج و مراكز أبحاث تنظيرية تقوم لأجله و تؤَسِس له ، و تطوَرَ لدرجة أنه أصبح يدخل في كل مفاصل الحياة اليومية و المفاهيم . فأصبح هنالك أمن المعلومات و أمن الأشخاص و أمن الشركات و أمن الدولة و أمن المجتمع و أمن المنشآت و أمن البيئة ... الخ .

أيضاً يضاف إلى ذلك ، أن السرية استُخدِمت لدى الإنسان كنوع من إضفاء الهالة و الرهبة على طقوس دينية معينة أو جماعات معينة ، فقديماً كان الكاهن الذي هو صلة الوصل بين الآلهة و الإنسان ، كان يتم احترامه لأنه يعرف أسراراً

معينة لا يعرفها غيرها تخوله العمل كوسيط ذو عمولة لقاء ذلك . كذلك كان التكريس الاجتماعي في بعض القبائل الإفريقية يتم في جو من الطقوس السرية لإضفاء مزيد من الهيبة عليه و الاحترام له و التقيد به ، كذلك الأمر فيما عُرف بمبدأ (سر المهنة) القائم على أن يحتكر شخص ما ، معرفة صناعة شيء ما و بيعه دون أن يتمكن غيره من القدرة على تصنيعه ، ما يتيح له إمكانية الاستفادة المادية من سر صناعته إلى الحد الأقصى .

كما أن السرية قد كرّست في الوقت عينه نوع من النظام و التنظيم على بعض الروابط الاجتماعية و الدينية و غيرها. و السبب في ذلك يُعزى إلى أن الإنسان بطبعه يخاف من المجهول و ينقاد له و في أسوا الأحوال لا يتخذ منه موقفاً لا يملك فيه عدّة أو قوة ، حتى يجلو أمره و يتضح له منه بينة معلومة موثوقة . فالمجهول في أحد تعريفاته هو السري ، و السري هو غير المعلوم أي المجهول . و هذا المنهج و الصراط الذي اتبعته هذه القبائل و التنظيمات لا يزال ساري المفعول حتى الآن . كما إن السرية قد تُتخذ أيضاً لضمان الهدوء و عدم الإزعاج من قبل الآخرين أو المتطفلين .. فالشخص الذي يروم الهدوء و راحة البال و القلب ، يرتاد المكان الهادئ المغلق أو المعزول (قلعة أو مقر تحت الأرض) أو الذي لا يمكن الوصول إليه (قمة جبل أو شاهق وعر) أو الخالي من الناس (غابة أو حرش) . كما إن السرية يتم انتهاجها لمنع الأشياء عن غير مستحقيها أو الذين يُخشى أن يسيئوا استخدامها فيتسببون بالأذية لهم و لغيرهم ، أو أن يسيئوا فهمها فيناصبونها العداء عن جهل و غير علم . و هو ما ورد مصداقه في الأديان السماوية . جاء في القرآن الكريم ..

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ } [يوسف : ٥] .

{ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } [التوبة : ٩٧] .

{ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ } [الأنعام : ٨٨] .

{ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ } [القصص : ٥٦] .

{ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ } [غافر : ٢٨] .

و في التوراة جاء ..

[فَقَالَ: "اذْهَبْ يَا دَانِيآلُ لأَنَّ الْكَلِمَاتِ مَخْفِيَّةٌ وَمَخْتُومَةٌ إِلَى وَقْتِ النِّهَايَةِ] (دانيال ١٢ : ٩) .

و في الإنجيل ..

[وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مِنْ ذلِكَ شَيْئًا، وَكَانَ هذَا الأَمْرُ مُخْفىً عَنْهُمْ، وَلَمْ يَعْلَمُوا مَا قِيلَ] (لوقا ١٨ : ٣٤) .

و في الإنجيل أيضاً وردت عبارة مبهمة نوعاً ما .. ربما تدل على مفهوم العلوم السرية الموجبة لمن يستحقها فقط و تشير إلى عضوية في شيء ما و إعطاء هوية سرية جديدة تدل على شيء ما ..

[مَنْ يَغْلِبُ فَسَأُعْطِيهِ أَنْ يَأْكُلَ مِنَ الْمَنِّ الْمُخْفَى وَأُعْطِيهِ حَصَاةً بَيْضَاءَ، وَعَلَى الْحَصَاةِ اسْمٌ جَدِيدٌ مَكْتُوبٌ لاَ يَعْرِفُهُ أَحَدٌ غَيْرُ الَّذِي يأخذ] (رؤيا يوحنا ٢ : ١٧) .

أيضاً هنالك أمور و أشياء تستوجب في حيثيات حدوثها ، إضفاء شيء من السرية المؤقتة عليها لحين إعلانها و طرحها على العلن و بالذات ، في القضايا التي تدخل فيها المنافسة التجارية و براءات اختراع و التصنيع و حقوق الملكية الفكرية و ما يدخل في مجاله سرقة المعلومات و الاتجار بها و ما شابه ذلك . فالشركات الصناعية غالباً ما تلقي بظلال السرية على منتج من منتجاتها أثناء فترة التصنيع ، و عند الانتهاء من ذلك يتم طرحه في الأسواق و الإعلان عنه و ذلك بالتزامن مع حملة إعلامية دعائية لتسويقه . كذلك الأمر في بعض الدراسات و البحوث و الكتب و المؤلفات التي لا يعلن مؤلفها عنها إلا حين اكتمالها . فعلى سبيل المثال .. هذا المخطوط الذي هو الآن بين يدي القارئ الكريم ، قد أُضفيت السرية عليه لحين الانتهاء من تأليفه و إعداده و تنسيقه و من ثم إخراجه بنسخته الورقية و الالكترونية تلك . و بعد ذلك طُرِح في الانترنت و الأسواق بشكل علني .

إن أول ما يواجه الإنسان بخصوص السرية و مفهومها ، يحدث عندما يكون في سن الطفولة المبكرة . فمن ضمن ما يتعلمه الطفل من أشياء و مفاهيم تحيط به ، هو السرية حيث يتم مطالبته بعدم إفشاء معلومات عن أسرته و احترام خصوصيات ما يسمعه و ما يراه في المترل ، و يتم شرح مفهوم السرية له بشكل مبسط عام طفيف الإسهاب . فالسرية كمفهوم و فكرة ، قد دخلت إلى عقلية و ذهنية الإنسان منذ نعومة أظفاره و مع أولى المفاهيم و الأفكار التي يتلقاها عقله و تلقى له من الوسط الخارجي . و نتيجة ذلك بكل بساطة ، هي أن هذا الطفل عندما يكبر ، سوف يتقبل مفهوم السرية دونما أي إشكال أو اعتراض ، بغض النظر عن وجه هذه السرية و مضمونها و غاياتها .

على أن السرية و إن دخلت عقل الإنسان بالوضع الافتراضي و في بداياته الأولى و جاءت بموجباتها المحبذة التي أقرت بها القوانين و الأعراف و الأديان ، فإنها كذلك في الوقت عينه جاءت في وجه من وجوهها بالسلب و النهي و المكروه و تم اعتبارها كأداة أو وسيلة للتآمر و الشر و بشكل أدق .. إخفاء الحقائق و قول الزور و هو ما تُعاقِبْ عليه القوانين البشرية و أعرافها الاجتماعية و كذلك الأديان ، أو إخفاء المعلومات و الحقائق الهامة المفيدة للناس و المجتمع و منها الحقائق الإلهية . و هو ما أكدت عليه الأديان السماوية التي نبهت على تلك الحقائق و وجوب إشهارها لعامة الناس و مجموعهم و عدم التلاعب في هذه الحقائق و تغييرها و هو ما يسمى (الزور) . جاء في القرآن الكريم ..

{ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } [الحج : ٣٠] .

{ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ } [الفرقان : ٧٢] .

{ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المجادلة : ٨] .

{ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ } [المجادلة : ١٠] .

{ بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام : ٢٨] .

{ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ } [الأحزاب : ٣٧] .

{ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : ٤٢] .

{ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ } [البقرة : ١٤٠] .

{ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [البقرة : ١٤٦] .

{ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ } [البقرة : ١٥٩] .

و في التوراة جاء ..

[امّا سرَّ الْمَلِكُ فَخيْرٌ انّ يَكْتُمُ وَ امّا اعْمَالَ اللّهِ فِإذَاعْتِهَا وَ الاعْتِرَافِ بِهَا كَرَامَةَ] (طوبيا ١٢ : ٧) .

[مَنْ يَكْتُمْ خَطَايَاهُ لاَ يَنْجَحُ، وَمَنْ يُقِرُّ بِهَا وَيَتْرُكُهَا يُرْحَمُ] (الامثال ٢٨ : ١٣) .

[وَيْلٌ لِلَّذِينَ يَتَعَمَّقُونَ لِيَكْتُمُوا رَأْيَهُمْ عَنِ الرَّبِّ، فَتَصِيرُ أَعْمَالُهُمْ فِي الظُّلْمَةِ، وَيَقُولُونَ: "مَنْ يُبْصِرُنَا وَمَنْ يَعْرِفُنَا؟] (إشعياء ٢٩ : ١٥) .

[وَ انَا اخْبِرُكُمْ مَا الْحِكْمَةَ وَ كَيْفَ صُدِّرَتْ وَ لا أَكْتُمْ عَنْكُمْ الْأَسْرَارُ] (الحكمة ٦ : ٢٤) .

[امَّا انَا فَاعِلَنْ لَكُمَا الْحَقِّ وَ مَا اكْتُمْ عَنْكُمَا امْرا مَّسْتُوْرا] (طوبيا ١٢ : ١١) .

[كَمْ مَرَّةٍ اسْتَحْلَفْتُكَ أَنْ لاَ تَقُولَ لِي إِلاَّ الْحَقَّ بِاسْمِ الرَّبِّ] (الملوك الاول ٢٢ : ١٦) .

لقد ثبت تاريخياً أن لمفهوم و مبدأ السرية ، وجهين .. واحد شرعي منطقي قانوني موجب الأسباب متضمن المبررات ، و هو بالعموم و الشمول لخير المجتمع و الأفراد و صيانتهم و ذو فائدة ، و بأقل الأحوال لا ضرر فيه البتة . أما الآخر فهو وجه لا شرعي و لا قانوني و لا أخلاقي يحمل صفة الشر و الأذى للناس و المجتمع و ليس فيه أدنى فائدة إلا لأصحابه حصراً .

الوجه الإيجابي الأول ، يكون حكماً ضمن ضوابط شرعية دينية أو قانونية . و طبيعته و وظيفته يفترضان و يستوجبان سريته . و يتميز هذا الوجه بأمرين اثنين .. الأول أنه أمر متعارف عليه من قبل أفراد المجتمع و فئاته و أطرافه ككل ،

فالجميع يعرف أن هذا الشيء أو المفهوم يجب أن يكون سرياً . الثاني .. أن يكون معلَن عنه و عن وجوده بشكل من الأشكال و لو بالجزئي المبسَّط ، بمعنى أن يشكّل جدلية ثنائية هي (سري – معلن) و النسبية بين طرفي هذه الجدلية يحددها قوام هذا الشيء و وظيفته السرية كأجهزة الاستخبارات مثلاً و التي يعلم الجميع بوجودها و يقبل بها ، أو كبعض الجمعيات و التنظيمات التي لا تعلن كل مبادئها و ماهيتها للجمهور ، لكنها تكون معروفة و معترف بها من قبل الدولة أو مرخص لها قانونياً .

أما الوجه الآخر السلبي ، فهو الوجه الخفي السري الذي لا يريد أن يفصح عن نفسه و لا بأي شكل من الأشكال لأن ذلك يُلحِق الأذى به هو حصراً لا بغيره و يستوجب تدميره أو إزالته أو تطبيق العقوبات القانونية و الشرعية بحقه و عليه هو حصراً ، و هو يضفي السرية على نفسه و لا يقبل بالبوح و لو عن جزء يسير منها و لا يقبل حتى بالإعلان عن وجوده و لو بطريقة اعتبارية أو مجرد تلميح .. و هو ليس له مكان يُستدل به عليه و لا حتى مجرد وثائق قانونية أو شرعية لأنه بكل بساطة يعلم أنه مُنكَر مستهجَن من قِبل المجتمع و الأفراد و الدولة ، و هو يستخدم شتى وسائل التورية و التمويه و الخداع لإخفاء نفسه ، فهو مرفوض مرذول من المجتمع و الدين و ليس له أدنى مقومات الشرعية ، وبالتالي .. لا يمكن له أن يعلن و لو عن جزء يسير من ماهية و هوية و طبيعة أعماله و مشاريعه . كما أنه لا يستطيع أن يقوم بعمله إلا في الظلام و الخفاء .. فاللص الذي يريد أن يسرق ، يفعل ذلك بالخفاء . والمجرم الذي يريد أن يرتكب جريمته ، يفعل ذلك في الخفاء . كذلك الزاني أو أي جهة أو شخص آبق موبِق . أما المنفعة المتحصلة من هذه السرية فهي حصراً للشخص القائم بها و العامل عليها و ليست لأحد غيره و

يقابلها حتماً الضرر لأطراف آخرين من قتل أو سرقة أو حرق أو تخريب أو هتك عرض و ما إلى ذلك . و إماطة اللثام عنه هو فائدة للمجتمع و الدولة ، على عكس الوجه السري الأول الذي يكون كشفه و إماطة اللثام عنه ، ضرر للمجتمع و الدولة و والأفراد .

و يبقى الفرق بين السرية الشرعية و السرية المحرمة حسب المنطق الثاني .. أن السرية الشرعية لا تتأتى شرعيتها إلا بقبولها لشيء معلن على مبدأ الآية القرآنية ..

{ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي } [البقرة : ٢٦٠] .

فالمخفي الكلي لا يثير الاطمئنان الكافي الوافي من قبل الإنسان الذي بطبيعته يخشى المجهول الكلي المطلق . أما السرية المحرمة ، فهي التي لا تقبل بأي شكل من الأشكال ، أي معلَن تحت أي ظرف . و بالتالي .. فكل سرية لا تعلن عن شيء من مقوماتها و مظهر بسيط من مظاهر وجودها و لا تطمئن عموم الجمهور بشيء من ذلك ، هي حرام منكَر غير جائز .

في نهاية الأمر يبقى السري و بصرف النظر عن سوياته من حيث الإيجاب أو السلب ، متموضعاً حسب المفهوم الافتراضي المعياري المذكور في بداية هذا المبحث ، يبقى متموضعاً ضمن نطاق المنفعة بمختلف أنواعها ، الفردية الشخصية منها أم الجماعية . و ما يحدد سلوكياته و شرعيته هي بدورها المنفعة أيضاً . و مرة أخرى يعود المنطق الثاني للقول .. **ما وُضع أمر ما موضع السرية ، إلا لمنفعة أو ضرر .**

الأصيل و الدّعي (المزيف)

إن الكائنات الحية جميعها تسعى إلى الأفضل ، من طعام و مكان أو مأوى و مسكن .. الخ و في حال توفر البدائل المتعددة ، فإنها تقوم بشكل تلقائي افتراضي بانتقاء الأفضل و الأمثل ، فيقع اختيارها عليه و تقوم باعتماده . و هو ما يسمى بعملية (المفاضلة) و هي عملية تقوم بها الكائنات الحية كافة دونما استثناء حتى النباتات منها ، فبعض الأشجار و النبات تقوم بالتمدد و الانجذاب نحو الضوء أو مكان قريب معين يكون أكثر ملائمة لها لناحية الهواء أو الرطوبة من المكان التي هي فيه .. حتى جذورها تمتد إلى تربة أخرى قريبة يتواجد فيها الماء أكثر من التربة التي تتموضع فيها الشجرة نفسها . لا بل إن ذلك يقع أيضاً على الجراثيم أو وحيدات الخلية أو بعض الكائنات المجهرية التي تنتقل من وسط محيط محلي إلى وسط محيط محلي آخر تراه أكثر ملائمة لوجودها و تكاثرها . و إذا لم يتيسر لها ذلك ، فإنها تقبع في مكانها و تنغلق على نفسها حتى تتغير شروط البيئة و المكان التي هي فيه ، من رطوبة و درجة حرارة و ضوء أو حموضة .. الخ .

هذا كله بدوره يقع بالطبع على الإنسان العاقل الذي هو أرقى الكائنات و أكثرها مهارة و تعقيداً . و نظراً لكونه كذلك ، فإن عامل المفاضلة لديه يدخل فيه عنصر

جديد لا يوجد لدى بقية الكائنات الأخرى ألا و هو .. **الأصيل** أو الأصلي أو الحقيقي . و كلمة (أصل) مرادفة لكلمة (أساس) .

و أصل الشيء هو أساسه أي منبته و جذوره التي يرتبط بها .. و الأساس أيضاً هو ما يبنى عليه ، يُقال .. أساس الحائط أو البناء و هي حجارة ضخمة توضع في الأرض تحت مستواها و تبنى عليها من ثم ، حجارة الحائط أو المترل . و الأصيل هو الذي له أصل يرتبط به و يختص فيه هو حصراً بعلاقة ما ، كانتماء مادي أو عضوي أو اعتباري .. الخ . فـــ (الأصيل) هو التعبير عن علاقة انتماء حقيقة بين شيء و شيء آخر أقدم منه أو أشمل أو ذو مصداقية أكثر و ما إلى ذلك . و بتعريف آخر .. هو شيء يستمد مصداقيته أو تعريفه أو وجوده أو حيثياته من شيء آخر أكثر ثباتاً أو منطقية أو حتى وجودية أو قبولاً عند الناس .

إن قضية الأصالة كمفهوم ، تنتشر في نواحي الحياة اليومية و المجتمع كافة بدءاً من قضية الحسب و النسب ذات الحساسية العالية و الأهمية الكبرى عند الإنسان حيث تلعب ما تسمى بـــ (شجرة العائلة) أو (صفاء العرق) أو (الدم الملكي) .. الخ ، تلعب تلك العناصر و المفاهيم دوراً هاماً في السويات الاجتماعية و السياسية و حتى الدينية ، لفئات معينة من البشر لا تزال تلقي بظلالها إلى الآن . و هو ما تناولته الأديان السماوية و عبّرت عنه . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ } [البقرة : ٢٤٨] .

{ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا } [النساء : ٥٤] .

{ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ } [مريم : ٦] .

{ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } [آل عمران : ٣٤] .

و في التوراة ..

[وَفِي الشَّهْرِ السَّابِعِ جَاءَ إِسْمَاعِيلُ بْنُ نَثَنْيَا بْنِ أَلِيشَمَعَ مِنَ النَّسْلِ الْمَلِكِيِّ] (الملوك الثاني ٢٥:٢٥) .

[هُوَ رَجُلٌ شَرِيْفٌ مِنَ النَّسْلِ الْمَلَكِيِّ] (المكابيين الأول ٣ : ٣٢) .

و هي أيضاً قضية تنسحب على بعض فصائل الحيوان (من المنظور الإنساني طبعاً) فالخيول و الكلاب و بعض الحيوانات و الطيور تُقاس بالنسبة لبعض البشر و الهواة حسب سلالاتها و أعراقها و تُبذل لأجلها الأموال الطائلة . و يُقاس على ذلك أيضاً أن الشخص المجهول الأب أو الوالدين ، تنخفض أسهمه الاجتماعية و الاعتبارية و مكانته في المجتمع إلى حد كبير جداً ، والكثير من هؤلاء يعانون الأمرّين أحياناً في المجتمع مع أنهم لا ذنب لهم في مجيئهم إلى هذه الدنيا . و قد يكون الواحد منهم أكثر الناس خَلقاً و خُلقاً و نباهة و علماً لكنه لا يستطيع الفكاك من كعبه الأخيل هذا .. كعب إثبات الهوية و الأصالة .

و ينسحب ذلك أيضاً على المصنوعات و المنتجات بأنواعها كافة و التي تتبع أو تعود في إنتاجها إلى شركات تصنيع شهيرة متخصصة ذات مصداقية عالية في منتجاتها و تحرص على سمعتها و شهرتها التجارية كما تحرص الناقة على فصيلها . حيث يعمد هذا الصانع أو تلك الشركة إلى وضع شارة معينة مميزة تدل على جودة هذه السلعة و هويتها و أصالتها العائدة لذلك المصنع أو تلك الشركة . و تسمى تلك الشارة بـــ (الماركة التجارية) و تهدف هذه العملية إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما .. **الأول** هو الإشارة إلى أصالة هذه السلعة كما ذكرنا و إثبات

هويتها الحقيقية و جودتها .. **الثاني** هو منع التزوير الذي من الممكن أن يقع على هذه السلعة من قِبل الغير طمعاً في الفائدة و كسب المال على حساب السلعة الأصلية و الصانع الحقيقي الذي بذل جهده و خبرته و تعبه و صِدقْ أداؤه و أمانة عطاؤه .

إذن .. فعملية الأصالة و مفهوم الأصيل ، يقابلها عملية التزييف أو المزَيف أو الدعي . و عملية التزييف هي بالتعريف عملية تقليد لشيء أصيل أو محاكاته و من ثم ادعاء أنه هو الأصيل أو يمثل الأصل . و هذه التعاريف و المصطلحات هي لغوياً قد وردت دلالة على السيء أو السلبي أو الرديء الفاسد . جاء في المعجم [1] .. المُحاكاةُ .. حاكَاه، و أَكثر ما يستعمل في القبيح ، و المحاكاة تعني المشابهة، تقول : فلان يَحْكي الشمسَ حُسناً و يُحاكِيها . و يقال .. حكَيْت فلاناً و حاكَيْتُه أي فَعلْتُ مثل فِعْله أو قُلْتُ مثل قَوْله سواءً لم أُجاوزه . و في الحديث : ما سَرَّني أَنِّي حَكَيْت إنساناً و أَنَّ لي كذا و كذا أَي أفعل مثل فعله و ينوبني مثل ما نابه . و جاء أيضاً .. الزائف و هو الرَّديء . يقال: زافَتْ عليه دَراهِمُه أَي صارت مَرْدُودةً لغِشٍّ فيها . و يقال درهم زيف أي رديء (انتهى) .

و القضية هنا برمّتها هي عبارة عن علاقة جدلية متضادة بين أصيل جيد و مزيف سيء .. بين حق و باطل . و لا تقف عند هذا الحد بل تتعداه إلى الحرب و الصراع فيما بين هذين المفهومين المتضادين ، و ادعاء السيء أو المزّيف منهما أنه الآخر و هي في وجه من وجوهها عملية تزوير . و قد بلغ من خطورة هذه

---

[1] انظر لسان العرب ، مادة (حكي) و (زيف) .

القضية أن تناولتها و ركزت عليها الأديان السماوية و أكدت على خطورتها .

جاء القرآن الكريم ..

{ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } [البقرة : ٤٢] .

{ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ } [الأنفال : ٨] .

{ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [الكهف : ٥٦] .

{ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ } [آل عمران : ٧٥] .

{ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [غافر : ٢٤] .

{ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ } [الماعون : ٦] .

و في التوراة جاء ما مفاده ..

[أَبْعِدْ عَنِّي الْبَاطِلَ وَالْكَذِبَ] (الامثال ٣٠ : ٨) .

[وَتَكُونُ يَدِي عَلَى الأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَرَوْنَ الْبَاطِلَ، وَالَّذِينَ يَعْرِفُونَ بِالْكَذِبِ] (حزقيال ١٣ : ٩) .

[حَتَّى مَتَى يُوجَدُ فِي قَلْبِ الأَنْبِيَاءِ الْمُتَنَبِّئِينَ بِالْكَذِبِ؟ بَلْ هُمْ أَنْبِيَاءُ خِدَاعِ قَلْبِهِمِ] (إرميا ٢٣ : ٢٦) .

كما بلغ من خطورتها أيضاً أن تناولتها حتى القوانين و الأعراف البشرية و وضعت لأجلها الكتب و المؤلَفات ، و ذلك نظراً لخطورتها الشديدة على المجتمع و الأفراد . ففي مجال المنتجات الصناعية و الأمور المالية النقدية (تزوير العملات) رُصِدت لأجل محاربتها أو الحد منها ، الأموال الطائلة و بُذِلت الجهود المضنية ، لأن إلغاؤها أو اجتثاثها هو صعب مستصعب على ما يبدو . كما شُكِّلت بسببها

هيئات و مؤسسات لتعقّبها . و صُنعت لأجلها و لكشفها ، الأجهزة التقنية المتطورة المعقدة و المكلفة . فالتزييف و التزوير يشكلان خطورة كبيرة على المجتمع و الأفراد و الدولة و الاقتصاد و العلم . و لا تقف خطورتها عند هذا الحد بل إن مكمن الخطورة في التزييف أو التزوير أو التقليد ، هو في قوة و مستوى إتقانه ، فكلما كانت عالية مرتفعة كلما اقترب المزيف من صفات و هيئة الأصيل و أشكَلَ ذلك على الناظرين و زيّن لهم أصالة المزيف الدعي و مصداقيته و في الوقت نفسه صعوبة كشفه ، ما مصداقه الآية القرآنية ..

{ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ } [التوبة : ١٠١] .

أما التوراة فقد حذرت من هؤلاء الرهط معتبرة إياهم فئة خطرة ضارة على المجتمع لا يستهان بها . و مما جاء في ذلك ..

[احْذَرِ مَنْ الخبيث الّذِيْ يَخْتَرِعُ الْمَسَاوِئِ] (سيراخ ١١ : ٣٥) .

[وَ انّ لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ انْ جِيْلِهِمْ شِرِّيْرٌ وَ انْ خُبْثَهُمْ غَرِيْزِيٌّ] (الحكمة ١٢ : ١٠) .

[لا تَثِقَ بِعَدُوِّكَ أبَدَاً فَانّ خُبْثِهِ كَصَدَأ النُّحَاسِ] (سيراخ ١٢ : ١٠) .

و صدأ النحاس متماه معه . كذا الإنجيل تطرق إلى هذه الفئة و حذر من مداهنتها و خداعها و غشها الصعب الاكتشاف على الإنسان العادي . حيث جاء ..

[فَعَلِمَ يَسُوعُ خُبْثَهُمْ وَقَالَ لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي يَا مُرَاؤُونَ؟] (متى ٢٢ : ١٨) .

لقد اتضح بالثبت التاريخي أن عملية التزييف أو التزوير في الوضع الافتراضي لها ، لا تقع إلا على شرطين اثنين لا ثالث لهما و لا بد من توفرهما معاً . و أي إخلال

بأحدهما أو عدم توفره ، يؤدي إلى انتفاء مبررات عملية التزييف و التزوير و القيام بها . **الأول ..** هو أن التزييف لا يقع إلا على الأصلي حقاً و الأصيل فعلاً . فلا يقع التزييف على زائف أو منحول أصلاً أو أبتر الأصالة أو مجهول الهوية مغمور المعرفة ضئيل الشهرة . **الثاني ..** أن يكون هذا الأصلي معتبر و مشتهر و ذو فائدة و قوة و سوية نفعية عالية ، فلا يكفي الأصلي أو الأصيل أن يكون أصلياً أو أصيلاً فحسب حتى يقع عليه التزييف ، بل يجب أن يكون نقياً صافياً بالأصالة و له قيمة مادية أو معنوية أو اعتبارية عالية ترتبط بها المنفعة و حاجة الإنسان لها . و لا بأس من سوق أمثلة مادية دلالية توضيحية كالماس مثلاً أو الذهب أو العملات الصعبة كالدولار مثلاً و ما إلى ذلك .

كذلك الزور بدوره هو وجه من وجوه التزوير و التزويق . و لعل مفهوم التزوير مشتق من كلمة (الزور) . فالتزوير هو تلفيق شيء لشيء و ادعاء أنه هو . و شهادة الزور أو قول الزور هو تلفيق قول كاذب و ادعاء أنه هو الحقيقة . و لا يخفى أن الزور هو من الفِعال و الأعمال الخطرة الهدامة في المجتمع ، لأنه يترتب عليه وقوع مظالم كبيرة قد تتمثل في إزهاق حياة أناس أبرياء و سلب ممتلكات و هتك أعراض و قلب حقائق و مفاهيم .

و بلغ خطورة مفهوم (الزور) أن تناولته الأديان السماوية و جعلته في الدرجات العليا من الموبقات الجِسام و الكبائر العظام و الإثم الفسوق . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ } [الحج : ٣٠] .

{ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا } [الفرقان : ٤] .

{ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا } [المجادلة : ٢] .

و في التوراة ..

[لأَنَّهُ قَدْ قَامَ عَلَيَّ شُهُودُ زُورٍ وَنَافِثُ ظُلْمٍ] (المزامير ٢٧ : ١٢) .

[شَاهِدُ زُورٍ يَفُوهُ بِالأَكَاذِيبِ، وَزَارِعُ خُصُومَاتٍ بَيْنَ إِخْوَةٍ] (الامثال ٦ : ١٩) .

[مِنْ عُمْقِ جَوْفِ الْجَحِيْمِ وَ مِنْ الْلِّسَانِ الْدَّنِسِ وَ كَلامُ الْزُّوْرِ] (سيراخ ٥١ : ٧) .

و في الإنجيل ..

[فَقَالَ يَسُوعُ لاَ تَقْتُلْ لاَ تَزْنِ لاَ تَسْرِقْ لاَ تَشْهَدْ بِالزُّورِ] (متى ١٩ : ١٨) .

إن السوآل الذي يُطرح بداهة في سياق هذا المبحث هو .. إذا كان التزوير و التزييف يقع على الأشياء المادية في الطبيعة و المصنوعات و المنتجات و تكون غايته هي المنفعة المادية البحتة المجرّدة . و يُصرَف لأجل محاربته و الحد منه لأقصى حد ، المبالغ الطائلة الهائلة و تُصنع لأجل ذلك الأجهزة و التقنيات المعقدة المتطورة و تُنشئ المؤسسات و الهيئات و تسن القوانين لأجل ذلك . فهل هو يقع أيضاً على المفاهيم و الرموز العليا في المجتمع و الدولة أو أي كيان و نظام آخر ؟؟ و كيف يتم التعامل معه و لأجله ؟؟ و ما هي المنفعة التي يمكن استحصالها من هكذا نوع من التزييف و التزوير ؟؟ و ما هي طبيعتها و شكلها ؟؟ و لماذا يقع مثل هكذا تزييف و تزوير ؟؟ .

في الواقع إن التزييف و التزوير يقع بشكل مؤكد على المفاهيم و الرموز العليا في المجتمع و حتى الأشخاص الذين يمثلون هذه القيم و المبادئ أو المفاهيم . لا بل إن التزييف الحقيقي و الأساس يقع بالدرجة الأولى على هذه القيم و المفاهيم و الرموز و الأشخاص الذين يمثلوها . و هو أمر قد ثبت وجوده عبر التاريخ البشري و امتلأت شواهده بذلك . و لعل الأديان السماوية خير شاهد على ذلك . و مفهوم تزوير المفاهيم تزييف الحقائق قد ورد ضمن مفهوم (الضلال) أو مفهوم (التبديل) إضافة إلى مفهوم الزور . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ } [النساء : ١١٩] .

{ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة : ٧٧] .

{ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ } [الأعراف : ٣٨] .

{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ } [إبراهيم : ٣٦] .

{ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ } [طه : ٧٩] .

{ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ } [الفرقان : ١٧] .

{ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي } [الفرقان : ٢٩] .

{ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } [الشعراء : ٩٩] .

{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } [الأحزاب : ٦٧] .

{ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } [يس : ٦٢] .

{ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } [فصلت : ٢٩] .

{ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ } [البقرة : ٥٩] .

{ مَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ } [البقرة : ١٨١] .

{ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ } [يونس : ١٥] .

و في التوراة جاء ..

[مَلْعُونٌ مَنْ يُضِلُّ الأَعْمَى عَنِ الطَّرِيقِ. وَيَقُولُ جَمِيعُ الشَّعْبِ: آمِينَ] (التثنية ٢٧ : ١٨) .

[يَنْزِعُ عُقُولَ رُؤَسَاءِ شَعْبِ الأَرْضِ، وَيُضِلُّهُمْ فِي تِيهٍ بِلاَ طَرِيق] (أيوب ١٢ : ٢٤) .

[الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ بِأَحْلاَمٍ كَاذِبَةٍ، يَقُولُ الرَّبُّ، الَّذِينَ يَقُصُّونَهَا وَيُضِلُّونَ شَعْبِي بِأَكَاذِيبِهِمْ وَمُفَاخَرَاتِهِمْ وَأَنَا لَمْ أُرْسِلْهُمْ وَلاَ أَمَرْتُهُمْ الَّذِينَ يَتَنَبَّأُونَ بِأَحْلاَمٍ كَاذِبَةٍ، يَقُولُ الرَّبُّ، الَّذِينَ يَقُصُّونَهَا وَيُضِلُّونَ شَعْبِي بِأَكَاذِيبِهِمْ وَمُفَاخَرَاتِهِمْ وَأَنَا لَمْ أُرْسِلْهُمْ وَلاَ أَمَرْتُهُمْ] (إرميا ٢٣ : ٣٢) .

و في الإنجيل تم الحديث صراحة عن الأشخاص المزيفين و المدعين و آثارهم في المجتمع و الناس ، حيث جاء ..

[فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِاسْمِي قَائِلِينَ: أَنَا هُوَ الْمَسِيحُ! و يُضِلُّونَ كَثِيرِينَ] (متى ٢٤ : ٥) .

[وَيَقُومُ أَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ كَثِيرُونَ وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ] (متى ٢٤ : ١١) .

[لأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، وَيُعْطُونَ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، لِكَيْ يُضِلُّوا](مرقس ١٣:٢٢) .

لكن الفرق الرئيس و التمايز الأساس فيما بين تزييف السلع و المنتجات و بين تزييف المفاهيم و الأفكار ، هو أن الذي يقع على السلع و المنتجات و الأموال و

الأشياء المادية الأخرى ، يقع لأجل المنفعة المادية فقط و الحلول مكان الأصلي و الادعاء به ، لكن مع شرط بقاء الأصلي و دوام وجوده ، لأن المزيف في هذه الحالة ، يعتمد على وجود الأصلي و يستمد زيفه من أصالته . و كلما كان الأصلي أصيلاً متأصلاً و موجوداً و ظاهراً للعيان و معلَن عنه ، كان بقاء المزيف و منفعته . و بانتفاء الأصلي ينتفي المزيف تلقائياً لأن بقاؤه يعني افتضاح أمره . كذلك الأمر إذا هبطت أسهم الأصلي و فائدته ، انعكس ذلك من فوره على المزيف . فعلى سبيل المثال ، إذا سحبت إحدى الشركات أحد منتجاتها الأصلية المشهورة ، من الأسواق و أعلنت عن انتهاء تصنيعه و عدم انتاجه مستقبلاً ، أدى ذلك من فوره إلى توقف إنتاج و ظهور المزيف بالتزامن معه ، لأن بقاؤه بعد زوال الأصلي يؤدي إلى انكشافه و افتضاح أمره و عزوف الزبائن عن شرائه و الإقبال عليه أو التعاطي معه . كذلك الأمر إذا انخفضت قيمة و فعالية و أثر المنتج و فائدته في السوق ، تنتفي بشكل بدهي عملية تزويره و تزييفه لأنها بكل بساطة تصبح عملية مكلفة لا طائل منها و لا جدوى و لا فائدة أو مردود يذكر ، كهبوط قيمة عملة معينة بشكل دائم مستمر أو إلغاء اعتمادها في المعادلات التجارية و البنكية كعملة رئيسة .

إذن .. في هذه الحالة ، حالة المنتجات و السلع و العملات و الأمور المادية ، يوجد المزيف بوجود الأصلي و الأصيل و يستمر باستمراره و يعتمد على علانية وجوده و إظهاره أمام الناس و إعلان وجوده ، و أي أثر أو عارض يلم بالأصلي ينعكس من فوره على المزيف . أما في حالة تزييف المفاهيم و المصطلحات و الرموز و أشخاصها ، فالأمر يختلف بشكل جذري ، و العملية هنا مغايرة تماماً .

فالتزييف يقع هنا لا لأجل منفعة ينالها من الأصلي ، بل من الضرر الذي يتأتى منه على مفهوم و مصطلح آخر أو قضية فكرية أخرى .

و التزييف أو التزوير في المفاهيم و المصطلحات و الأفكار ، غايته و أهدافه إخفاء الأصلي و التعتيم عليه و إعماء الناس عنه . فالسبب الأساس في وجود مذهب التزوير و التزييف ، هو عدم المقدرة على إزالة الأصيل الأصلي و اجتثاثه أو منعه عن الناس و منع الناس عنه . فإذا كان ذلك متعذراً لأسباب و ظروف موضوعية و اعتبارية معينة ، كان التزييف و التزوير هما الطريقة الأمثل للتعتيم على المفهوم الأصلي الأصيل و تغييبه و صرف أنظار الناس عنه و إشغالهم بشيء آخر على أساس إنه أصيل أو أنه هو نفسه الأصيل . {قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ} [يونس : ١٥] .

و الواقع أن الثبت التاريخي يشهد بأن عملية تزييف المفاهيم لا يقوم بها الجهال و عوام الناس و بسطاؤهم . و حتى ذوو الثقافة العادية منهم أو المتحصلون على قسط عادي لا بأس به من العلوم و المعارف و من هم فرادى على شاكلتهم . بل إن القائمين على عملية التزييف و التزوير للمفاهيم و الأفكار و العقائد بمختلف أنواعها الدينية منها أم السياسية أم الفكرية الأخرى . هم أناس و أشخاص أو جهات على قدر عالٍ من الاحترافية الفكرية و الثقافة و الاطلاع و المعرفة ، بل ربما هم في مصاف العلماء و سوياتهم حتماً و مرتبة الخبراء و مقدراتهم حصراً . فالتزييف أياً كان وصفه و موضعه و على أي شيء كان وقوعه هو لا بد مقترن بالخبرة و المهارة و بالذات بخصائص الأصلي الذي سوف يكون موضوع التزييف و التزوير . فمن يريد أن يزيّف و يزور بالمصوغات و المصنوعات الذهبية من

شنوف و قروط و غيرها ، لا بد من أن يكون لديه خبرة كافية وافية بالذهب و خصائصه و صناعته لكي يتيسر له إنتاج قلائد و مصوغات مزيفة من كالذهب . كذلك الأمر من يريد أن يقلد لوحات فنية أو منحوتات أثرية ذات قيمة عالية ، وجب أن يكون من أهل الفن و الرسم و النحت و على مستو عالٍ من الخبرة حتى يتمكن من تقليد اللوحة الأصلية . و غالباً ما يكون هؤلاء رسامون و نحاتون ماهرون و على درجة عالية من الاحترافية و الخبرة الفنية . كذلك يقع الأمر على تزوير العملات الصعبة التي تستوجب قدرات و مهارات و خبرات غير عادية من قِبل أناس و جهات متخصصة في عملية التزوير و علومها و تعقيداتها .

هذه القضية تنسحب أيضاً بحيثياتها و مستوجباتها على قضية تزوير المفاهيم و الأفكار و العقائد و الإيديولوجيات ، لا بل و حتى المصطلحات و الشعارات و الرموز ، التي تندرج جميعها تحت يافطة واحدة هي تزوير العقل و تضليله . و لا غرو أن من يقوم بمثل هكذا تزوير ، هم من فطاحل العقول و قِرم العلوم . و كما عملية تزوير الأشياء تحتاج إلى معدات و أدوات ، كذلك عملية تزوير المفاهيم و الأفكار تحتاج إلى أدوات و خطوات للقيام بها و أهمها ..

١) ــ حذق المفهوم الأصلي و الفقه فيه إلى مستوى الجوهر .

٢) ــ تزييف الأصلي من ضمن نطاق الأصلي نفسه و منظومته التابعة له و المختصة به ، لا من نطاق خارج نطاقه أو منظومة لأن ذلك يُفشل عملية التزييف و يظهرها على حقيقتها و يعرّيها أمام الجمهور .

٣) ـــ توظيف أشخاص ذوي مصداقية أمام عوام جمهورهم ، لجهة الشكل و المظهر و المضمون و حتى الموقع أحياناً و ذلك لتسويق المفهوم المزيف . و إذا تعذر ذلك ، يتم استجلاب أشخاص مواصفاتهم تطابق مواصفات هؤلاء القوم و يتم زرعهم في منطقة الأصلي الهدف للقيام بمهام التزييف و التحوير .

و هؤلاء الأشخاص يُسمَون بـــ (الأدعياء) و واحدهم يسمى (الدعي) . و هو أخطر شخص في عملية التزوير . جاء في المعجم [1] .. الدَّعِيُّ: الْمُتَبَنَّى الذي تَبَنَّاه رجلٌ فدعاه ابنَه و نسبُه إلى غيره، و كان النبي، صلى الله عليه و سلم، تَبَنَّى زيدَ بنَ حارثةَ فأَمَرَ اللهُ عز و جل أَن يُنْسَب الناسُ إلى آبائهم و أَن لا يُنْسَبُوا إلى مَن تَبَنَّاهم فقال { ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ } [الأحزاب : ٥]. و قال { وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ } [الأحزاب : ٤] . و الدَّعِيُّ : المنسوب إلى غير أَبيه. و قوله تعالى : و ما جعل أدعياءكم أبناءكم أي من تتبنونه، و لا يكون الرجل الواحد دعيا لرجل و ابنا له لأن الابن هو المعروف في النسب ، و الدعي اللاصق في التسمية لا غير، و لا يجتمع في الشيء أصيل و غير أصيل (انتهى) .

و خطورة الدعي عبر التاريخ ، تجلّت في أنه قد تقمص شخصية الأصيل الأصلي و أزاحه عن الواجهة و في الوقت نفسه استحوذ على صلاحياته ، أي بمعنى آخر ، أنه قد حل مكانه و الأهم الأخطر من كل هذا و ذاك .. أنه يفعل و يقرر كل

---

[1] انظر لسان العرب ، مادة (دعو)

شيء باسم الأصلي و يخرج أعماله و فعاله و صنائعه و أفكاره التي قد تكون كلها بمجموعتها مغايرة للأصيل الأصلي ، لكنها باسم الأصلي نفسه .

و من العوامل المساعدة المساهمة في تسويق الزائف الدعي لدى عموم الناس و دهماء الجمهور لا بل و حتى بعض خواصهم و متعلميهم ، هو أن الناس بعمومهم يأخذون بظاهر الأشياء و قشورها دونما الأخذ بمضامينها . فمن المعروف في علوم النفس و الاجتماع ، أن المظاهر الخارجية للأشياء و الأشخاص تلعب دوراً كبيراً فيما يسمى الفكرة الانطباعية الأولى و من ثم الأفكار اللاحقة لها . كما أنه من المعروف أيضاً أنه في مجال الفن و الرسوميات يوجد ما يسمى بـــ (الفن الانطباعي) أو (المدرسة الانطباعية) و هو مفهوم قائم على مبدأ نقل الأفكار و الآراء التي يريدها الرسام ، إلى المشاهد المتلقي و ذلك من خلال الانطباع الذي يتركه مضمون اللوحة الفنية عليه . حتى فن الكاريكاتير هو في حيثياته و غاياته يعتمد على المبدأ المذكور ذاته ، حيث يستطيع رسام الكاريكاتير أن يناقش قضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية أو دينية أو غيرها ، من خلال لوحة واحدة معبّرة تترك أثرها و انطباعها لدى المشاهد .

هو الأمر نفسه ينسحب على أشخاص النخب و القيادات الفكرية و الدينية و السياسية التي وجب أن يكون أشخاصها ذوي مظهر انطباعي حاد فيما يختص المجال الذي هم عليه متربعون . يضاف إلى ذلك حذقهم و درايتهم بمجال اختصاصهم الفكري الذي هم عليه . و فوق هذا و ذاك ، تموضعهم في موقع المسؤولية و الرياسة و الصدارة و تمتعهم بدعم من سلطة قاهرة معينة .. سياسية كانت أم دينية أم مالية .. محلية أم خارجية و غيرها .

هذه الأمور كلها تشكل ما يمكن أن نسميه و نطلق عليه مسمى .. مصنَع الأفكار أو الأيديولوجيات و تحويلها أو تعديلها أو قولبتها و إعادة صياغتها بما يتلاءم مع الصانع و بما يمكن أن يقبله عوام الجمهور و دهماؤه و بعض شرائحه و فئاته الأعلى بمرتبة أو مرتبتين أو حتى أكثر من ذلك ، ويسيروا عليها بكل ترحاب و سرور دونما أي شك أو اعتراض .

هذه هي الشروط الافتراضية المعيارية لما يمكن أن نسميه و نطلق عليه (تزييف المفاهيم و الأفكار و العقائد) و هي بالغالب الأعم تقع على المفاهيم و الأفكار و العقائد الكبيرة الحساسة و التي تحتاج مجهودات كبيرة ضخمة و أدعياء خبراء متخصصين و مدربين للقيام بمهامهم الموكولة إليهم ، خير قيام . و ما عدا ذلك فيمكن لأي شخص يمتلك مؤهلات عادية معينة ، أن يقوم بدور الدعي في مفهوم من المفاهيم أو قضية من القضايا و يجد هنالك من يصدقه و يتقبله قبولاً حسناً و ينصاع إليه انصياعاً عجباً !!!! .

و لعل شواهد الحياة اليومية و شواهد المجتمع مليئة بذلك و متخمة إلى حد الإشباع ، بوجود أولئك الأدعياء المدعين . و ما عمليات النصب و الاحتيال في المجالات كافة ، إلا عمليات يقوم بها أدعياء مدعون و مثال ذلك .. شخص يدعي أنه طبيب و يمارس مهنة الطب بشهادة مزيفة . أو شخص يدعي أنه محامي و يمارس مهنة المحاماة بشهادة مزيفة و هو ليس كذلك . و آخر يدعي أنه روحاني يشفي كذا مرض و كذا علة . و آخر منجم يدعي أنه يرجم بالغيب و يعرف المحظور و يدرك فحوى المجهول . و آخر .. و آخر .. إلى آخر السلسلة التي تلتف حول رقبة كافة وظائف الحياة و المجتمع و السياسية و الدين .

على أنه توجد هنالك موجبة أخرى لا يمكن التأكد منها أو من وجودها و إثبات حقيقتها و منطقية وجودها بشكل كامل ألا و هي .. إن تزييف الأصلي يكون أحياناً ربما ليس لمنفعة تتأتى من وجوده و تزويره أو لكره يقع عليه يستوجب تزييفه و تزويره ، لكن لأجل احتكاره فقط و منع الناس عنه و تغييبه عنهم لاحتكار الاستفادة منه من قِبل فئة معينة تريده هي لنفسها فقط أي أن تنتفع هي شخصياً به دوناً عن غيرها و يكون لها هي حصراً ، صلاحية استخدامه و التعامل به لاعتقادها ربما أنها هي الأحق بذلك . و هذا الشيء يقع على جوانب الأشياء المادية و المفاهيم الاصطلاحية في الوقت نفسه . فمثلاً إذا عثر شخص على خريطة كنز موجود في أرضه أو في مكان كان ، فمن الطبعي أن يحاول هذا الشخص منع الناس عنه و إبعادهم بشتى الطرق و الوسائل عن مكان وجود الكنز و زرع سياج من الأوهام و الأباطيل حول وجوده و تغييب مكانه بسور أو سياج مثلاً أو زرع الرهبة في نفوس الناس من الاقتراب منه بإطلاق إشاعة ما .. الخ .

نهاية الأمر .. يقول المنطق الثاني .. إن كل زائف مزور ، يقابله أصيل أصلي يستمد زيفه و زوره منه . و هو لا يقع إلا بعِلّة منفعة ينالها من وجوده فيكون من مصلحته بقاء الأصلي و عدم زواله .. أو ضرر يتقيه منه و لا يستطيع إزالته . و كما إن المزيف يستمد وجوده من الأصلي ، فإنه في الطرف المقابل يعتمد في وجوده على جهل الناس به و بماهيته المزَيفة و أحياناً .. جهلهم بالأصلي أو بشكل أدق .. تجهيلهم به ، و هو ما يقع على المفاهيم و الأفكار .

إذن .. فالمزيف هو مفهوم أو عنصر يندس في علاقة طرفية فيما بين الأصيل الأصلي ، و الجاهل فتكون العلاقة هي (أصلي – مزيف – جاهل) و يمكن

تمثيلها بالمعادلة التالية .. مزيف = أصلي + جاهل . و لا يستقيم وجود المزيف إلا بهذين العنصرين ، عنصر الأصالة و عنصر الجهل .. عنصر أصيل أصلي يستمد زيفه منه أو يوجد لأجله .. و جاهل يقبل بوجوده و لا يشعر بزيفه .

و أخيراً .. يبقى العنصر الإضافي المكمِل الذي يعتمد عليه المزيف للانتشار و استمرار الديمومة ، هو دغدغة المشاعر و العواطف ، سواء الغريزية منها أم الطائفية أم المذهبية أم العرقية أم السياسية و حتى أحياناً الاقتصادية .

العَدوّ

العدو هو الخصم و هو الشخص الذي يبذل لك العداوة و الخصام . جاء في المعجم [1] .. العَدُوُّ : ضِدُّ الصَّدِيق ، يكون للواحد و الاثنين و الجمع و الأُنثى و الذكَر بلفظٍ واحد . و العَدُوُّ ضِدُّ الوَلِيِّ ، و المعتدون هم أصحاب العدوان و الظلم . و الاعْتداءُ و التَّعَدِّي أو العُدْوان : هو الظُّلْم . و عَدَا عليه عَدْواً و عَدَاءً و عُدُوّاً و عُدْواناً و عِدْواناً و عُدْوَى و تَعَدَّى و اعْتَدَى ، كُلُّه : ظَلَمه . و عَدَا بنُو فلان على بني فلان أَي ظَلَمُوهم . و عَدَا طَوْرَه و قَدْرَهُ : جاوَزَهُ على المَثَل . و قوله تعالى { وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ } [المائدة : ٢] . أي يقول : لا تَعاوَنوا على المَعْصية و الظُّلْم . و قوله تعالى: { وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ } [البقرة : ١٩٠] . و التَّعَدِّي : مُجاوَزَةُ الشيء إلى غَيْره، يقال: عَدَّيْتُه فتَعَدَّى أَي تَجاوزَ. و قوله عز و جل { فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ } [المؤمنون : ٧] . أَي المُجاوِزُون ما حُدَّ لهم و أُمِرُوا به، و قوله عز و جل { فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ } [البقرة : ١٧٣] . أَي غَيْرَ مُجاوِزٍ لما يُبَلِّغه و يُغْنِيه من الضرورة، و أَصل

[1] انظر لسان العرب ، مادة (عدو) .

هذا كله مُجاوَزة الحدّ و القَدْر و الحَقّ. يقال: تَعَدَّيْت الحَقَّ و اعْتَدَيْته و عَدَوْته أَي جاوَزْته. و عَدا عليه اللِّصُّ عَداءً و عُدْواناً أي سَرَقَه (انتهى) .

و العدو بنظرنا و من خلال شيوع المصطلح و تراكماته عبر الزمن ، يمكن تعريفه بأنه .. هو الشخص الخصم الذي لا يكن لك المحبة و لا الود و لا يريد أو يتمنى لك الخير أو الفائدة و المنفعة ، بل يتربص بك الدوائر و يطلب لك الشر و السوء و الضرر و زوال النعمة عنك و الخير منك ، بأي شكل كان و على أي وجه من الوجوه وقع ذلك السوء و الأذى و كيفما اتفق ، حتى ضمن أدنى السويات . و العدو هو أيضاً الذي يضلك عن سواء السبيل . هو باختصار شديد .. الشخص الذي هو حرب لك ، سواء المادية الجسدية أم الاقتصادية أم المعنوية أم الاعتبارية أم غير ذلك . و عادى الشيء أي خالفه و جاء عكسه . و عدوك هو الشخص الذي لا يحبك و لا يضمر لك المودة من الداخل و إن بذلها لك من الخارج .

و العدو كمفهوم ، لا يتعلق بحيثيات و توصيفات بسيطة ، و هو ليس ناتج عن علاقة ارتباطية تنحو نحو البساطة ، بل هو مفهوم معقد و له تشعباته المتعددة و توصيفاته المختلفة . و ما صورة ذلك العدو بشكله الاجتماعي المتداول في الحياة اليومية في المجتمع ، إلا مظهر بدائي بسيط أو أولي إذا صح التعبير ، عن التدرجات التوصيفية لمفهوم العدو . فقد اتضح حسب المنطق الثاني ، أن كلمة (العدو) كمصطلح و مفهوم هي .. علم قائم بحد ذاته له أصوله و قوانينه و مبادئه و تفرعاته .. الشكلية منها و الضمنية .

قد يتساءل متساءل عن مبرر وجود مبحث (العدو و الصديق) في كتابنا هذا و مدى علاقته و ارتباطه بالمفاهيم الأخرى الموجودة في الكتاب ؟؟!! . و الحقيقة أن

كل تلك المفاهيم و المباحث السابق ذكرها في هذا الكتاب ، هي في شكل من أشكالها و حيثيات مضامينها ، تستوجب وجود العدو . فإذا كان حسب المنظور القرآني أنه يمكن احتمال وجود عدو للمرء داخل افراد أسرته و عائلته { إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ } [التغابن : ١٤] . فمن المؤكد أن ذلك ينسحب بدوره على الدوائر الأخرى المتتالية و التي هي أوسع نطاقاً .. الأقارب – الجيران – الحي – المدينة – الدولة – الطائفة – الحزب .. الخ . و هي حالات افتراضية معيارية سليمة تماماً . فمن تهيأ له احتمال أن يكون له عدواً داخل أسرته حيث الروابط الاجتماعية و العاطفية و الأخلاقية المتينة ، لهو خليق أن يكون له عدو أيضاً خارج نطاق الأسرة حيث تبدأ الروابط الاجتماعية و العاطفية و حتى الأخلاقية بالاضمحلال و الضمور .

و إذا أُضيف إلى ذلك ما ورد في آنفاً في تعريف التعدي في المعجم من أنه مجاوزة الشيء إلى غيره و أن المعتدون هم المجاوزون لما حُدَّ لهم ، فذاك ينطبق تماماً على مبحث (المبادئ و القيم في الوضع الافتراضي) المذكور في بداية الكتاب ، و يتعلق به . فهذا المبحث يؤسس لكل ما جاء بعده من مباحث في هذا الكتاب . فهذه المباحث الواردة في هذا الكتاب تستوجب جميعها وجود عدو ما . حتى في القرآن الكريم جاء العدو كمفهوم افتراضي طبعي يَسِم الحياة الدنيا و طبائع الكائنات و المخلوقات الحية فيها بموجب الآية القرآنية { وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ } [البقرة : ٣٦] . إضافة إلى ذلك ، فإن مفهوم و مصطلح (العدو) قد جاء بصيغ و صور متعددة في الأديان السماوية . ففي القرآن جاء

{ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ } [طه : ٣٩] .

{ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ } [القصص : ١٩] .

أما في التوراة فقد جاء مفهوم (العدو) بالدرجة الأولى كحالة موجهة ضد اليهود ..

[فَنَزَعَ الْمَلِكُ خَاتَمَهُ مِنْ يَدِهِ وَأَعْطَاهُ لِهَامَانَ بْنِ هَمَدَاثَا الأَجَاجِيِّ عَدُوِّ الْيَهُودِ] (أستير ٣ : ١٠) .

[إِذَا انْكَسَرَ شَعْبُكَ إِسْرَائِيلُ أَمَامَ الْعَدُوِّ] (الملوك الاول ٨ : ٣٣) .

[فَانَّكَ قَدْ اتَيْتِنا رَحْمَتِكَ وَ حُبِسْتَ عَنَّا الْعَدَوّ الّذِيْ يَضْطَهِدُنَا] (طوبيا ٨ : ١٨) .

[لا يَعْرِفُ الْصَّدِّيْقِ فِيْ الْسَّرَّاءِ وَ لا يَخْفَى الْعَدُوُّ فِيْ الْضَّرَّاءِ] (سيراخ ١٢ : ٨) .

[الْعَدُوُّ يُظْهِرُ حَلاوَةِ مِنْ شَفَتَيْهِ وَ فِيْ قَلْبِهِ يأتَمِرّ انّ يُسْقِطُكَ فِيْ الْحُفْرَةِ] (سيراخ ١٢ : ١٥) .

و من هذا المبدأ ، فإن أحد أهم العلوم و المعارف في الحياة ، هو .. معرفة العدو على مبدأ الحكمة و المثل الشهير القائل .. **اعرف عدوك** .

إن للعدو كمفهوم و مصطلح ، أصناف و ضروب عدة منها ..

١) ـــ العدو المباشر :

و له أنواع عدة .. منها الذي تختاره أنت أو يختارك هو ، و تعرفه أنت و يعرفك هو و تكون المواجهة حتماً مباشرة بينكما . و ذلك غالباً ما يقع من خلال التعامل اليومي . و يتعلق بالدرجة الأولى بالخلاف فيما بين طرفي العداء .

و منها أيضاً .. العدو الذي يختارك دون أن تختاره أنت ، و يجرّد لك العداوة دون أن تجرّدها أنت له . الصنف الثالث .. هو العدو الذي تختاره أنت دون أن يختارك هو ، و تجرّد أنت له العداوة دون أن يجرّدها هو لك . و غالباً ما تنشأ العداوة المباشرة تلك ، بين الأفراد أو الجماعات أو الأحزاب أو حتى الدول . و يكون بالغالب نتيجة لخلاف معين يتحدد حسب نوع الفئات المتعادية .. خلاف فردي .. خلاف أخلاقي .. خلاف بالرأي .. خلاف عقائدي .. الخ . هنا في هذه الحالة ، تكون بوادر العداوة و مقوماتها و عناصرها و آليتها ، واضحة مكشوفة لا لبس فيها .. ضرب .. إيذاء .. قتل .. قذف بالسمعة أو العرض .. حرب مادية أو عسكرية .. حرب اقتصادية .. الخ . و هذا في حالة كانت تلك العداوة مفعّلة فيما بين طرفي العداء أو أحدهما على الأقل . كما يمكن أيضاً أن تكون غير مفعّلة أي لا توجد بوادر هجوم و اعتداء ، لكن يوجد خصام و قطيعة صامتة ، و مع ذلك تبقى العداوة المباشرة قائمة لكن بصمت كأن يكون الطرفان متباعدان بعضهما عن بعض أو يوجد ما يفرق بينهما أو توجد قوة قاهرة أعلى منهما ، تردعهما مادياً أو معنوياً ، أو يمثل كل منهما للآخر ثقلاً مضاداً موازياً ... الخ . إذن .. فالعداوة المباشرة يمكن أن تكون معلنة فعالة أو معلنة ساكنة .

٢) - العداوة غير المباشرة :

و هي أيضاً تقع تحت ضروب عدة منها .. العداوة التي يعرف طرفيها بعضهما بعض ، لكن أساليب العداوة و آلياتها غير مباشرة كأن يتخذ الطرفان وسطاء

لحرب بعضهما بعض أو لمعاداة بعضهما بعض ، و يعتمدان وكلاء ينوبون عنهما في هذه المهمة .

و منها أيضاً العداوة التي تكون من طرف واحد فقط ، كأن يضطر شخص غني نافذ ذو صولة و جولة و سلطان ، شخص آخر ضعيف فقير لبيع ارضه أو داره أو تزويجه ابنته .. الخ . عن طريق أشخاص آخرين يسلطهم عليه فيُرونه من ضروب المضايقة و الإزعاج و التهديد بالويل و الثبور و عظائم الأمور ، أشكالاً عدة . فيرضخ الرجل للأمر و ليس ليده فيه من حيلة تؤتى و لا مخرج يُبتغى ، لكنه يعرف المسبب الحقيقي لذلك . فالطرف المعادي هنا لا يدخل طرفاً مباشراً في العداوة و أحياناً لا يظهر على الشاشة كعدو مباشر ، لكنه معروف أو يُظَنّ بوجوده .

٣) – العداوة الخفية :

و هي من أخطر العداوات و أشدها ضرراً ، ربما لأن أحد طرفي العداوة فيها و الذي هو موجبها ، يكون طرفاً مخفياً لا يظهر على الشاشة أبداً و تكون عداوته كامنة مخفية ، لابل إنه في بعض الأحيان قد يظهر عكس ذلك أي يُظهر المودة و الصداقة و المحبة و الرغبة في المساعدة و ما إلى ذلك ، لكنه في باطنه يتصرف كعدو لدود ، ما مصداقه الآية القرآنية التالية ..

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ} [البقرة : ٢٠٤] .

و في التوراة جاء ..

[الْعَدُوٌّ تَدْمَعُ عَيْنَاهُ وَ انْ صَادَفَ فُرْصَةً يَشْبَعُ مِنَ الْدِّمِ] (سيراخ ١٢ : ١٦) .

هذا العدو يمكن أن يكون ظاهراً عياناً أمام الطرف الآخر ببدنه و فعاله و قوله و ممكن ألا يكون كذلك ، لكن في كلتا الحالتين تكون عداوته باطنة مخفية لا تظهر إلا حين يتوفر لها الظرف المناسب لذلك ، أي لا تكون فعالة . أو تكون فعالة لكن لا تظهر للعيان . و خطورة هذا الجنس من الأعداء هو كون عداوته مخفية ، و كلما عمد إلى إخفائها كلما كانت ضراوتها أشد و ضررها أكبر . يُضاف إلى ذلك من خطورة ، أن توافر إمكانيات الغدر فيها أكبر .

٤) – العداوة التلقائية الافتراضية :

و هي العداوة التي تنشأ بشكل تلقائي نتيجة لظروف تلقائية طبعية ، و تتفاوت شدتها و ضراوتها من أدنى الحدود إلى أعلاها ، و أحياناً قد لا تصل إلى حد الكره الشديد أو الإيذاء . و هي عداوة لا يد لطرفيها أو أطرافها في حدوثها و لا دخل لهم فيها ، لكن نتيجة لظروف خارجية محيطية تلعب دورها ، فهي ليس ذات كوامن داخلية بالأساس . و من مثالها .. عداوة الطفل الصغير مع بعض أشقائه أو أقرانه حول دمية معينة أو تصرف ما .. أو عداوة تاجر صغير مع تاجر آخر منافس له في السوق .. أو عداوة طلاب المدارس فيما بينهم بسبب أشياء ثانوية تافهة تتعلق بأمور المراهقة و ما إلى ذلك .

٥) – العداوة المؤقتة :

و هي العداوة التي تنشأ لسبب من الأسباب و تشتمل على كل العداوات السابقة و تختلف شدتها من الخفيفة البسيطة إلى القوية الشديدة التي يمكن أن تُزهق فيها أرواح و أنفُس أو إيذاء و ضرر بالغين ، لكنها تختلف عن غيرها من العداوات بأنها مؤقتة تزول بزوال أسبابها ، كأن يقوم طرف خارجي بالصلح بين طرفي العداء و يحل الإشكال الناشئ فيما بينهما . أو أن يقوم أحد طرفا العداء على سبيل المثال بإنقاذ الطرف الآخر من خطر محدق به أو موت محتم ، فيتحول عداء هذا الأخير و بغضه له إلى صداقة و مودة . أو يفعل عامل الزمن فعله في ذلك ... الخ .

٦) – العداوة الدائمة :

و هي العداوة التي تنشأ بين طرفين أو أطراف عدة و تبقى إلى ممات أحدهم أو كلهم . و يمكن لأحدهم أو كلهم أن يورث عداوته إلى ورثته من بعده . و هؤلاء من بعدهم إلى ورثتهم و أبناؤهم و هكذا .. . و غالباً ما تقع تلك العداوة لأسباب عقائدية أو أسباب أخرى تتعلق بالظلم الاجتماعي و الطبقي أو عمليات قتل و تصفية .. إلى ما هنالك من أسباب قاهرة قوية لا يمكن التغلب عليها و بالتالي ، لا يمكن فصم عرى العداوة بين الطرفين أو بقية الأطراف .

٧) - عدو الانتماء :

و هي العداوة التي تنشأ نتيجة انتماء عقائدي أو ديني أو سياسي أو مذهبي .. الخ أو انتماء عرقي أو إقليمي . و الغالب في هذه العداوة ، أنه لا يكون للفرد أو الطرف دخل فيها ، فهو بمجرد انتماءه إلى منظومة معينة ، حتى و لو عن طريق الولادة ، يكون قد دخل في خانة العداء لطرف أو جهة أخرى .

٨) – العداوة المكتسبة :

و هي العداوة التي تتأتى لطرف معين .. شخص أو جهة أو جماعة ما ، نتيجة للسوك الذي يقوم به هذا الطرف حصراً . أي بمعنى أن يقوم هذا الشخص أو الطرف باستعداء الغير عليه ، و يجلب العداوة لنفسه جلباً و يستحلبها استحلاباً . و عادة ما يكون هذا الشخص أو الطرف ذا سوية فكرية و ثقافية ضحلة و لا يمتلك الوعي الكافي لإدراك أن ما يقوم به هو الخطأ المحض بعينه ، أو أن يكون مجبراً على ذلك إجباراً كأن يكون عبد مأمور أو موظف خاضع أو عسس تابع ... الخ .

يُلاحظ مما سبق ، أن مفهوم (العدو) و مصطلح (العداوة) هو مفهوم معقد متشابك و متداخل بعضه في بعض حيث يمكن للعدو أن يأخذ أكثر من صفة و مظهر . و يمكن للعداوة أن تشتمل على أكثر من بند مما ذُكِرَ آنفاً . و يُلاحَظ

أيضاً أن العداوة هي سهلة المنشأ سريعة المنشَر قوية المحشر و لا يمكن للمرء أن يجد منها فكاكاً و لا عنها بديلاً . و حسب المنطق الثاني ، فإن الإنسان منذ ولادته بل منذ وجوده جنيناً ببطن أمه ، يكون له أعداء و يكون طرفاً في معادلة العداء و العداوة .

و العداوة كمفهوم تتسم بأنها لا تحتاج لقبول أطرافها كافة بها حتى يتم اعتمادها و تكريسها ، بل يكفي بَدَارُ طرف واحد إليها حتى يقع الجميع في خانة العداء بعضهم لبعض ، حتى و لو كانوا لا يريدون ذلك . فعندما يتخذ شخص ما من نفسه عدواً لشخص آخر ، فإن هذا الأخير يصبح من تلقاء نفسه .. شاء أم أبى ، عدواً له . إذن .. فعلاقة العداوة و معادلتها ، تحتاج فقط لإيجاب واحد من أطرافها رغماً عن الآخرين ، حتى يتم تكريسها و قبولها . و نجد مصداق لذلك في الأديان السماوية و منها قصة قابيل و هابيل المذكورة في القرآن الكريم و التوراة و الإنجيل . ففي القرآن الكريم جاء ..

{ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة : ٢٧ - ٣٠] .

و في التوراة جاء ..

[وَعَرَفَ آدَمُ حَوَّاءَ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ قَايِينَ / ثُمَّ عَادَتْ فَوَلَدَتْ أَخَاهُ هَابِيلَ / وَحَدَثَ مِنْ بَعْدِ أَيَّامٍ أَنَّ قَايِينَ قَدَّمَ مِنْ أَثْمَارِ الأَرْضِ قُرْبَانًا لِلرَّبِّ / وَقَدَّمَ هَابِيلُ أَيْضًا مِنْ أَبْكَارِ غَنَمِهِ وَمِنْ سِمَانِهَا. فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ / وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ

يَنْظُرْ. فَاغْتَاظَ قَايِينُ جِدًّا وَسَقَطَ وَجْهُهُ / فَقَالَ الرَّبُّ لِقَايِينَ: "لِمَاذَا اغْتَظْتَ؟ وَلِمَاذَا سَقَطَ وَجْهُكَ؟ / إِنْ أَحْسَنْتَ أَفَلاَ رَفْعٌ؟ وَإِنْ لَمْ تُحْسِنْ فَعِنْدَ الْبَابِ خَطِيَّةٌ رَابِضَةٌ، وَإِلَيْكَ اشْتِيَاقُهَا وَأَنْتَ تَسُودُ عَلَيْهَا / وَكَلَّمَ قَايِينُ هَابِيلَ أَخَاهُ. وَحَدَثَ إِذْ كَانَا فِي الْحَقْلِ أَنَّ قَايِينَ قَامَ عَلَى هَابِيلَ أَخِيهِ وَقَتَلَهُ] (التكوين ٤ : ١ – ٨) .

و في الإنجيل جاء ..

[لَيْسَ كَمَا كَانَ قَايِينُ مِنَ الشِّرِّيرِ وَذَبَحَ أَخَاهُ. وَلِمَاذَا ذَبَحَهُ ؟ لأَنَّ أَعْمَالَهُ كَانَتْ شِرِّيرَةً، وَأَعْمَالَ أَخِيهِ بَارَّةٌ] (يوحنا الاولى ٣ : ١٢) .

على إنه إذا كان هنالك للعداوة من توصيفات و تصنيفات مما ذُكِر آنفاً ، فإنه كذلك الأمر لها آليات عدة مختلفة تختلف باختلاف أنواعها و طرائقها و حيثياتها . و تتدرج ضمن سويات متراتبة تبدأ من البغض الكامن و الكره المحض مروراً بالقطيعة دونما إيذاء ، إلى الإيذاء الاعتباري كالكيد عند ذي قوة و سلطان ، و من ثم الإيذاء الجسدي المادي بأنواعه كافة و التي قد تصل إلى التصفية الجسدية .

لكن هنالك آلية أخرى للعداوة و هي الآلية التي تقوم على بذل المفاهيم الخاطئة المغلوطة للعدو من الطرف الآخر . و ذلك للتأثير عليه و جعله يتخذ قرارات خاطئة تودي به إما إلى الهلاك أو الوقوع في أكبر خسارة ممكنة ، أو حرفه و تضليله عن الهدف الذي يريد الوصول إليه . و هذه الآلية أو العملية ، تسمى (التضليل) و كثيراً ما تقوم بها الدول و دوائر الاستخبارات المتعادية ، في الحرب و أحياناً في السلم .

و عملية التضليل هذه ، عُرفت منذ القدم و استخدمها الإنسان في أمور و مجالات عدة من حياته اليومية ، من مستوى الفرد و حتى الجماعة و الدولة . كما استخدمتها بعض الحيوانات و الحشرات للتعامل مع أعدائها الحيويين .

إذن .. التضليل هو عملية تُستخدَم أساساً للتعامل مع العدو . كما إن الأديان السماوية تناولتها و أكدت عليها و على وجودها و حذرت منها شديد الحذر و اعتبرتها أداة للوقوع في المهالك و الخسران المبين . و قد ورد مفهوم الضلال في مواقع كثيرة في القرآن الكريم و على مستوى عالي الأهمية حيث جاء ..

{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ } [إبراهيم : ٣٦] .

{ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ } [الفرقان : ١٧] .

{ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ } [السجدة : ١٠] .

{ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي } [سبأ : ٥٠] .

{ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ } [النساء : ٤٤] .

{ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ } [الحج : ١٢] .

{ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ } [ق : ٢٧] .

{ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا } [نوح : ٢٤] .

{ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ } [النساء : ١١٩] .

{ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ } [المائدة : ٧٧] .

{ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ } [الأعراف : ٣٨] .

{ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ } [طه : ٧٩] .

{ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ } [طه : ٨٥] .

{ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ } [الشعراء : ٩٩] .

{ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا } [الأحزاب : ٦٧] .

{ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ } [يس : ٦٢] .

{ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ } [فصلت : ٢٩] .

و في التوراة جاء ما مفاده ..

[لَقَدْ ضَلَلْنَا عَنِ طَرِيْقِ الْحَقِّ] (الحكمة ٥ : ٦) .

[كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَالرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا] (إشعياء ٥٣ : ٦) .

[وَ امَّا اذا ذَهَبَ فِيْ الْضَّلال فهِيَ تُخْذِلُهُ وَ تَسَلِّمْهُ الَىِّ مَصْرَعِهِ] (سيراخ ٤ : ٢٢) .

[الْضَّلال وَالْظُّلْمَةُ خَلْقا مَعَ الْخُطَاةِ وَالّذِيْنَ يرْتَاحُوْنَ الَىِّ الْشَّرِّ فِيْ الْشَّرِّ يَشِيْخَوْنَ](سيراخ ١١ : ١٦) .

و في الإنجيل جاء ..

[بِحِيلَةِ النَّاسِ، بِمَكْرٍ إِلَى مَكِيدَةِ الضَّلاَلِ] (أفسس ٤ : ١٤) .

[فَلْيَعْلَمْ أَنَّ مَنْ رَدَّ خَاطِئًا عَنْ ضَلاَلِ طَرِيقِهِ، يُخَلِّصُ نَفْسًا مِنَ الْمَوْتِ] (يعقوب ٥ : ٢٠) .

[احْتَرِسُوا مِنْ أَنْ تَنْقَادُوا بِضَلاَلِ الأَرْدِيَاءِ] (بطرس الثانية ٣ : ١٧) .

[وَيْلٌ لَهُمْ! لأَنَّهُمْ سَلَكُوا طَرِيقَ قَايِينَ، وَانْصَبُّوا إِلَى ضَلاَلَةِ بَلْعَامَ لأَجْلِ أُجْرَةٍ] (يهوذا ١ : ١١) .

و حسب المنطق الثاني ، فإنه إذا كانت هنالك أمم و شعوب و جماعات بأكملها قد تكون على طريق الضلال .. و إذا كان هذا الضلال و التضليل من أخطر الأساليب و الأدوات التي من الممكن استخدامها ضد شخص أو جهة أو طرف ما .. ألا يكون المضلِل هو أخطر عدو على المضلَل ؟؟!! .

إن ما يقابل مفهوم العداوة هو مفهوم الصداقة ، و ما يقابل العدو هو الصديق . و كلمة (الصداقة) أو (الصديق) جاءت من الصدق و في الدلالات اللغوية لهذا المصطلح ، جاء [1] .. الصَّدْقُ: الكامل من كل شيء . و الصَّدَقة: ما أَعطيته في ذات الله للفقراء. و المُتصدِّق: الذي يعطي الصِّدَقَة. و الصَّدَقة: ما تصَدَّقْت به على مسكين، و قد تَصَدَّق عليه، و في التنـــزيل: و تَصَدَّقْ علينا، و قيل: معنى تصدق ههنا تفَضَّلْ بما بين الجيّد و الرديء كأَنهم يقولون اسمح لنا قبولَ هذه البضاعة على رداءِتها أَو قلَّتها . و فُسر قوله تعالى { و جِئنا بِبِضاعةٍ مُزْجاةٍ فأَوْفِ لنا الكيلَ و تَصَدَّقْ علينا } فقال : مزجاة فيها إغماض و لم يتم صلاحُها ، و تَصَدَّقْ علينا أي فَضِّل ما بين الجيّد و الرديء . و الصِّدْق : نقيض الكذب ، صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقاً و صِدْقاً و تَصْداقاً . و الصدق: خلاف الكذب و هو مطابقة الخبر لما في نفس الأمر و الصديق : من إذا غاب عنك حفظ غيبتك ، و صدق وده لك . و الصديق :

[1] انظر معاجم .. كتاب العين – لسان العرب – مجمع البحرين ، مادة (صدق) .

من لا يسلمك عند النكبات. و الصداقة مصدر الصديق، و قد صادقه مصادقة أي يصدقه النصيحة و المودة. و صَدَّقه : قَبِل قولَه (انتهى) .

و بنظرنا فإن الصدقات التي تُعطى للفقراء و المساكين من أموال و نفائس و طعم و لباس و غيرها ، قد سُميت بذلك لأن الواهب لها هو صادق في إعطائها لمن يحتاجها دونما رياء أو إكراه أو حرج أو طلباً لمنفعة مقابلة و ما إلى ذلك . و هو يعطيها عن حب و طواعية و رضا و قناعة كاملة . جاء في القرآن الكريم ..

{ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ } [البقرة : ١٧٧] .

{ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا } [الإنسان : ٨] .

{ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا } [الإنسان : ٩] .

و جاءت كلمة الصديق في القرآن الكريم ، كدلالة على الإنسان الصادق الناصح الأمين الذي لا يضلِل ..

{ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ } [يوسف : ٤٦] .

كما جاءت كدلالة على الشخص الذي يتدخل لحماية صديقه عند الشدائد و يكون منقذاً له من المهالك { فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ * وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ } [الشعراء : ١٠٠ - ١٠١] .

كما جاءت كدلالة على الإنسان المأمون الجانب و المرفوع الكلفة { وَلَا عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ

أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ ... } [النور : ٦١] .

من كل ما سبق ، يتضح لنا أن الصديق هو الإنسان الذي يكون معك صادقاً و لك مخلصاً ، و يبذل لك الخير و الفائدة و العون .

كما إن مفهوم الصداقة هو مفهوم تبادلي حتى و لو قام به طرف واحد . فإذا اختار شخص ما أو طرف ما ، أشخاصاً أو أطرافاً أخرى و اتخذ من نفسه صديقاً لهم ، فإنهم بالتالي سيكونون أصدقاء له حتى و لو لم يبادروه هم بذلك أو لم يبادلوه الصداقة . و تكون العلاقة هنا هي علاقة صداقة و لكن .. و لكن حرف استدراك .. إذا بادله الطرف الآخر العداوة ، فإن المعادلة هنا تنقلب فوراً إلى صيغة العداوة ، حتى و لو احتفظ الطرف الأول بالصداقة ، حسب المنظور القرآني .. { لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ... * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [المائدة : ٢٧ - ٣٠] .

بناء عليه و عليه بناء .. يقول المنطق الثاني .. إن اجتمعت الصداقة مع العداوة ، فإن العلاقة و المعادلة هي العداوة ، مهما كانت درجة الصداقة عالية و مهما كانت وتيرة العداوة من الطرف الآخر منخفضة . و حسب علم الرياضيات فإن قيمة المليار الموجبة ، مضروبة بالواحد السلبي ، هي مليار سلبي . حسب العلاقة الرياضية التالية .. / ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ X ١- = - ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠ / .

و بما أن (العدو) كمفهوم و مصطلح هو في أخطر سوياته الشخص الذي يبذل لك الضلالة و التضليل و الكذب و الخداع ، فإن (الصديق) كمفهوم ، هو

الشخص الذي يصد عنك هذه الضلالة و يريك سواء السبيل حسب مصداق الآية القرآنية ..

{ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } [النساء : ٦٩] .

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } [مريم : ٤١] .

{ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [الحديد : ١٩] .

و تبعاً لذلك .. فإن (الصديق) كمفهوم و مصطلح ، هو الصعب المستصَعب .. الصعب الإيجاد .. الصعب الدوام .. الصعب المحشر .. النادر .

الألغام الفكرية

اللغم أو الألغام ، هو تعبير شائع شاع استخدامه في العلوم العسكرية و الحربية ، و شاع الحديث عنه في الحروب و مناطق النزاع و التوتر العالمية ، و تناولته وسائل الإعلام ككلمة دلالية مرتبطة بالعناصر السابقة . و تاريخ الاستخدام اللغوي لهذه الكلمة هو تاريخ حديث جداً و شبه معاصر ، ظهر في القرن الماضي أثناء الحروب و بالذات .. العالمية منها ، منسوباً إلى اختراع عسكري هو عبارة عن عبوة ناسفة متفجرة تُدفَن بالتراب و يُحثى على آثارها ألاّ تظهر أو تُعرف . و بمجرد أن يطأها جسم غريب ذو ثقل مادي معين أو يمر فوقها ، فإنها تنفجر به مخلّفة آثاراً مادية جسيمة و أضراراً تدميرية قد تنتهي بإعطاب هذا الجسم أو تدميره إذا كان جماداً ميكانيكياً (دبابة – شاحنة – عربة ... الخ) أو وفاة الكائن الحي الذي عبر من فوقها (إنسان – دابة ... الخ) و بأحسن الأحوال ، تترك عاهة مستديمة (تشويه – حروق – فقد بصر – بتر أطراف ... الخ) و هنالك أيضاً من الألغام ما هو موقوت مؤقت ينفجر من تلقاء نفسه بمجرد مرور فترة زمنية محددة تمت معايرته بها بواسطة مؤقِت زمني .

و قد وردت الدلالة اللغوية لكلمة (لغم) في المعجم على الشكل التالي [1] .. لغم لَغِمَ لَغَماً : هو استِخْبارُه عن الشيء لا يستيقنه و إِخبارُه عنه غير مستيقن أَيضاً . و لَغَمْتُ أَلغَمُ لَغْماً إِذا أَخبَرْت صاحبك بشيء لا تستيقنه . و اللغيم : السِّرّ. و لَغَم البعيرُ يَلْغَم لُغامه لَغْماً إِذا رمى به أرضاً . و كلُّ جوهر ذوّاب كالذهب و نحوه خُلِط بالزَّاوُوق مُلْغَم (انتهى) .

و في الأدبيات الحديثة و علم السياسة و الاجتماع الحديثين ، شاع استخدام المصطلح للدلالة على الأمور المبهمة المجهولة أو التعابير التي تخفي وراءها مقاصد أخرى خِبتاً و تورية كأن يقال .. هذا كلام ملغوم . أو .. فحوى هذا الخطاب ملغوم ... الخ . أي أن صاحبه يخفي وراء الأكمة ما وراءها و يريد شيئاً آخراً غير الذي يقوله ظاهراً . و الشيء الملغوم هو الشيء الذي يحوي بداخله شيء آخر مخفي ، يمكن أن يتأتّى منه أثر ما ، و هو عادة ما يكون بالسلب أو ذو ضرر و أذى . فكلمة (ملغوم) هي ذات معنى سلبي أكثر منه إيجابي .

و بالأحوال كافة .. فإن اللغم ككلمة و دلالة ، قد وقعت على .. و ارتبطت بتلك العبوة الناسفة السابق ذكرها و التي قد تنفجر بمجرد التعامل معها أو انقضاء فترة زمنية محددة . و إذا كان اللغم كأداة حربية عسكرية ، يتعلق اصطلاحياً بالجانب المادي ، فهل يمكن إسقاط هذا المصطلح على الجانب الاعتباري المعنوي أو بمعنى أدق الجانب الفكري ؟؟ و هل هنالك فعلاً ما يسمى بـــ .. الألغام الفكرية ؟؟ و ما هو دورها و وظيفتها ؟؟ .

---

[1] انظر لسان العرب مادة (لغم) .

في الواقع و حسب ما يبرز من منظور المنطق الثاني ، فإن الألغام الفكرية هي حالة واقعة و حاصلة في التاريخ البشري الفكري . بالرغم من أنها حالة مستترة مخفية لا تظهر للعلن ، إلا أن آثارها و نتائجها لا بد ظاهرة للعلن و لكل خبير متمرس متحصل على الثقافات و العلوم و الدراية العالية و المتخصصة أحياناً و هو أمر يتماهى تماماً مع موضوع الألغام المادية الناسفة المتفجرة حيث ارتبط بهذا المجال ما يسمى بـــ (خبراء الألغام) الذين هم على دراية كاملة وافية بالألغام ، و متخصصون بعلومها و تفاصيلها و تركيبها و كيفية التعاطي و التعامل معها و تفكيكها و يستخدمون لأجل هذه الغاية أجهزة متقدمة تقوم بالكشف عن هذه الألغام و تعطيلها .

و الألغام الفكرية بنظرنا ، هي مفاهيم أو قضايا فكرية تتسبب بإشكاليات فكرية كبيرة عند تناولها أو مناقشتها . و يكون لهذه الإشكاليات الفكرية تداعيات مادية كبيرة تتأتّى منها و بسببها ، و تتجلى بمظاهر خطيرة عدة منها الحروب الأهلية الدموية أو الحروب الطائفية أو المذهبية . و منها أيضاً (و هو الشائع) الانشقاقات الدينية الطائفية و المذهبية ، و كذا الأمر الانشقاقات السياسية . فعبر التاريخ ، هنالك الكثير من المذاهب و الفِرَق و الأحزاب الدينية و السياسية التي نشأت و تشكلت نتيجة لإشكاليات فكرية تظهر فجأة و تتسبب في نشوء خلافات فكرية حادة و وجهات نظر متباينة إلى حد كبير يكون من نتيجتها أن تجدْ كل وجهة نظر من يتعصب لها و يتحزب لأجلها . و تنشأ تبعاً لذلك المعارك الفكرية التي تليها في غالب الأحيان المعارك المادية الدموية و يتم ترسيخ الانشقاق الفكري و تكريس الانقسام المذهبي أو الديني أو السياسي ... الخ .

في الواقع .. إنّا و إن كنا لا نريد في هذا المبحث أن نسمي بعض الحوادث و الأشياء بمسمياتها ، فإنّا نقول .. إذا نظر الباحث المدقق ذو اللب العاقل ، في بدايات كبرى الانشقاقات الدينية و نشوء بعض الحركات المذهبية في التاريخ ، فإنه يتوصل إلى نتيجة مفادها .. إن ما حصل كان سببه الارتطام بألغام فكرية و المرور فوقها ، ما أدى إلى انفجارها بوجه من ارتطم فيها أو حاول العبث بها ، و هو أمر امتد إلى الفترات الزمنية اللاحقة و انسحب على معظم الانشقاقات أو التكتلات أو المذاهب و التيارات الدينية و السياسية . و لا يزال إلى وقتنا الراهن يفعل فعله و تظهر آثاره جلية واضحة للعيان و هو أمر قد حذرت منه الأديان السماوية و أبرزته بصورة من الصور داعية إلى تجنبه و الاحتراس من محاذيره و نتائجه المدمرة و ذات الأثر السلبي في أحسن أحوالها جاء في القرآن الكريم ..

{ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ } [الأنفال : ٦] .

{ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ } [الرعد : ١٣] .

{ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ } [الكهف : ٥٦] .

{ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ } [الحج : ٨] .

{ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ } [آل عمران : ٧] .

{ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء : ٣٦] .

و في التوراة جاء ..

[لا تجَادِلْ فِيْ أمْرٍ لا يَعْنِيْكَ] (سيراخ ١١ : ٩) .

[مِنْ ابْتَغَى الْشَرِيعَةَ يَمْتَلِئُ مِنْهَا وَ الْمُرَاءِيّ يَعْثُرُ فِيْهَا] (سيراخ ٣٢ : ١٩) .

و السوآل المطروح في هذا السياق هو .. كيف يمكن للألغام الفكرية أن تجد موضعها أو تجد من يضعها في مجال أو حقل فكري معين ؟؟ إن الألغام الفكرية و حسب المنطق الثاني و منطوق الآيات السابقة ، لا تجد موضعها إلا في مكان الشبهات و العموميات ، و بالتالي محاولة إيجاد التفاصيل لها و خلق آراء متباينة اتجاهها .

و تنبع جذور القضية الإشكال من خلال قبول البعض بها و رفض الآخر لها . و لا يأخذ الأمر مداه الحقيقي و تكبر كرته الثلجية إلا عندما يؤول ذلك الخلاف و القبول و الأخذ و الرد ، إلى ملأ القوم و رؤسائهم الذين يتربعون على قمة هرم الجسم الفكري الذي غالباً ما يكون دينياً أو سياسياً ، و هي قضية تجلت بما عُرف بالإسلام بـــ (البدع) أو (البدعة) و هي إظهار شيء جديد لم يكن مألوفاً أو موضوعاً للنقاش في عهد الرسول (ص) . و في الفقه الإسلامي هنالك بدعة محمودة مصرّح بها و أخرى مذمومة منهي عنها بمبدأ الحديث النبوي [1] « مَنْ سَنَّ سُنَّةَ خَيْرٍ فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا فَلَهُ أَجْرُهُ وَمِثْلُ أُجُورِ مَن اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ شَرٍّ فَاتُّبِعَ عَلَيْهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَن اتَّبَعَهُ غَيْرَ مَنْقُوصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا » . لكن المشكلة هي ليست في نوع و كيفية تلك البدعة

---

[1] سنن الترمذي ، حديث / ٢٨٩٠ / ، موسوعة الأزهر الشريف .

محمودة خيّرة أم مذمومة سيئة ، بل في أن هنالك من يمكن له أن يجعل من الاثنتين إشكالية فكرية و يتخذ منهما موضعاً للغم فكري قابل للانفجار بالطريقة التي هو مصمم لأجلها .

و القرآن الكريم قد حسم هذه القضية عندما نزلت القرآنية { الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا } [المائدة : ٣] . و الآية { وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا } [الإسراء : ٣٦] .

بمعنى أنه لا يوجد هنالك ما يمكن إضافته للدين و هما آيتان يمكن ربطهما بالآية القرآنية السابقة { فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ } [آل عمران : ٧] .

أما حول ماهية الألغام الفكرية و أنواعها ، فالمنطق الثاني يجيب .. أنها تقع على أنواع و ضروب عدة ..

فهنالك ألغام قد تنفجر بك تلقائياً بعد سنة .. و هنالك ألغام قد تنفجر بعد عشر سنوات .. و أخرى قد تنفجر بك بعد مئة سنة و هنالك من قد ينفجر بعد أكثر من ذلك ، إي هي ألغام موقوتة .

و هنالك ألغام تنفجر بك بمجرد الاقتراب منها و التعامل معها أي بمعنى أنها ألغام غير موقوتة لكنها فقط تنفجر حينما تأتي عليها ، سواء بعد يوم أو سنة أو بعد ألف سنة .

و هنالك ألغام مخصصة لقضايا و أمور فكرية معينة لا تنفجر إلا بها ، تماماً كما هي بعض الألغام الحربية المخصصة إما للأفراد أو العربات أو الدبابات .

و كما هنالك ألغام مادية ناسفة تكون مخفية ضمن طرود و حقائب لا تنفجر إلا من خلال فتحها ، كذلك الأمر هنالك ألغام فكرية لا تنفجر إلا من خلال التطرق إليها مباشرة و محاولة الخوض في تفاصيلها و أمورها الثانوية .

و حسب العلوم الحربية و الدراسات العسكرية ، فإن أخطر الألغام ، هي تلك التي تكون مموهة بشكل لعب أطفال أو أدوات استخدام أو زينة مغرية كالأقلام و غيرها ، كذلك الأمر فإن أخطر الألغام الفكرية هي تلك التي تكون مموهة تحت قضايا فكرية خيّرة و إيجابية تمثل أصولاً فكرية من مذهب أو فكر معين .

و الصاعق الذي يُشعل تلك الألغام و يفجرها ، هو سهل جداً و لا يحتاج إلى عناء جهد و بذل تعب .. ربما سوآل بسيط بريء حول قضية معينة .. هل يجوز كذا أم كذا ؟؟؟ هل يجوز فعل كذا لأجل كذا أو في حال كذا ؟؟؟ ... الخ أو فتح نقاش عادي بسيط .

و أخير .. ربما نستطيع ضرب مثال بسيط على تلك الألغام الفكرية في التاريخ العربي ، و هي قضية (خلق القرآن) التي ذهب ضحيتها الكثير الكثير . و كانت بكل بساطة بسبب سوآل بسيط .

انتهى بعونه .. المنطق الثاني

نزار يوسف .. كاتب و باحث من سورية – اللاذقية صَدَرَ له المطبوعات و المنشورات التالية :

ــ الزمن العربي الرديء (دراسة و بحث)
ــ الحكمة بين الإله و السلطان (دراسة و بحث) .
ــ الوصاية الفكرية (دراسة و بحث) .
ــ أنا و الملاك (رواية طويلة) .
ــ من وحي الواقع (مقالات) .
ــ هوية الفكر العربي المعاصر (دراسة و بحث) .
كَتَبَ في موقع إيلاف على الرابط www.nizar.elaphblog.com

سعر الكتاب / ١٠ / دولار

القارئ المحترم .. إذا كنت قد قرأت كتابي هذا و أعجبك ، و أحببت أن تساهم بمبلغ ما .. أنت تراه مناسباً ، يمكنك مشكوراً التحويل إلى حسابي البنكي التالي مع ذكر أسباب التحويل (نزار يوسف)

INTERMEDIARY BANK : BYBLOS BANK SAL BEIRUT LEBANON
SWIFT CODE : BYBALBBX
BENEFICIARY BANK : BYBLOS BANK SA SYRIA
SWIFT CODE : BYBASYDA
BENEFICIARY A/C NO : 2200405395001 165089
BENEFICIARY NAME : NIZAR SLEIMAN YOUSEF
REASON OF PAYMENT : (needful) يُذكر سبب التحويل

العنوان أعلاه للتحويل من خارج سورية ، أما للتحويل من داخل سورية ، يُكتفى فقط برقم الحساب و الاسم .